



مركز جامعة القاهرة
للتعليم المفتوح



الأدب الأندلسى

دراسة ونصوص



تأليف

أ.د. شعبان محمد مرسى   أ.د. محمد موسى خشبة

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة




تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

الأدب الأندلسى

دراسة ونصوص

تأليف

أ.د. شعبان محمد مرسى   أ.د. محمد موسى خشبة

كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



تم التنسيق والإخراج الفنى والتدقيق اللغوى
بإدارة إنتاج الكتاب بالمركز

المحتـــويات


تليجرام
غواص في بحر الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا كتاب موجز في الأدب الأندلسي، يعنى بإبراز الملامح العامة له، ويرسم صورة للفنون التي ظهرت فيه، ويتتبع الموضوعات التي ركز عليها أدباء تلك البيئة وشعراؤها، وقد عرض القضايا الأدبية عرضا مكثفا؛ إذ لا يمكن العناية بالتفاصيل الدقيقة كلها على مدى ثمانية قرون، فإن ذلك العمل يقتضي جهودا كثيرة، ويحتاج فريقا صبورا من الباحثين الجادين. وليس طول الزمن وحده هو العامل المهم، إنما كثرة الإنتاج هي أهم عامل.

وعلى الرغم من اعتماد الأندلس على المشرق في عصر الولاة؛ فإنها مالت إلى الاستقلال الفكري والأدبي قليلا قليلا في عصر بني أمية، حتى بلغت قمتها، ونضوج شخصيتها أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر، وأيام العامريين، وصارت الأندلس تهب للشرق أنواعا من الأدب والثقافة، منها فن الموشحات، وذلك في عهد الطوائف ومن تلاهم.

وكل قضية عرضت كان لها شواهد، ففن الشعر مقسم إلى موضوعات، كل موضوع تعرض فيه مسائله مصحوبة بنصوص شعرية من نتاج الشعراء الأندلسيين. وقد احتوى الشعر على موضوعات الحنين والحماسة والجهاد والرثاء والغزل والمدح والهجاء ووصف الطبيعة، ووصف المصنوعات، والزهد ومدح النبي. وجميع هذه الموضوعات دلت عليها نصوص شعرية رائعة.

ولو وصل إلينا ما أبدعوه كاملا لكان عظيما مهولا، ولكن أحرق أكثره في الفتن التي كانت بين ملوك الطوائف، وفي الحروب التي شنها الكاثوليك على المسلمين باسم حرب الاسترداد، فقد هدموا المساجد، وأحرقوا الكتب، وأجبروا المسلمين على التنصر أو الهجرة، وأخيرا أحرقوا الكتب التي كانت للمسلمين في آخر معقل لهم ، في غرناطة، بعد أن سلمها لهم

أبو عبد الله بن الأحمر ، ولم يراعوا أي شرط من شروط معاهدة التسليم.

واشتمل النثر الأندلسي على فن الخطابة وفن الرسالة وفن المقامة وفن الحكايات، وجميع هذه الفنون لها خصائص عامة، ركز الكتاب عليها، وأرخ لظهورها وتطورها وذكر الأدباء الذين أبدعوا فيها، وما وجد منها وما فقد؛ لكي يحيط والقارئ بهذه الفنون الأدبية الجميلة.

وقد كتب أخي د/ محمد خشبة الوحدتين الرابعة والخامسة، وكتبتُ باقي الوحدات. وضربنا الأمثال لكل ذلك بنصوص أندلسية ممتعة ومفيدة، ولم نكثر منها خشية الإطالة، وأحلنا على المصادر والمراجع الأندلسية لمن أراد المزيد من العلم والأدب.

هذا ونسأل الله أن ينفع بهذا العمل.

المؤلفان

أ د . شعبان محمد مرسي أ د . محمد موسى خشبة

الأهداف العامة

١- إحاطة الطلاب بالملامح العامة للأدب الأندلسي .

٢- معرفة الأنواع الأدبية الجديدة التي أبـدعها أجـدادنا العـرب فـي الأندلس.

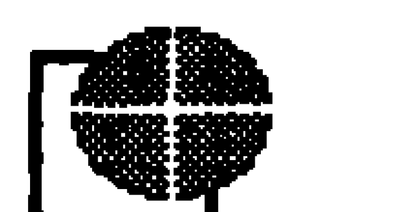
٣- العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي مهدت لتطور هـذه الفنون .

٤- التعريف بالشعراء والأدباء الأندلسيين .

٥- تقوية الذائقة الأدبية بدراسة نصوص مختلفة مـن الفنـون الأدبيـة بالأندلس.

٦- تنمية الشعور بما قدمه العرب وابتدعوه من الفنون الأدبية أيام قوتهم وعظمتهم .

تمهيـــــد



الأهداف السلوكية:

١ – الهدف المعرفي :

أ – تحديد معنى الأندلس واشتقاقها وجغرافيتها .

ب – معرفة تاريخ فتح المسلمين لها وانتشار اللغة العربية بها .

ج – تقسيم العصور السياسية إبان الحكم الإسلامي فيها .

د – بداية الفنون الأدبية العربية بها .

٢ – الهدف الوجداني:

إعادة الثقة إلى الطلاب العرب في أنفسهم وتراث آبائهم .

٣ – الهدف المهاري :

أن يحاول كل طالب البحث في الأندلس اسما وأدبا .

١ – تعريف بالأندلس:

"الأندلس" اسم أطلقه العرب على تلك الأراضي التي تشتمل عليها الآن إسبانيا والبرتغال في أوربا، وقد اشتقه العرب من اسم القبائل التي كانت تحتل بعض المناطق، وكانت تسمى الوندال، وهي ذات أصول جرمانية. أي إن الأندلس تعني أرض الوندال، ثم عمم الاسم على شبه جزيرة إيبيريا كلها.

وكان اليونان يسمون تلك الأراضي إيبيريا، وكان الفينيقيون يطلقون عليها إسبانيا، أي أرض الأرانب، لأن الساحل الشرقي منها كان مليئا بالأرانب البرية[١].

---

(١) دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة : د / الطاهر مكي ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨٣ م . وفي هذا الكتاب بحث قيم عن اسم الأندلس وتطوره ، ص ٩ – ٢٥ .

أما حدود الأندلس فهي: من الشرق البحر المتوسط ، ومن الغرب المحيط الأطلسي، ومن الجنوب مضيق الزقاق الذي أطلق عليه بعد الفتح مضيق جبل طارق، وهو يفصل أوربا عن أفريقيا، ويربط البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي. ومن الشمال جبال البرتات أو البرينيه ، وهي تفصل إسبانيا عن فرنسا. وبهذه الجبال ممرات يعبر منها الذاهبون إلى بلاد الفرنجة والآيبون منها ويطلق عليها البرتات، أي الأبواب.

وأرض شبه الجزيرة متنوعة ، فهي خصبة على الساحلين الشرقي والغربي، وحول الوديان التي شكلتها الأنهار الكثيرة، وأهما نهر الوادي الكبير ونهر التاخو ونهر دويرة ونهر شنيل. وفي الوسط هضبة فقيرة فيها بعض المراعي، وفي الشمال جبال يشملها الثلج، وفي سفوحها مراعٍ وبعض الزراعات، وهناك جبال الثلج في غرناطة، ومنها تنبع المسايل المائية التي يزرع عليها الفلاحون.

ويختلف المناخ في تلك البلاد ، ففي الجنوب ترتفع الحرارة فتشبه بلاد الشمال الأفريقي، وتنمو فيها الزراعات التي تحتاج إلى الحرارة كالقمح والذرة والشعير، وفي الشمال تنخفض الحرارة، خاصة في الشتاء؛ ولذا تنتج أنواعا أخرى من الزراعة تلائم الجو البارد.

وتكثر أشجار الفاكهة في الساحل الشرقي خاصة الموالح ، وفي الساحل الغربي يجود العنب والزيتون؛ وهذا التنوع المناخي جعل تلك البلاد ثرية في إنتاجها الزراعي والحيواني؛ ولذا انخفضت الأسعار. والمياه العذبة غزيرة فيها، منها الأنهار والأمطار، فتسقط الأمطار بغزارة على ساحل البحر المتوسط، وعلى ساحل المحيط الأطلسي، وبها عيون كثيرة تتدفع المياه منها، فيسقي الزراع، وبعضها لا يجف أبدا. وقد ذكر المقري في " نفح الطيب" وصفا مسهبا للأندلس استقصى فيه جغرافية الأندلس وتاريخها، وأورد جميع الروايات في موسوعته القيمة. وفي "الروض المعطار في خبر الأقطار"

لابن عبد المنعم الحميري وصف لمدن الأندلس وقراها وحصونها وأنهارها ونشاط أهلها.

وأهل الأندلس من أصول مختلفة يونانية وفينيقية ورومانية وعربية وبربرية وصقلية وجرمانية، وجميع هؤلاء اختلطوا وتزوجوا، وامترجت دماؤهم، وتكون منهم هذا الشعب العظيم الذي كان يدعى أهل الأندلس ، والآن يسمى إسبانيين وبرتغاليين.

وقد فتح المسلمون الأندلس سنة ٩٢ هـ ، وكان يتولى قيادة الجيش الإسلامي طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، حاكم بلاد المغرب في عهد الوليد بن عبد الملك. وكان الانتصار سريعا، فقد قضى طارق على لذريق آخر ملوك القوط في تلك البلاد، وساعده موسى بمدد آخر من العساكر، وعبر بنفسه وأكمل الفتح، واتخذ أشبيلية عاصمة، ثم استدعى إلى دمشق هو وطارق، ولم يرجعا، فتولى ابنه عبد العزيز قيادة الجيش، ورئاسة البلد، ولكنه قتل بعد سنتين من حكمه.

ويقسم تاريخ الأندلس إلى عصور: **عصر الولاة، وعصر الدولة الأموية** التي أنشأها عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ ، بعد أن أسقط العباسيون دولتهم في الشرق سنة ١٣٢هـ . واستمرت دولة بني أمية في الأندلس حتى سقطت عام ٤٢٢ هـ ، وقد بلغت الدولة الإسلامية الأندلسية أَوْج عظمتها فيها، لا سيما أيام عبد الرحمن الناصر. وبدأ **عصر ملوك الطوائف** بعد سقوط الدولة الأموية؛ وتمزقت الأندلس، واستقل حكام الأقاليم بها، وبنوا قصورا، وجيشوا لهم جيوشا، فبنو عباد في أشبيلية، وبنو جهور في قرطبة، وبنو الأفطس في بطليوس، وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو صمادح في المرية، وبنو زيري في غرناطة، وخيران ومبارك في شرق الأندلس، ومجاهد العامري في دانية، وبنو هود في سرقسطة. وكانت سمة الضعف بادية على هذه الممالك الصغيرة؛ لذلك لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم أمام هجمات

الكاثوليك الذين اتحدوا ضدهم، وساعدتهم دول أوربا بقيادة بابا روما في ذلك العصر.

ولما ذلوا استنجدوا بالمرابطين، فعبر يوسف بن تاشفين بجيشه واتحد مع الأندلسيين وانتصروا في موقعة الزلاقة انتصارا مجيدا، ولم يعودوا يدفعون الجزية لألفونسو، إلا أنهم خانوا الأمانة بعد عودة يوسف إلى المغرب، فاتصل بعضهم بالأعداء وتعاهدوا معهم ضد إخوانهم، وتنازلوا لهم عن مدن وقرى وحصون إسلامية، وبلغ ذلك يوسف فقرر خلعهم، فعبر وخلع ملوك الطوائف كلهم، ومن حاربه قتله، ولم يترك إلا بني هود في سرقسطة، لأنهم كانوا يجاهدون الأعداء بصدق.

أصبحت الأندلس جزءا من دولة المرابطين؛ ويسمى هذا العصر **بعصر المرابطين**، ثم سقطت دولة المرابطين في المغرب بعد ثورة الموحدين ضدهم. وتولى الموحدون الحكم في بلاد المغرب والأندلس، وسمي هذا العهد **بعهد الموحدين**، ودبت الخلافات بين أبناء البيت الحاكم في أواخر الدولة، فسقطت دولة الموحدين، وقامت دولة بني مرين في المغرب، ودولة الحفصيين في تونس وما حولها، وتمزقت الأندلس مرة أخرى، وسقطت قرطبة عاصمة الأندلس في يد الكاثوليك، ثم أشبيلية وغيرها.

وقام ابن الأحمر محمد بن يوسف بالجهاد ضد القشتاليين، واستطاع أن يكون دولة صغيرة، واتخذ غرناطة عاصمة له، ويطلق على هذا العصر **العصر الغرناطي**. وكافحت غرناطة كثيرا من أجل البقاء، واتحدت مع بني مرين في المغرب، فاستطاعت أن تعيش قرنين ونصفا رغم ضيق مساحتها، وكثرة إغارات الأعداء عليها، وأخيرا هُزم الغرناطيون، وسلم أبو عبد الله بن الأحمر غرناطة للملكين الكاثوليكيين: فرناندو وإيزابيلا. أي إن الأندلس فتحها طارق بن زياد واستمرت ثمانية قرون، وأغلقها ابن الأحمر، وبكى كما تبكي النساء.

وعانى المسلمون الغرناطيون بعد رحيل أبي عبد الله، واستيلاء الكاثوليك

عليها، فلم يراع المنتصرون أي بند من بنود معاهدة التسليم؛ حيث أنشأوا محاكم التفتيش، ومنعوا المسلمين من الصلاة، وهدموا المساجد، وحولوا بعضها إلى كنائس، وألغوا اللغة العربية، وفرضوا اللغة القشتالية، وأجبروا المسلمين على التنصر أو الهجرة، وتغيير أسمائهم الإسلامية إلى أسماء مسيحية إسبانية، وهناك كتب ألفها المؤرخون عن محاكم التفتيش لمن أراد المزيد من المعلومات، بالعربية مثل آخر جزء من كتاب محمد عبد الله عنان "دولة الإسلام في الأندلس"، وبالإنجليزية والفرنسية، وأخيرا الإسبانية.

هذا تعريف مختصر بالأندلس وجغرافيتها وتاريخها، وهو تمهيد لدراسة الفنون الأدبّية بها، وهو موضوعنا الأساسي.

٢- بداية الفنون الأدبية في الأندلس:

كان الجيش الإسلامي الذي فتح شبه جزيرة أيبيريا يضم بين صفوفه عددا من الخطباء والشعراء والكتاب، كما هي عادة الجيوش الإسلامية الفاتحة، وانحسرت وظيفة الخطباء والشعراء في تحميس الجنود، ورفع الروح المعنوية لديهم، وكان الشعراء يصفون المعارك ويصورونها بصورة حية تمتع القارئ والسامع، وكذلك يمجدون الأبطال الذين استشهدوا والذين انتصروا، وكان تمجيدهم للمنتصرين مدحا وإعجابا، وتمجيدهم للشهداء تعظيما لمآثرهم وبطولاتهم ورثاء وحزنا لفقدهم. وكان أولئك الشعراء يصفون بشعرهم تلك البيئة الجديدة، ويذكرون وقعها في نفوسهم، وأيضا كانوا يتغزلون بالنساء.

وكان الخطباء يخطبون في الجنود خطبا حماسية، ويخطبون في المساجد خطبا دينية أيام الجمع والأعياد، وكانوا يخطبون خطبا سياسية في مواقف أخرى تقتضيها.

وأما كتاب الرسائل فكانوا يكتبون للخلفاء الأمويين عما يحدث في البلاد الجديدة المفتوحة لإعلامهم بالأمور، ويستقبلون رسائلهم، ويردون عليها. وكان لكل أمير أندلسي كاتب أو مجموعة من الكتاب، ومع مضي الزمن اتسعت

الكتابة والخطابة وفاض الشعر.

بيد أن النتاج الأدبي الذي تم في العصر الأول من عصور الأندلس لم يصل إلينا منه شيء سوى أخبار قليلة؛ لأن الحروب المستمرة بين المسلمين والكاثوليك قضت على هذا التراث، خاصة بعد أن ضعف المسلمون، وسقطت دولتهم، وأصدرت الكنيسة قرارها بحرق كتب المسلمين في غرناطة، وهي آخر معقل لجأت إليه كتب المسلمين بما ضمت من شعر ونثر فني وعلمي، كما كانت آخر حصن تحصن به العرب المسلمون هناك. وكانت الفتن الداخلية عاملا آخر من عوامل إبادة كثير من التراث الإسلامي الأندلسي، وأكثر هذه الفتن أو الحروب الأهلية كان في عصر الطوائف.

يمكن القول: إن الفنون الأدبية التي شاعت في الأندلس في العصر الأول كانت مشرقية؛ لأن مبدعيها مشارقة؛ وتسمى أندلسية اعتمادا على البيئة التي قيلت فيها، ومثلها كمثل الفنون الأدبية في مصر بعد فتح عمرو بن العاص لها.

وإنما يظهر الأدب الأندلسي حقيقة في العصور التالية؛ لأن العساكر الذين فتحوا الأندلس تزوجوا من الإسبانيات، وأنجبوا أولادا تحدثوا العربية، وجاءت فروع من القبائل العربية إلى الأندلس، وأنزلها أمراء تلك البلاد في الكور المختلفة، فوطنت اللغة العربية، يضاف إلى ذلك التعليم في المساجد الكثيرة التي بناها المسلمون.

وأقدم نص وصل إلينا هو أبيات شعرية جميلة، أنشدها الأمير عبد الرحمن الداخل:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخلِ

فقلت شبيهي في التغرب والنوى

وطول التنائي عن بَني وعن أهلي

نشأتِ بأرض أنتِ فيها غريبة

فمثلكِ في الإقصاء والمنتأى مثلي

سقتكِ غواد المزن من ثوبها الذي

يسحُ ويَسْتَمْرِي السماكَيْن بالوبْلِ(١)

وتمثل هذه الأبيات حنين الأمير إلى أهله ودياره في دمشق ، ومع أنه أصبح ذا ملك عريض هو بلاد الأندلس، فإنه لم ينس يوما بلاده الأولى التي ولد فيها وتربي .

وكان حنين الجيل الأول من شعراء الأندلس إلى المشرق، وأما الأجيال اللاحقة فكان حنينها إلى الأندلس نفسها، وأحيانا للمدينة أو القرية داخل الأندلس. ومن الأفضل أن نتتبع الشعر الأندلسي موضوعا موضوعا بإيجاز؛ لنحيط به؛ لأن التفاصيل الكثيرة تحتاج إلى مجلدات ضخمة لتضم دراسة الشعر والشعراء في ثمانية قرون قضاها العرب في الأندلس، وأول ما نبدأ به الحنين.

---

(١) الحلة السيراء: لابن الأبار؛ تحقيق د / حسين مؤنس . دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ١٩٨٥م ، ج١ / ٣٧ .

؟ أسئلة تقويمية للتمهيد

س١ : من أين اشتقت كلمة الأندلس ؟

س٢ : حدد موقع الأندلس جغرافيا .

س٣ : متى فتح المسلمون الأندلس ؟

س٤ : اذكر العصور الأندلسية .

س٥ : ما أقدم نص عربي من الشعر الأندلسي وصل إلينا ؟

☑ إجابة بعض الأسئلة

ج٤: العصور الأندلسية هي: عصر الولاة، وعصر بني أمية، وعصر الطوائف، وعصر المرابطين، وعصر الموحدين، والعصر الغرناطي.

ج٥: أقدم نص عربي من الشعر الأندلسي هو أبيات عبد الرحمن الداخل التي يخاطب فيها النخلة.



الوحدة الأولى
شعر الحنين وشعر الجهاد

الأهداف السلوكية :

١- الهدف المعرفي:

أ - أن يدرك الطالب معنى الحنين وأنواع هذه العاطفة، وما ينشأ عنها من الشعر الجميل، وأسباب الحنين، والشعراء الذين أنشدوا فيه.

ب - تحديد معنى شعر الجهاد، وعوامل ظهوره وتطوره، والشعراء الذين أبدعوا في هذا الغرض.

٢ - الهدف الوجداني:

أ - السمو العاطفي وتقوية العلاقات الإنسانية وإشاعة روح المودة .

ب - أن تزيد الحماسة لدى الدارسين في الدفاع عن أنفسهم ضد العدو المعتدي عليهم .

٣- الهدف المهاري:

أ - أن يتذوق الطالب أشعار الحنين، وأن يعرف الفروق بينها، ودرجة الإجادة وأسبابها.

ب - أن يتقن الطالب هذا النوع من الشعر الحربي، وأن يحيط بأسبابه وغاياته.

١- شعر الحنين:

رأينا في أبيات عبد الرحمن السابقة عاطفة الحنين والشعور بالغربة، وعادة ما ينشأ الحنين عند الاغتراب والبعد عن الوطن والأهل، والأصحاب والأحباب، فيتذكر الإنسان في غربته كل ما رآه في بلده؛ لأن الذاكرة تختزن كل شيء، ثم تندفع هذه الذكريات في لحظات، وتهيج المشاعر، فإن كان المرء

كاتبا أو شاعرا عبر عن ذلك تعبيرا فنيا مثيرا لكل من يقرأه أو يسمعه .

وأسباب الغربة والحنين في الأندلس متعددة، منها: البحث عن العلم، وقد كان الطلاب الأندلسيون يقطعون مسافات طويلة لتحصيل العلم في المشرق، في القيروان والإسكندرية والفسطاط والقاهرة وبيت المقدس ودمشق ومكة والمدينة وبغداد والبصرة والكوفة، وقد تدوم هذه الرحلة عشرات السنين، وأقل ما كانت سنة، ستة شهور ذهابًا ، وستة إيابًا، ولم تكن وسائل المواصلات ميسرة مثل الآن، حيث كانوا يمشون على أقدامهم، أو يركبون الدواب من الحمير والبغال والجمال ، في الحر والبرد، لا يبالون بشيء من أجل العلم. ففي هذه المدة كان هؤلاء الطلاب يحنون للأندلس، وينظمون شعرا جميلا يبثون فيه شوقهم للأهل والأحبة. ومن أسباب الغربة طلب الرزق، فبعض الأندلسيين كان يشتغل بالتجارة، فيحمل منتجات الأندلس إلى بلاد المشرق ، ويعود إلى بلاده ببضائع الشرق، وكانت القوافل التجارية تسلك طريق البحر المتوسط إلى الإسكندرية وبلاد الشام، أو تمشي في الطريق البري، فقط تعبر مضيق جبل طارق، ثم تسير في الشمال الأفريقي حتى تصل إلى المشرق، وكان كثير من هؤلاء التجار مثقفين، ينشدون الأشعار، ويروون الأخبار، فأنشدوا أشعار الحنين إلى زوجاتهم وأولادهم وأصحابهم. ومن أسباب الغربة أيضا رحلات الحج ، وهذه تحتوي على نوعين من الحنين: الحنين إلى الأماكن المباركة في مكة والمدينة، والحنين إلى الأندلس وأهلها؛ لأن رحلة الحج كانت تستغرق ستة أشهر ذهابا وستة إيابا. فكان الشوق ينتابهم إلى أهليهم بعد الانتهاء من مناسك الحج. ومن أسباب الغربة ضغط الكاثوليك على الأندلسيين في حرب الاسترداد بعد أن سقطت دولة الأمويين في الأندلس، وألغيت الخلافة هناك سنة ٤٢٢هـ، ونشأت دول ملوك الطوائف، وكانوا عاجزين عن صد الكاثوليك، لتفرقهم وكيد بعضهم بعضا، وكان بعضهم يستعين بالعدو ضد إخوانه، وكان بعضهم يساعد الأعداء ضد المسلمين، حتى قضوا عليهم جميعا. فكان سقوط المدن الأندلسية في يد الكاثوليك عاملا على

نشر شعر الحنين، ومزجه بالحزن والرثاء.

ومن الأمثلة الجميلة التي تصور حب الأندلسيين لوطنهم، وحنينهم إليه إذا بعدوا عنه قول ابن خفاجة، وكان قد ابتعد عن بلده مدة:

أجبت وقد نادى الغرام فأسمعا … عشية غناني الحَمامُ فرجَّعا
فقلت ولي دمع ترقرق فانهمى … يسيل وصبر قد وَهَى فتضعضعا
ألا هل إلى أرض الجزيرة أوْبة … فأسكن أنفاسا وأهدأ مضجعا
وأغدو بواديها وقد نضح الندى … معاطف هاتيك الربى ثم أقشعا
أغازل فيها للغزالة سُنَةً … تُحَطُّ الصبا عنها من الغيم برقعا
وقد فض عقد القطر في كل تلعة … نسيم تمشى بينها فتضوَّعا
وبات سقيط الطل يضرب سرحة … ترف بواديه وينضح أجرعا
وأين فنا دار إليّ حبيبة … وحسبك مصطافا هناك ومربعا
لقد تركتني بين جفنٍ جَفَا الكرى … وجنبٍ تقلى لا يلائم مضجعا
أقلب طرفي في السماء لعلني … أشيم سنا برق هناك تطلَّعا(١)

يلحظ القارئ في هذه الأبيات رهافة حس الشاعر، إذ أثاره الحمام وهو يسجع، فحرك أشجانه، وتذكر أهله وإخوانه، ورأى صورة جزيرة الأندلس عامة، وجزيرة شقر التي نشأ بها خاصة، فبكى، وتمنى أن تعود إليه لتهدأ نفسه، ثم أخذ يصف جمالها، يرسم صورة رائعة لواديها، ولشمسها وغيمها، وريحها ومطرها، وشجرها ونباتها الفينان المخضر، ويتوق الشاعر لداره التي يحبها، ويراها أحسن مصيف، وأجمل مرتبع، ولما هاجت به الذكرى لم ينم، فظل يقظان ينظر في السماء، ويتطلع إلى السحاب برعده وبرقه وهو يمطر أرض وطنه الحبيب، هذه العواطف والأفكار عبر عنها الشاعر أحسن تعبير باستعمال وسائل فنية جميلة من الاستعارات التشخيصية التي أضفت على النص حيوية، وأبرزت التفاعل الإنساني بين الشاعر وعناصر الطبيعة

---

(١) ديوان ابن خفاجة: تحقيق عبد الله سندة. بيروت، دار المعرفة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ص ١٨٩.

الخلابة. ويشعر المتلقي وهو يقرأ النص بصدق الشاعر، ويحس بأحاسيسه فيشاركه في مشاعره؛ ولذا فإن هذا النص من النصوص الإنسانية التي تتخطى الزمان والمكان وتؤثر في الإنسان حيث كان.

٢- شعر الجهاد:

فتح المسلمون شبه جزيرة أيبيريا واستقروا فيها، ومدوا الغزو حتى وصلت جيوش الإسلام إلى قرب باريس عاصمة فرنسا، ودارت هناك معركة كبيرة هزم فيها المسلمون بعد انتصارات متتابعة، واستشهد كثيرون، وتعرف في التاريخ الإسلامي باسم موقعة بلاط الشهداء، واستشهد أيضا قائد الجيش عبد الرحمن الغافقي، وتوقف الفتح في أوربا بعد هذه المعركة، وقد سجل الشعر الأندلسي هذه الوقائع. وكان بلاط الأمراء الأمويين يشتمل على شعراء كبار يمدحونهم ويسجلون انتصاراتهم، ويرثون موتاهم، وكان الأمويون أسخياء مع هؤلاء الشعراء، يمنحونهم المنح الكبيرة، ويقدرون فنهم من الناحية الأدبية، ومن الناحية السياسية، لأنهم كانوا أشبه بوسائل الإعلام في الحكومات المعاصرة، يحسنون صورة الأمير أو الخليفة لدى الشعب، ويدعون لتأييده ويحملون على الخارجين عليه، أو من كانوا يسمون دعاة الفتنة في الأندلس، مثل عمر بن حفصون الخارج عن الدولة الأموية، المرتد عن الإسلام.

هذه القصائد التي نظمها الشعراء في الجهاد ضد العدو الخارجي، أو في الحملات الداخلية ضد أرباب الفتن، تعد وثيقة تاريخية تكمل النقص الذي يعتري كتب التاريخ وتطلعنا على أحوال دقيقة غفل عنها المؤرخون، أو تركوها لعنايتهم بالقضايا العامة. ومن جانب آخر تصور لنا اتجاه الشعب، وترسم علاقة الحاكم بالمحكوم، وإن كان فيها خيال، فإن عناصر الصور تتركب من جزئيات الواقع. من شعراء بني أمية الذين سجلوا أمجادها، ووصفوا حروبها، ومدحوا أبطالها أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد، نجد في ديوانه الذي جمعه د/ محمد رضوان الداية عددا وافرا من القصائد والمقطوعات التي أنشأها في أمراء الأمويين وخلفائهم، واحتوت قصائده على تسجيل معاركهم، ونشر انتصاراتهم، من ذلك قوله في أول غزوة

غزاها عبد الرحمن الناصر، وتعرف بغزوة المنتلون، وقد انتصر فيها عبد الرحمن وجيشه انتصارا عظيما أرهب أعداء البلاد، ونشر هيبة الناصر في أنحاء البلاد وخارجها، يقول الشاعر:

قد أوضح الله للإسلام منهاجا
والناس قد دخلوا في الدين أفواجا
وقد تزينت الدنيا لساكنها
كأنما أُلبست وشيا وديباجا
يا بن الخلائف إن المزن لو علمت
نداك ما كان منها الماء ثجاجا
والحرب لو علمت بأسا تصون به
ما هيجت من حمياك الذي اهتاجا
مات النفاق وأعطى الكفر ذمته
وذلت الخيل ألجاما وأسراجا
وأصبح النصر معقودا بألوية
تطوي المراحل تهجيرا وإدلاجا
أدخلت في قبة الإسلام مارقة
أخرجتها من ديار الشرك إخراجا
بجحفل تشرق الأرض الفضاء به
كالبحر يقذف بالأمواج أمواجا
يقوده البدر يسري في كواكبه
عرمرما كسواد الليل رجراجا
يرون فيه بروق الموت لامعة
ويسمعون به للرعد أهزاجا

غادرت في عقوتي جيان ملحمة
أبكيت منها بأرض الشرك أعلاجا
في نصف شهر تركت الأرض ساكنة
من بعد ما كان منها الظهر قد ماجا
لما رأوا حومة الشاهين فوقهـــم
كانـــوا رعاعـــا حواليها ودراجا
وجدت في الخبر المأثور منصلتا
من الخلائـــف خراجـــا وولاجـــا
تملا بك الأرض عدلا مثل ما ملئت
جورا وتوضح للمعروف منهاجا
يا بدر ظلمتها يا شمس صبحتها
يا ليـــث حومتـــها إن هائج هاجا
خلقت من جوهر العقيان خالصة
ولم تكن نطفة في الصلب أمشاجا
إن الخلافة لن ترضى– ولا رضيت
حتى عقدت لها في رأسك التاجا[١]

وكان أكثر أمراء بني أمية شعراء، وصل إلينا من شعرهم عدد لا بأس به من القصائد والمقطعات، في موضوعات مختلفة، أهمها الفخـــر والحماســـة، والغزل والزهد، لأن تربيتهم كانت تعتمد على البيان والفروسية.

---

(١) ديوان ابن عبد ربه : تحقيق د / محمد رضوان الداية . دمشق، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣ م ، ص ص ٧٠ – ٧١ .

وتستمر الحروب والدول الأوربية تساعد الخارجين على الحكم الإسلامي في الأندلس، ويبلي المسلمون بلاء حسنا في صد الهجمات الخارجية كهجمات النورمانديين على الأندلس، ويقضي الأمراء على الفتن الداخلية حتى تولى هشام المؤيد، وكان صغيرا، وحجب له المنصور بن أبي عامر، وكان بطلا مغوارا، وقائدا ذكيا، وكاتبا متقنا، وشاعرا مجيدا، غزا خمسين غزاة، واستشهد في آخر غزوة، ودفن في مدينة سالم بالأندلس، نظم ابن دراج فيه قصائد مدح كثيرة، ووصف غزواته، وسجل انتصاراته، وأشاد بها، وبين فرحة الأندلسيين بتلك الانتصارات، ووصف المعارك وصفا رائعا، وقد نجا ديوانه من الضياع(١). وشعره يمتاز بمتانة التركيب، وجمال الأسلوب، وعمق الأفكار، حتى شبهه الأندلسيون بالمتنبي .

ولما دبت الفتنة الكبرى بالأندلس، وتعرف بالفتنة البربرية، تمزقت الدولة بعد موت المنصور بن أبي عامر وعبد الملك ابنه، وظهرت دول الطوائف، وكانت ضعيفة، فاستأسد عليها العدو الخارجي، وبدأ يقتطع قطعة قطعة من الأندلس، وملوك الطوائف خائبون جبناء لم يتصدوا له متحدين، وإنما خنعوا وذلوا ودفعوا الجزية كل سنة، ثم سلط بعضهم على بعض حتى أهلكوا أنفسهم بأيديهم وأيدي الكافرين.

وحينما اشتد الضغط عليهم استنجدوا بالمرابطين، وكانت دولة فتية، فأنجدهم يوسف بن تاشفين، فانتصروا على ألفونسو السادس وجيشه في موقعة الزلاقة، وفيها أنشد الشعراء مبتهجين بالنصر، ووصفوا المعركة وصفا دقيقا، وسخروا من العدو المهزوم. وقد وصل إلينا عدد وافر من القصائد في وصف تلك الموقعة العظيمة، من ذلك قول الشاعر عبد الجليل بن وهبون:

وقفت بحيث تلحظك العوالي ... وهن إلى مواردها هيام

ولم يثبت من الأشياع إلا ... شقيقك وهو صارمك الحسام

---

(١) ديوان ابن دراج : تحقيق د / محمود مكي .

يمـان فـي يـدي مـاض يمـان فـلا نـابى الغـرار ولا كهـام
ولـم يحملـك طرفـك بـل فؤاد تعـود أن يخـاض بـه الحمـام
ثبـت بـه ثبـات القطـب لمـا أدار رحـاه خطـب لا يـرام
مضـوا فـي أمـرهم سـحرا ودارت بمـا عقـدوا مـن الحلـف المـدام
فردوهـا علـى الشـفرا بيضـا وجـدد فـي تعاطيهـا النـدام
ومـا أخـذتهم الأسـياف لكـن صـواعق لا يبـوخ لـه ضـرام
إذا مـا برقـة برقـت علـيهم فـإن القطـر أعضـاد وهـام
ستسـألك النسـاء ولا رجـال فحـدث مـا وراءك يـا عصـام
وراقبهـا بأرضـك طالعـات كمـا تهـدي صـواعقها الغمـام
فـإن شـئت اللجـين فـثم سـام وإن شـئت النضـار فـثم حـام
نضـا أدراعـه واجتـاب لـيلا يـود لـو انـه فـي الطـول عـام (١)

وفي ديوان ابن حمديس عدة قصائد نظمها في مدح ابن عباد ويوسف بن تاشفين، وصف فيها معركة الزلاقة وصفا بديعا.

ظل أهل الأندلس في الدفاع عن أنفسهم حتى آخر يوم لهم بتلك الديار، ولذا نرى الشعراء الأندلسيين يتابعون تلك المعارك، ويرسمون لها صورا عديدة تتناول وصف آلاتها، وعرض الكر والفر، وملامح الأبطال في القتال، ثم الابتهاج بالنصر وتهنئة المنتصرين، من ذلك ما حدث في معركة الأرك التي انتصر فيها الموحدون على الكاثوليك عام٥٩٠ هـ، فإن الشعراء أنشدوا خليفة الموحدين أبا يوسف يعقوب، وهنأوه بالفتح والانتصار، وسخروا من

---

(١) المطرب في أشعار أهل المغرب، لابن دحية : تحقيق/ إبراهيم الإبياري وحامد عبد المجيد وأحمد بدوي. دار الكتب المصرية ، ١٩٩٧ م ، ص ص ١٢٠ – ١٢١ .

ألفونسو وجيشه، وقد روي أن على بن حزمون أنشد قصيدة جميلة من بحر الخبب، أعجبت الخليفة، فأثابه عليها، منها:

حيتك معطرة النفس نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأتمهم إن الإسلام لفي عرس
إمام الحق وناصره طهرت الأرض من الدنس[١]

ويعد ديوان ابن الجياب وابن الخطيب وابن زمرك ويوسف الثالث من الدواوين الكبرى التي اشتملت على قصائد ذات مسحة تاريخية، مفيدة لمن يدرس تاريخ غرناطة، كما أنها تعبر عن روح المسلمين في تلك المملكة الأخيرة من ممالك المسلمين في الأندلس، فقد صمد الغرناطيون، ودافعوا عن أنفسهم وديارهم على مدى قرنين ونصف تقريبا من الزمان، وأظهروا بطولات مشرفة، غير أن أوربا كلها اتحدت ضددهم، وكان العالم الإسلامي يسير في طريق التمزق، فلم تجد غرناطة مساعدة، يضاف إلى ذلك الصراع الداخلي في البيت الحاكم، كل ذلك أدى إلى الاستسلام.

هذا الصراع الدائم بين المسلمين والكاثوليك منذ فتح الأندلس حتى نهايتها، قتل فيه خلق كثير من الجانبين، ومن هنا كثر الرثاء في الشعر الأندلسي.

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، لعبد الواحد المراكشي : تحقيق د / محمد زينهم. دار الفرجاني للنشر والتوزيع ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ، ص ٢٤١.



ملخص الوحدة الأولى

الحنين ميل نفسي لدى الإنسان، وارتباط عاطفي بينه وبين شخص آخر أو مكان أو زمان، ويظهر أكثر عندما يتغرب المرء ويبعد عما يحب، وأسباب الغربة تكمن في السفر بحثا عن الرزق أو العلم أو هربا من حاكم ظالم أو ما أشبه ذلك. وكل هذه العوامل وجدت في الأندلس على مراحل مختلفة؛ فكان الفاتحون المسلمون يحنون إلى بلادهم في الشرق، ثم بعد جيل أصبح الأندلسيون – أولاد الفاتحين – يحنون إلى الأندلس. ولما تساقطت المدن الأندلسية في حرب الاسترداد، كان أهل كل مدينة يحنون إلى مدينتهم. وكان الطلاب الأندلسيون الذين رحلوا إلى الشرق لتلقي العلم في فاس أو القيروان أو الإسكندرية أو القاهرة أو دمشق أو بغداد أو مكة والمدينة، كانوا يحنون إلى بلادهم، وقد نظموا أشعارا كثيرة عبروا فيها عن شوقهم وحبهم لوطنهم، ومن أشهر الشعراء الذين نظموا في الحنين عبد الرحمن الداخل وابن خفاجة.

وكان من أسباب الحنين أيضا خروج الرجال للجهاد، فقد فتح المسلمون الأندلس. وكان الفاتحون مشبعين بعاطفة الجهاد، وكان الشعراء يحمسونهم بالأشعار التي تثني على الأبطال، وتسجل المواقف العظيمة، وبذا أصبح الشعر سلاحا معنويا لا يقل عن الأسلحة المادية من سيوف وقسي ورماح. وكل المعارك التي خاضها المجاهدون المسلمون سجلها الشعر. فمثلا ابن عبد ربه نظم كثيرا من القصائد، سجل فيها حروب بني أمية ضد الأعداء الخارجيين، كما وصف قتالهم وانتصاراتهم على دعاة الفتنة في الداخل مثل عمر ابن حفصون .

وغزوات المنصور بن أبي عامر وصفها الشعراء، وذكروا تلك الوقائع، كما يبدو في شعر ابن دراج القسطلي. وحروب ملوك الطوائف مذكورة في أشعار ابن عباد وابن عمار، وانتصار المسلمين في موقعة الزلاقة سجله ابن وهبون في قصائد جميلة، وكذلك ابن حمديس. وانتصار الموحدين عبر عنه ابن حزمون في قصيدة رائعة، فيها تبدو الفرحة. وفي العصر الغرناطي نجد شعر الجهاد في قصائد طويلة خلال ديوان ابن الخطيب وابن زمرك وابن الجياب؛ ولذا يعد هذا الشعر وثيقة تاريخية بجانب وظيفته الجمالية.

أسئلة تقويمية على الوحدة الأولى

[؟]

س١ : ما معنى الحنين ؟

س٢ : وما أسبابه ؟

س٣ : من أهم الشعراء الذين نظموا في الحنين ؟

س٤ : حدد معنى الجهاد .

س٥ : ما نوع العاطفة السائدة في شعر الجهاد ؟

س٦ : لماذا كثر شعر الجهاد في الأندلس ؟

س٧ : من أهم الشعراء الذين نظموا شعر الجهاد ؟

☑ إجابة بعض الأسئلة

ج٢ : أسباب الحنين:

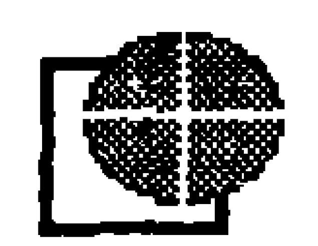
١- البحث عن الرزق في بلاد أخرى .

٢ – طلب العلم في مدن بعيدة .

٣ – الغربة بسبب الاضطهاد السياسي

٤ – الحج في ذلك الزمان كان يستغرق زمنا طويلا على الأقل ستة شهور ذهابا ومثلها إيابا؛ لأن الحاج الأندلسي كان يمشي على رجليه أو راكبا حمارا أو حصانا، ويقطع تلك المسافة الطويلة حتى يصل إلى مضيق جبل طارق، ثم يعبر المضيق إلى المغرب ومن هنا يسير إلى الجزائر فتونس فليبيا فمصر، ثم يعبر صحراء سيناء إلى الأردن ومنها إلى مكة. أو يسلك الطريق البري حتى المرية، ويركب السفينة الشراعية في البحر المتوسط إلى الإسكندرية في مصر، وفيها ينزل ثم يسير في الطريق البري. إنها رحلة شاقة طويلة، ولذا كانوا يحنون إلى أهلهم ووطنهم ، ويعبرون عن ذلك شعرا، وعندنا شعر كثير في هذا الغرض، غير أننا اكتفينا بالقليل مراعاة للوقت.

ج٤ : شعر الجهاد هو ما نظمه الشعراء في وصف المعارك التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم، وغايته رفع الروح القتالية لدى المجاهدين، كما يسجل ضراوة الحرب وما استخدم فيها من أسلحة متنوعة، ويثني على الأبطال المنتصرين، ويمدح من أبلى بلاء حسنا، كل ذلك في أسلوب تصويري جميل .



الوحدة الثانية

شعر المدح والهجاء والرثاء

الأهداف السلوكية:

١ – الهدف المعرفي:

أ – أن يعرف الطالب معنى المدح وقيمته في المجتمع، والعاطفة التي تدفع الشعراء إلى نظم المدائح .

ب – أن يدرك الطالب معنى الهجاء، وأسبابه، وقيمته الأدبية والإنسانية.

ج – أن يحيط الطالب علما بأنواع الرثاء في الأندلس، وأن يعرف الجديد الذي ظهر وتطور في تلك البلاد.

٢– الهدف الوجداني:

أ – أن يقتدي الطالب بالممدوح، فيحاول أن يتخلق بالأخلاق الكريمة، وأن يكون عضوا نافعا في المجتمع.

ب – أن ينفر الطالب من الأخلاق الذميمة التي تجلب الهجاء.

ج – أن ينمو عند الطالب الشعور بقيمة الإنسان، وأنها تتحدد بمدى إحسانه إلى الناس، وليدرك العلاقات العميقة بين البشر.

٣– الهدف المهاري:

أن يميز بين المدح الصادق والمدح الزائف، والهجاء المفيد من غيره. وأن يقدر الطالب على التمييز بين الأنواع المختلفة من الرثاء، وأن يحدد درجة الصدق العاطفي فيها.

الوحدة الثانية

شعر المدح والهجاء والرثاء

١- شعر المدح:

يعد المدح موضوعا من موضوعات الشعر الأندلسى، كما هو الحال فى الشعر المشرقى، غير أنه يتصل غالبا بشعر الجهاد، فالأبطال الذين حازوا انتصارا فى المعارك نالوا من المدائح القسط الوافر؛ لأن الشعراء كانوا يعجبون بالمنتصرين، وكانوا يشعرون بالسعادة والبهجة عندما تأتيهم أنباء الانتصار، فتهتز عواطفهم، فينظمون الأبيات الرائعة للثناء على الأبطال، وتخليد أمجادهم، ويبدو هذا المدح كثيرا فى عصر بنى أمية فى الأندلس؛ لأنه كان عصر القوة والعظمة والهيبة، وكان أمراؤهم يغزون الأعداء دائما، فينتصرون، ويغنمون، وأحيانا يخفقون، ولكنهم على أية حال أبطال مغاوير وكان لبنى أمية ديوان به أسماء شعرائهم، وظيفتهم مدحهم ورثاؤهم، وإثبات مآثرهم، ونشرها بين الناس بالنظم الجميل، وكان أولئك يتقاضون مرتبات مجزية مقابل هذا العمل. وكانوا كذلك يسامرون الأمراء فى أوقات السلم بالأشعار البديعة، فالمتعة الفنية ضرورية للإنسان.

وأعظم الشعراء مدحا لبنى أمية فى الأندلس ابن عبد ربه، وهو عادة يذكر تقواهم وكرمهم وعدلهم وشجاعتهم، وشفقتهم ورحمتهم بالرعية، ويوصى بطاعتهم، والاستجابة لأوامرهم، وهو يصور هذه المعانى تصويرا بديعا، فى تعبيرات تناسب كل معنى من المعانى، ومن قصائده قصيدة طويلة فى مدح الأمير عبد الله بن محمد عندما تولى الحكم:

ألا تشكرون الله إذ قام فيكم ... إمام هدى فى المكرمات عريقُ

وأحكم حكم الله بين عباده ... لسانٌ بآيات الكتاب طليقُ

خلافة عبد الله حَجٌ عن الورى فلا رفث فى عصرها وفسوقُ
إمام هدى أحيا لنا مهجة الهدى وقد جشأت للموت فهي تفوقُ
حقيق بما نالت يداه من العلا وما نالنا منها به فحقيقُ
يدبر ملك المغربين وإنه بتدبير ملك المشرقين خليقُ
تجلت دياجي الحيف عن نور عدله كما ذر في جنح الظلام شروقُ
وثقف سهم الدين بالعدل والتقى فهذا له نصل وذاك له فُوقُ
وأعلق أسباب الهدى بضميره فليس له إلا بهن علوقُ
وما عاقه عنها عوائق ملكه وأمثاله عن مثلهن تعوقُ
إذا فتحت جنات عدن وأزلفت فأنت بها للأنبياء رفيقُ[1]

إن كل أمير أو خليفة من خلفاء بنى أمية كان له شعراؤه المداحون، وابن أبى عامر كان له مادحون كثيرون لا سيما ابن دراج القسطلي، وقد نجا ديوانه من الضياع، فيه مطولات في مدح ابن أبي عامر، ومدح ابنه المظفر.

ولما تفتتت الدولة الأندلسية، وأصبحت دولا صغيرة، كل دويلة لها حاكم، وكل حاكم صنع له بلاطا تشبها ببلاط قرطبة أيام مجدها، وأحاط نفسه بعدد من الشعراء ليمدحوه، وليهجوا أعداءه، وكان يغدق عليهم العطايا، وأهم هؤلاء الحكام بنو عباد في أشبيلية، وبنو الأفطس في بطليوس، وبنو صمادح في المرية، وبنو ذي النون في طليطلة، كان لهؤلاء شعراؤهم، وكان من هؤلاء الملوك الصغار – ملوك الطوائف – شعراء، فالمعتضد وابنه المعتمد وأولاده كانوا يقرضون الشعر الجيد.

وكذلك كان ابن الأفطس وبنو صمادح، وغيرهم، وكان ابن زيدون يمدح ابن جهور، ويمدح بني عباد لما رحل إليهم. وكان ابن عمار يمدح المعتمد،

---

(١) ديوان ابن عبد ربه، ص ١٨٢.

ونظم فيه أجمل القصائد، وصنع الصنيع نفسه ابن عبدون في مدح المتوكل بن الأفطس. وقد كثر شعر المدح في عصر ملوك الطوائف، وكانت القيم التي استخدمها الشعراء قديما في المديح هي بعينها القيم التي ارتكز عليها الشعراء في هذا العهد، وإن كانوا زادوا في وصف هؤلاء الملوك بالصفات الدينية الإسلامية، كالتقوى والعدل، وإقامة عمود الدين، وأكثروا في العزف عليها. ولو عرضنا هذه المدائح على التاريخ الحقيقي لملوك الطوائف لوجدنا صورة مضادة، لقد كانوا سيئين، خانوا الأمانة، وقاتل بعضهم بعضا، وكانوا أذلة أمام العدو الخارجي لتفرقهم وحقد بعضهم على بعض، فهم غير جديرين بكلمة مدح واحدة، بيد أن الشعراء كانوا يتكسبون بهذه الأمداح المزيفة.

واستمر المدح في عصر المرابطين، وكان ابن خفاجة يمدحهم حبا لهم؛ لأنهم انتصروا على العدو، وأعادوا العزة للمسلمين، ومدح كذلك بعض نسائهم، وفي عصر الموحدين كثرت المدائح لخلفائهم، وولاتهم، وفي عصر غرناطة كان ابن الخطيب وأستاذه ابن الجياب أعظم المداحين لبني نصر حكام غرناطة، ثم جاء من بعدهم ابن زمرك والنباهي وغيرهما، فاتصلت المدائح، وتنوعت أساليبها، وطال نفسهم فيها.

٢- شعر الهجاء:

ما وصل إلينا من شعر الهجاء في الأندلس قليل؛ لأن بعض مؤرخي الأدب قد أعرضوا عنه، ولم يذكروا منه كثيرا، وهو يتنوع بين هجاء الأفراد وهجاء الحكام وهجاء المدن، ويتميز هجاؤهم في الغالب بأنه من النوع الذي تحكيه العذراء فلا تستحي، كما قال القدماء: إن الهجاء نوعان:

١- هجاء الأشراف: ويعتمد على التعريض.

٢- وهجاء السوقة: شتم صريح، وتقبيح واضح. وقد ذكر ابن بسام الشنتريني قليلا من الهجاء، وقال: إنه صان كتابه عن البذاءة، وبذلك ضاع كثير من شعر الهجاء.

كان بين الشعراء هجاء مثل ما كان بين ابن عبد ربه والقلفاط. وما حدث بين أبي بكر المخزومي الأعمى ونزهون بنت القلاعي. وهجاء ابن الخطيب لابن زمرك عندما حدثت بينهما القطيعة. وأفظع هجاء هجاء ابن عمار لصديقه المعتمد بن عباد، وهجاء المعتمد له، وقد كان هجاء المعتمد ساخرا متهكما، ولكن تعبير ابن عمار كان قبيحًا بذيئًا.

ومن الهجاء المزعج هجاء الحكم الغزال للقاضي يخامر، وكان هذا القاضي ذا غفلة وسهو كثير، ويبدو أنه كان قليل العلم، فأقيل من منصبه، وفيه يقول الكاتب المؤرخ ابن حيان: وانبرى له [ليخامر] شاعر قرطبة في ذلك الزمان يحيى بن الحكم الغزال، منتهك الأعراض، ومخزي الرجال ، فأكثر هجوه وذمه، ووصفه بالبله والجهل، فندر بذكره، ... فمن قوله :

فقلت له كلفتني غير صنعتي ... كما قلدوا فضل القضاء يخامرًا
فأصبح قد حارت به طرق الهوى ... يكابد لجيا من البحر زاخرًا
فقلت لو استعفيت منها ، فقال لي ... سأفضح ما قد كان ذاك مغايرًا
فقلت له: رأس الفضوح إقامة ... علينا كذا من غير علم مكابرًا
وخبطك في دين الإله على عمى ... خباطة سكران تكلم سادرًا
فلن تحمل الصخرَ الذبابُ ولن ترى ... السلاحفَ يُزجين السفينَ المواخرًا[1]

وهجا السميسر ملوك الطوائف، وكان يصفهم بالخيانة لأنهم عاونوا النصارى ضد المسلمين، وكان يكتب قطعه الهجائية في أوراق، ويطيرها في الأسواق ويهرب. وكذلك هجا شاعر يدعى السمساري ملك غرناطة عبد الله ابن بلقين، ومما قال فيه :

---

(١) المقتبس، لابن حيان: تحقيق د / محمود مكي . القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، عام ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ ، ص ٢٠٠ .

صاحب غرناطة سفيه وأعلم الناس بالأمور
صانع أذفونش والنصارى فانظر إلى رأيه الدبير
وشاد بنيانه خلافا لطاعة الله والأمير
يبني على نفسه سفاها كأنه دودة الحرير
دعوه يبني فسوف يدري إذا أتت قدرة القدير(١)

وقال أبو عبد الله الفزازي:

الروم تضرب في البلاد وتغنم والجور يأخذ ما بقي والمغرمُ
والمال يورد كله قشتالة والجند تسقط والرعية تسلمُ
وذوو التعين ليس فيهم مسلم إلا معين في الفساد مسلمُ
أسفي على تلك البلاد وأهلها الله يلطف بالجميع ويرحمُ(٢)

ومن بديع الهجاء الذي اتخذ صورة السخرية الشديدة قول الشاعر أحمد ابن محمد بن فرج البلوي المعروف بالبلساري يهجو الكاتب حامد بن محمد الزجالي كاتب الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموي يقول:

فعل اللئيم وليته لم يفعل وأتى بفعل مثله لم يَجْمُلِ
نبح الضفادع في الصنيع ولم يدع للنمل جارحة ولا للقملِ
وضع الطعام فلو علته ذبابة وقعت لتكمل شبعة لم تكمل
وكأنما خرطت صحاف طعامه من دقة ودمامة من خردل
وكأن فترة صحفة عن صحفة في البعد والإبطاء فترة مرسل(٣)

(١) مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين ، تحقيق: ليفي بروفنسال. القاهرة، طبعة دار المعارف، ١٩٥٥، ص ٢٠٧ .
(٢) نفح الطيب ؛ ج٤ ، ص ٤٦٧ .
(٣) المقتبس لابن حيان : تحقيق د / محمود مكي ، ص ١٧٥ .

هذه صورة بديعة ساخرة تعتمد على المبالغة في وصف المهجو بالبخل، فهو قد دعا الناس للطعام في بيته، ثم قتر عليهم في كل شيء، واللحم الذي قدمه إليهم لم يكن لحم بقر أو ضأن، وإنما كان لحم ضفادع، والأطباق التي وضع فيها الطبيخ كانت صغيرة جدا، والطباخ الذي يطبخ، ومساعده الذي يقدمه كان بطيئا جدا، حتى إن بين الطبق والآخر مدة طويلة كأنها الزمن الفاصل بين نبي وآخر، وهي فترة الرسل. صورة فكاهية تذكرنا بهجاء الشاعر العباسي ابن الرومي عندما يسخر ويبالغ في السخرية.

يذكر ابن حيان أن هذا الشاعر أكثر من هجاء الزجاجلة؛ لأن بعضهم آذاه فعمهم بهجائه، وأفحش لهم، ومن قوله في شعر له فيهم:

هم علموني اللؤم حتى كأنني لغير أبي أو معرق في الزجاجة (١)

٣- شعر الرثاء:

يتنوع شعر الرثاء في الأندلس، فمنه رثاء الأفراد، كرثاء الأب لأبنائه، أو رثاء الأبناء لآبائهم، ورثاء الزوج لزوجته، ورثاء الزوجة لزوجها، وهو كثير مستفيض، فالشاعر أبو إسحاق الإلبيري يرثي زوجته بقصيدة جيدة يظهر فيها لوعته لفراقها، وابن جبير يرثي زوجته كذلك، ويخصص لها ديوانا كاملا، ويرثي الأعمى التطيلي زوجته آمنة بقصيدة جميلة، يقول فيها:

ونبئت ذاك الوجه غيره البلى على قرب عهد بالطلاقة والبشر
أآمن إن أجزع عليك فإنني رزئتك أحلى من شبابي ومن وفري(٢)

ومن رثاء الأفراد رثاء العلماء، فقد كان الشعراء الذين تتلمذوا على يد العلماء أوفياء لهم أكرموهم في حياتهم، ورثوهم بعد موتهم، وظلت ذكراهم حية في أشعارهم، تقرأها الأجيال المتوالية، وقد وردت في سير علماء الأندلس مراثٍ لهم؛ فتلاميذ أبي علي القالي رثوه، وتلاميذ ابن السراج، وابن رشد،

---

(١) المقتبس ، ص ١٧٦ .
(٢) ديوان الأعمى التطيلي: تحقيق د / إحسان عباس ، ص ٧٠ .

وابن حزم، وغيرهم كثير، وكان بعض الشعراء يرثي نفسه كما فعل ابن شهيد إذ قال:

ولما رأيت العيش ولى برأسه وأيقنت أن الموت لا شك لاحقي
تمنيت أني ساكن في غيابة بأعلى مهب الريح في رأس شاهق
أذر سقيط الحب في فضل عيشه وحيدا وحسي الماء ثني المغالق
خليلي من ذاق المنية مرة فقد ذقتها خمسين قولة صادق
كأني وقد حان ارتحالي لم أفز قديما من الدنيا بلمحة بارق
فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي يدا في ملماتي وعند مضايقي
عليك سلام الله إني مفارق وحسبك زادا من حبيب مفارق(١)

وقد رثى الحافظ بن الأبار شيخه أبا الربيع الكلاعي الذي استشهد في موقعة أنيشة سنة ٦٣٤ هـ ، بقصيدة ميمية شهيرة مطلعها :

ألما بأشلاء العلا والمكارم تقد بأطراف القنا والصوارم (٢)

وشاع في العصور اللاحقة لعصر بني أمية في الأندلس رثاء المدن والقرى والحصون والمساجد التي هدمها العدو؛ إذ إنه استأسد عليهم لما تفرق حكامهم ، وطعن بعضهم بعضا، بل إن بعضهم كان يساعد الأعداء ضد إخوانه المسلمين وبعضهم الآخر استعان بهم ضد جيرانه من المسلمين، فكانت مأساة للشعب الأندلسي.

وعندما اندلعت الفتنة المبيرة في قرطبة، التي تسمى الفتنة البربرية ، دمر المتقاتلون القصور والبيوت، وأحرقوا الحدائق والمزارع بطريقة همجية قبيحة وقتل في هذه الحرب كثير من أهل قرطبة، ورحل كثير منها، وتشتتوا في الآفاق، وصارت عاصمة الخلافة المزدهرة خرابا يبابا، موحشة مزعجة

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام الشنتريني: تحقيق د / إحسان عباس . دار الغرب الإسلامي ، ط ١، ٢٠٠١م ، ق١ ، ج١ ، ص ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .
(٢) نفح الطيب: ج ٤ ، ص ٤٧٣ .

تبكي الجليد، وهيج هذا المنظر الكئيب ابن شهيد فرثاها في شعره بقصيدة طويلة حزينة. ورثاها ابن حزم شعرا ونثرا، ومن شعره فيها قوله:

سلام على دار رحلنا وغودرت — خلاء من الأهلين موحشة قفرا
تراها كأن لم تغن بالأمس بلقعا — ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا
فيا دار لم يقفرك منا اختيارنا — ولو أننا نختار كنت لنا قبرا
ويا مجتلى تلك البساتين حفَّها — رياض قوارير غدت بعدنا غبرا
ويا دهر بلغ ساكنيها تحيتي — ولو ساكنوا المروين أو جاوزوا النهرا
لئن كان أظمانا فقد طالما سقى — وإن ساءنا فيها فقد طالما سرا
وأيتها الدار الحبيبة لا يرم — ربوعك جون المزن يهمي بها القطرا
كأنك لم يسكنك غيد أوانس — وصيد رجال أشبهوا الأنجم الزهرا(١)

ورثى كثير من الشعراء المدن الأندلسية الساقطة في يد العدو، ومن أهم هؤلاء الشعراء أبو البقاء الرندى، صاحب النونية الشهيرة، مطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان — فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول — من سره زمن ساءته أزمان

وفيها يقول:

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له — هوى له أحد وانهد ثهلان
أصابها العين في الإسلام فارتزئت — حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية — وأين شاطبة بل أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم — من عالم قد سما فيها له شان

---

(١) طوق الحمامة في الألفة والألاف، لابن حزم الأندلسي: تحقيق د/ طاهر مكي، دار المعارف بمصر، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م، ص ١٢٧.

وأين حمص وما تحويه من نـــزه ونهـــرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركـــــان البلاد فمـــا عسى البقاء إذا لم تبق أركان(١)

وقد رثى فيها قرطبة وبلنسية ومرسية وأشبيلية، ووصف الذل الذي ألحقه الأعداء بالمسلمين، وكيف حولوا المساجد إلى كنائس، وباعوا نساء المسـلمين في أسواق النخاسة، وفرقوا بين الأطفال وأمهاتهم، وهي قصيدة مؤثرة جـدا تصور الفظائع التي لحقت بالمهزومين، ثم يستنجد لإنقاذ الأندلس وأهلها، ولكن المسلمين في بلاد المغرب وغيرها كانوا مشغولين بالحروب الأهلية، وأهـل المشرق كانوا يقاتلون الصليبيين والمغول، فالكارثة كانت عامة.

كذلك رثى الشعراء الدول الزائلة، فقد رثى ابن اللبانة دولة بنـي عبـاد، ورثى أسرة المعتمد بن عباد برثاء حار صادق، وأيضا ابن عبدون رثى بنـي الأفطس أصحاب بطليوس بقصيدة مشهورة، أطال من الاعتبار فيها بحـوادث التاريخ، مطلعها:

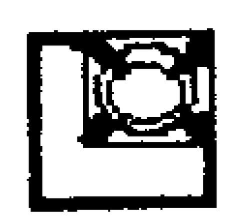
الدهر يفجع بعد العيـن بالأثـرِ فما البكاء على الأشباح والصورِ
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظـــة عن نومة بين ناب اللـيث والظفرِ
ما لليالـــي أقال الله عثـــرتنا من الليالـــي وخانتهـــا يد الغِيَرِ
في كل حين لها في كل جارحة منا جراح وإن زاغـت عن النظرِ
تسر بالشـــيء لكن كي تغر به كالأيم ثار إلى الجاني من الزهر(٢)

---

(١) أزهار الرياض، للمقري: تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي؛ القاهرة، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م. ج ٣، ص٤٧. ونفح الطيب، للمقري: تحقيق د / إحسان عباس؛ ج ٤، ص ٤٨٧.

(٢) هذه القصيدة تسمى البسامة، شرح ابن بدرون، تحقيق: دوزي، طبعة مصر، سنة ١٣٤٠ هـ.

ملخص الوحدة الثانية



المدح ثناء على امرئ أحسن إلى الناس أو إلى بعضهم. وشعر المدح ينبع من عاطفة الإعجاب بالأعمال الجليلة، والعطايا الجزيلة، وبعضه ينبثق من الرغبة في الكسب. وكان شعراء الأندلس يمدحون الأبطال المسلمين الذين ينتصرون على الأعداء، ويدفعون الشر عن أهلهم وأوطانهم، وقد نال بنو أمية مدائح كثيرة لأنهم كانوا أبطالا. وكذلك مدح الشعراء يوسف بن تاشفين ويعقوب المنصور؛ لانتصارهم على أعداء الإسلام في ذلك الزمان. وهناك مدح زائف لملوك الطوائف، يظهرهم الشعراء الأندلسيون في صورة أبطال عظماء، وهم في الحقيقة غير ذلك، إذ كانوا يدفعون الجزية لألفونسو السادس. وبعضهم كانوا يعاونون الأعداء ضد إخوانهم من المسلمين. وكانت الشجاعة والكرم والعدل والتقوى والجمال من القيم التي استخدمها الشعراء كثيرا في مدحهم.

والهجاء ذم وشتم؛ وهو نوعان: هجاء الأشراف وهجاء السوقة، أما هجاء الأشراف فهو الذي تنشده العذراء فلا تستحي؛ لأنه لا يوجد فيه كلام فاحش صريح . وأما هجاء السوقة فهو شتم فاحش يخجل الأتقياء والنساء من روايته.

وقد كان هذا الهجاء بنوعيه في الأندلس، ولكن لم يصل إلينا منه كثير؛ لأن مؤرخي الأدب الأندلسي امتنعوا عن روايته كما صنع ابن بسام في الذخيرة. وأعظم الهجائين في الأندلس هم: الشاعر يحيى بن حكم الغزال، وأبو بكر الأعمى المخزومي وابن حزمون.

والصفات المذمومة التي رصدوها ووصفوا بها المهجويين هي البخل والجبن وسوء الخلق، وما تفرع عنها من معانٍ. ونلحظ أنها ضد الصفات المدحية.

وكذلك فإن الرثاء ذكر محاسن الفقيد، وهدفه إبراز النماذج الإنسانية

العليا، وتسلية المحزون للفراق، وتخفيف الضغط النفسي عنه. والرثاء أنواع: رثاء الأفراد، كرثاء الأب والأم والأولاد والأصحاب، وقد ظهر في الأندلس رثاء التلاميذ لأساتذتهم كثيرا. ورثاء المدن التي سقطت في يد العدو، وهذا نوع جديد في الأندلس، وأعظم من رثى المدن أبو البقاء الرندي في نونيته. ورثاء الأسر الحاكمة التي سقطت، كبني عباد، وبني الأفطس، وغيرهم، وأعظم من رثاهم ابن اللبانة وابن عبدون.

أسئلة تقويمية على الوحدة الثانية ؟

س١ : ما أنواع المدح في الأندلس ؟

س٢ : ما العاطفة التي ينبع منها المدح ؟

س٣ : ما القيم الإنسانية التي كان يمدح بها شعراء الأندلس ؟

س٤ : عرف معنى الهجاء ، واذكر أنواعه .

س٥ : لماذا لم يصل إلينا كثير من شعر الهجاء في الأندلس ؟

س٦ : من أهم الشعراء الهجائيين في الأندلس ؟

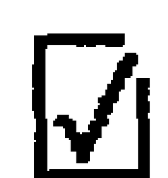
س٧ : ما الصفات المذمومة التي كان يستخدمها الشعراء الأندلسيون في الهجاء ؟

س٨ : ما أنواع الرثاء في الأندلس ؟

س٩ : ما الجديد الذي أضافه الشعراء الأندلسيون في هذا الشعر ؟

س١٠ : لماذا برز في الأندلس رثاء المدن والقرى والوطن عامة ؟

س١١ : من أهم شعراء الرثاء في الأندلس ؟

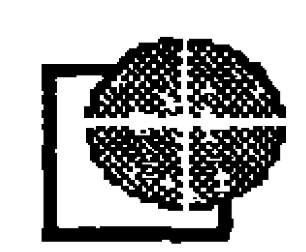


إجابة بعض الأسئلة

ج٣ : القيم الإنسانية التي كان يمدح بها شعراء الأندلس هي الشجاعة والكرم والعدل والتقوى، وما يتفرع عن ذلك من المعاني.

ج٧ : الصفات المذمومة التي استخدمها الشعراء في الهجاء هي الجهل والجبن والبخل وسوء الخلق، وما تفرع عنها من معان.

ج١٠: برز في الأندلس رثاء المدن القرى والوطن لأن الحرب كانت دائمة بين المسلمين والكاثوليك، ولما سقطت دولة الأمويين في الأندلس، بدأ الضعف وسقطت المدن واحدة تلو أخرى في يد الكاثوليك .



الوحدة الثالثة

شعر الوصف والغزل والتصوف

الأهداف السلوكية:

١- الهدف المعرفي:

- أن يعرف الطالب مصطلح الوصف ، ويلم بقضايا هذا الموضوع من وصف للطبيعة ووصف لأدوات الحضارة والمخترعات الإنسانية .
- أن يحدد معنى الغزل، ويحيط بعواطف الحب عند البشر.
- أن يفهم طرق المتصوفة في تعبيرهم عن حبهم.

٢ – الهدف الوجداني:

- أن يدرك الطلاب الجمال في الطبيعة والحياة.
- أن يتربى الطالب على الحب العفيف، وأن يتذوق الحب الإلهي.

٣- الهدف المهاري :

- أن يحسن قراءة شعر الوصف والغزل والتصوف، وتحليله.

١ – شعر الوصف:

الطبيعة الأندلسية متنوعة المناخ، مختلفة التربة، كثيرة الأنهار والعيون والآبار ولذا كثرت فيها المزارع والحدائق والغابات، وتبدو فيها الفصول جيدا، خاصة فصل الربيع، ففيه تتجدد الحياة: يورق الشجر، ويزهر ويثمر، وتتكاثر الطيور والحيوانات، ويظهر النمو في كل مظاهر الحياة.

وأعظم من يدرك هذا الجمال، وهذا التحول في الطبيعة من فصل إلى آخر، ولاسيما فصل الربيع، هم الشعراء والأدباء والفنانون، فهم بشعرهم

ونثرهم وفنهم يفتحون عيون الناس على تنوع الحسن، وتعدد الجمال، حتى في الأشياء العادية التي نمر بها كل يوم، ولا نتنبه لبهائها وجلالها .

وشعر الوصف في الأندلس يحتوي على نوعين كبيرين: أولهما: يختص بالطبيعة من سماء وشمس وقمر وسحاب ومطر وبرق ورعد، إلى غير ذلك من الظواهر السماوية، ويشتمل على وصف ما في الأرض من جبال وهضاب وأودية وغابات وبساتين، وحقول كثيرة الخيرات. وثانيهما: يتناول ما أبدعته يد الإنسان من الصنائع والفنون، كالقصور الشامخة والبيوت العامرة، والمساجد المنيرة والتماثيل البديعة، والقناطر المتينة، والملاعب الواسعة، والحصون المحصنة، والقلاع المشيدة، والسفن التي تمخر البحار، والزوارق الحربية وآلات الحرب المعروفة آنذاك كالسيف والرمح والترس والمنجنيق، والملابس الحربية، وكل ما اخترعه ابن آدم من أدوات السلم والحرب .

والقارئ لشعر الطبيعة في الأندلس يلحظ أن الشعراء أحيانا يقفون أمام الشكل الخارجي، فيصفونه وصفا خلابا، ويشبهونه بتشابيه دقيقة عجيبة تدل على قوة الملاحظة، ودقة المشاهدة، ومعرفة العلاقات بين العناصر المختلفة، فتجيء الصورة كأنها تمثال منحوت جميل للموصوف. وأحيانا أخرى يجد القارئ الشعراء والأدباء يصفون ما تقع عليه أعينهم من موضوعات الحسن الطبيعية، فيعبرون عما يحسونه في أنفسهم تعبيرا عاطفيا، يركز على أثر الموصوف في النفس، فيرسم تلك الصورة التي تعبر عن الرؤية الروحية للأشياء، فتجلت النفس عامة، وتحرك فيها الفكر والعاطفة، ولذا يشترك القارئ والأديب والشاعر في ذلك الإدراك الخاص للطبيعة، أو الموصوف منها. وأحيانا أخرى يمزج بين الأمرين، يصف الوردة مثلا من الخارج وصفا ماديا جميلا، ثم يمزج بهذا الوصف مشاعره، ويعبر عما اعتراه من نشوة أو سعادة أو حزن.

وكل دواوين الشعراء الأندلسيين تحتوي على أوصاف كثيرة، ولو قلنا: إن الوصف أوسع الأغراض الشعرية لما بعدنا عن الحقيقة. ومع أن الشعراء

الأندلسيين عامة تناولوا الوصف، فإن بعضهم كان أكثر تناولا من بعضهم الآخر، فالشاعر يوسف بن هارون الرمادي، كان وصافا للطبيعة، وكذلك الشريف الطليق، ولكن المشار إليه دائما في وصف الطبيعة في الأندلس هو ابن خفاجة، وابن الزقاق البلنسي وهو قريب ابن خفاجة، وقد أطلق الأندلسيون لقب "الجنان" على ابن خفاجة لكثرة وصفه للأنهار والأشجار والحدائق والبساتين والأزهار والورود والنواوير. وتظهر في ديوانه جميع الطرق الوصفية، فهو يصفها من الخارج تارة، ويصفها كما تقع في خلده تارة أخرى، ويكثر فيها من التأملات. وأحيانا يمزج بين الوصف الخارجي والتأمل الباطني.

قال ابن الزقاق يصف عشية :

وعشية لبست ملاء شقيق ... تزهى بلون للخدود أنيق
أبقت بها الشمس المنيرة مثلما ... أبقى الحياء بوجنة معشوق
لو أستطيع شربتها كلفا بها ... وعدلت فيها عن كؤوس رحيق(١)

هنا يصف الشاعر تلك العشية وصفا رائعا، وهو يشخصها، ويجعلها تلبس ملاءة حمراء كشقائق النعمان، وهي تفخر بها، وتبدو مرة أخرى بلون الخدود الحمراء، خدود العذراوات، ويشبه انعكاس الشمس فيها آخر النهار وهي محمرة بالحياء الذي يعتري وجه الحبيب المعشوق عندما يراه حبيبه الوامق، ثم يختم الشاعر بالتعبير عن عاطفته وأثر هذه العشية في نفسه بأنه قد أحبها حبا شديدا حتى أنه تمنى لو قدر أن يحتسيها لاكتفى بها، ولما شرب الخمر، فهي تلذه وتسعده أكثر من السلافة.

وقال ابن خفاجة في وصف الطبيعة :

وكمامة حدر الصباح قناعها ... عن صفحة تندى من الأزهار

---

(١) نفح الطيب، ج٤ ، ص ٣٠٠ .

في أبطح رضعت ثغور أقاحه أخلاف كل غمامة مدرار
نثرت بحجر الأرض فيه يد الصبا درر الندى ودراهم النوار
وقد ارتدى غصن النقا وتقلدت حلي الحباب سوالف الأنهار
فحللت حيث الماء صفحة ضاحك جذل وحيث الشط بدء عذار
والريح تنفض بكرة لمم الربى والكل ينضح أوجه الأشجار
متقسم الألحاظ بين محاسن من ردف رابية وخصر قرار
وأراكة سجع الهديل بفرعها والصبح يسفر عن جبين نهار
هزت له أعطافها ولربما خلعت عليه ملاءة الأنوار(١)

يصور ابن خفاجة في هذه الأبيات تفتح الكمائم التي تحوي الأزهار بصورة المرأة المقنعة التي تنزع عنها قناعها، والنازع هو الصباح المشرق، ثم يزيد الصورة جمالا بإبراز الندى المتساقط فوق هذه الأزهار، ورسم صورة الوادي الذي نمت فيه بالاتساع، وكثرة الأقاحي بين جنباته وقد ارتوت من المطر الذي هطلته السحب الغزيرة الدر، ويتتبع ابن خفاجة جزئيات الصورة حتى يكون لوحة رائعة، فالرياح المحبوبة، رياح الصبا حملت السحب إلى الوادي وألقت فيه حبات الندى البيضاء التي تشبه اللؤلؤ، نثرت فيه أيضا النواوير الكثيرة على الأرض، فصار المنظر غاية في الحسن. وأما الأغصان والفروع في الشجر فقد اخضرت وأورقت، وتزينت أوجه الأنهار بحباب الماء، وهو الفقاعات العائمة على سطحها.

وفي هذا المشهد الجميل جلس الشاعر يتأمل الطبيعة من حوله، فرأى الماء ضاحكا فرحان، ووجد الشط قد نما به العشب كما ينمو العذار في خد الغلام البالغ. وتبدو هنا رؤية الشاعر النفسية ممتزجة بأوصافه وتشخيصاته

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص ١٣٢ – ١٣٣ .

الرائعة. فيعود الشاعر للرياح مرة أخرى، فيجعلها تهز رؤوس الربى، أي ما فوقها من شجر ونبات، فتسقط الماء من فوقها، ثم يأتي السحاب فيمطرها مرة أخرى، عنصر يجفف، وعنصر يرطب، تفاعل دائم بين عناصر الطبيعة. ويعرض الشاعر موقفه هنا، ويرينا أنه كثير النظر والتمعن في محاسن المرتفعات والمنخفضات، في الروابي والسفوح، وهو يشخصها ويجعل لها ردفا وخصرا كردف المرأة وخصرها. ثم يصف لنا الشجر الذي يغرد فوقه الطير، خاصة الحمام عند مطلع النهار في الصباح الباكر، فهو يختال ويتمايل مع نغمات الحمام، وقد تجيزه بجائزة ثمينة، إنها ملاءة الأنوار، وملاءة الأنوار تحتمل أن تكون أشعة الشمس عند إشراقها؛ إذ إن الفروع عندما ترتفع وتنخفض تمر عبر الأشعة، فتسقط على الحمامة كأنها كسوة بديعة، ويحتمل أن يكون الشاعر قصد بها حلة من الأنوار، تقع على الحمامة فتبدو كالملاءة المزركشة التي تلبسها الحسناوات الأندلسيات.

والشاعر يعتمد على وسيلة التشخيص أكثر من اعتماده على غيرها من الوسائل، وتتميز هذه الأداة بأنها تحمل العواطف البشرية والخصائص الإنسانية، وتصور بها تلك النباتات والحيوانات والجمادات، فتصير حية ناطقة متفاعلة، فتجذب القارئ والسامع، وتقيم قيما جمالية أخرى تحمل من العواطف المثيرة كثيرا، فتصير اللوحة حية متحركة، تحس وتشعر، وتنمو وتتأثر. كما يقارن الشاعر بين المرأة والطبيعة فيصف الطبيعة ببعض صفات المرأة النفسية والجسمية.

لقد اتسع وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي أكثر من الشعر المشرقي، ومصداق ذلك تلك الأشعار التي وصلت إلينا رغم حرق الكتب والدواوين. ولو نظرنا في الكتب التي اشتملت على مختارات من الأدب الأندلسي، لوجدنا شعرا كثيرا نظم في الطبيعة فمثلا: "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة "، يحتوي هذا الكتاب على أشعار بديعة في وصف الطبيعة، وكذلك كتاب: "الإحاطة في أخبار غرناطة"، وكتاب: "نفح الطيب"، وكتاب: "أزهار الرياض

في أخبار القاضي عياض"، وكتاب: "البديع في وصف الربيع" للحميري ؛ كله مخصص لوصف الطبيعة في فصل واحد هو الربيع . وكتاب: "التشبيهات من أشعار أهل الأندلس"، وكتاب: "الحدائق" لابن فرج الجياني ، وإن كان مفقودا، فإنه يدل بعنوانه على ما يحتويه، أو على جزء مما يشتمل عليه.

وأما وصف المصنوعات فمنتشر في الشعر الأندلسي ، فقد حظيت قصور بني أمية بإعجاب الشعراء، فوصفوها خير وصف حتى كأننا نراها. ووصفوا مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر وصفا جميلا، كما وصفوا مسجد قرطبة وهو رائع البناء، واسع الأنحاء، بديع الزخرفة، يدل على العظمة وحب القوم للجمال، وإخلاصهم في بناء بيوت الله، كما يدل على ثرائهم. وعبروا بصورة جميلة عن قنطرة قرطبة وجسرها، وحدائقها التي نسقتها يد الإنسان، وما وضعوا فيها النوافير وتماثيل لحيوانات، تمج الماء من أفواهها، فتخلب الألباب. وكذلك فازت قصور العامريين بكثير من الشعر، تأنق فيه الشعراء حتى ينالوا جائزتين: إرضاء المنصور وأولاده والتقرب منهم والحصول على جوائزهم المادية، هذه واحدة، والثانية إرضاء أنفسهم بالتفوق في الوصف، والإبداع في الفن.

وازداد شعر الوصف الخاص بالمصنوعات في عصر الطوائف؛ إذ حاول ملوك الطوائف أن ينافسوا بعواصمهم قرطبة إبان عزها أيام بني أمية، فبنوا قصورا عديدة. فقد شيد بنو عباد في إشبيلية عدة قصور، ذكر المعتمد بعضها في شعره كقصره الزاهر والمبارك، وبنى أصحاب طليطلة قصورا، وتأنقوا في زخرفتها، ووصف الشعراء تلك القصور، وقد عرض لها عرضا مسهبا أبو مروان بن حيان، وهو يتحدث عن بني ذي النون حكامها. وقصور بني صمادح في المرية، وقصور غرناطة، وهذه بلغت في الجمال الغاية، وما زال قصر الحمراء قائما حتى الآن يدل على عظمة القوم، وحبهم للفن والجمال والعمران.

يقول ابن زمرك في وصف قصر الغني بالله سلطان غرناطة:

ولله مبناك الجميل فإنه يفوق على حكم السعود الأمانيا
فكم فيه للأبصار من متنزه تجد به نفس الحليم الأمانيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ولم تك في أفق السماء جواريا
ولو مثلت في ساحتيه لسابقت إلى خدمة ترضيك منها الجواريا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة جللته بحليّها من الوشي تنسى السابري اليمانيا
وكم من قسي في ذراه ترفعت على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها تظل عمود الصبح إذ بات باديا
سواري قد جاءت بكل غريبة فطارت بها الأمثال تجري سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها على عظم الأجرام منها لآليا(١)

وكان الأندلسيون يعنون بالنظافة غاية العناية، فبنوا الحمامات وزينوها بالزخارف الجميلة، وأجروا فيها المياه الساخنة والمياه الباردة، وقد وصف الشعراء تلك الحمامات أوصافا متباينة، فبعضهم أثنى عليها وذكر محاسنها، وبعضهم الآخر حمل عليها في شعره، وأبان عن مساوئها.

ومما قاله الشاعر الأعمى التطيلي في الحمام :

يا حسن حمامنا وبهجته مرأى من السحر كله حسن
ماء ونار حماهما كنف كالقلب فيه السرور والحزن(٢)

---

(١) ديوان ابن زمرك ، تحقيق د / محمد توفيق النيفر ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، سنة ١٩٩٧ م ، ص ٥٢٢ .

(٢) ديوان التطيلي، ص ١٤٥. والذخيرة ، ق١، ج ١، ص ٢٣٥.

وقد أورد ابن بسام في ذخيرته عدة مقطوعات جميلة في وصف الحمامات، منها قول المنفتل الشاعر:

تحيرت من طيب حمامنا يخيل لي أن فيه الفلق
فمن حمرة فوقنا وابيضاض كخد الحبيب إذا ما عرق
رأى الدهر ما شذ من حسنه فسد كوى سقفه بالشفق[١]

وقال أبو بكر بن بقي:

حمامنا فيه فصل القيظ محتدم وفيه للبرد سر غير ذي ضرر
ضدان ينعم جسم المرء بينهما كالغصن ينعم بين الشمس والمطر[٢]

هذه أشعار قيلت على البديهة، ولكنها ممتعة، وهي تجمع بين العواطف الإنسانية، والأوصاف المادية للحمام، ففي القطعة الأولى نجد الشاعر يتعجب من جمال الحمام، وحسن بنائه، فهو يسحر العيون، ويجذب الأفئدة، وهو يشتمل على الضدين: الماء والنار، ومع أنهما متضادان فقد استقرا في الحمام، واستفاد منهما الناس دون أن يطغى بعضهما على الآخر، وصور الشاعر الحمام بصورة القلب الذي يحوي متضادين أيضا هما السرور والحزن، وكلاهما يفعل فعله، بيد أن التوازن يجعل المرء يعيش عيشة طيبة.

وفي القطعة الثانية نجد تعبير الشاعر يدل على الدهشة من جمال الحمام وطيبه، فهو مبني بناء هندسيا رائعا، وهو ملون السقف والحيطان، فيه حمرة وبياض، وزجاج مزخرف، وله نوافذ بديعة الصنع تعكس الأضواء في النهار، فكأنها شفق أحمر يشد الأنظار، ويثير الفكر. ويصور ألوان الحمام وما يلصق على زجاجه من بخار يتحول إلى قطرات ماء كخد المحبوبة عندما تعرق، وتبدو حبات العرق على وجهها، وهو منظر محبب للشاعر.

---

(١) الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٢٣٤.
(٢) الذخيرة، ق١، ج ١، ص ٢٣٥.

والقطعة الأخيرة ترى في الحمام أمرين من أمور العجائب، فيه الصيف القائظ، وذلك عندما يسخن الحمام، ويغلي الماء به، ويرتفع البخار في جنباته، وفيه الشتاء البارد حينما يبرد الحمام، ولكن الشاعر دقيق في رسم اللوحة الجميلة، فعندما قال: غير ذي ضرر، نفى ضرر الحر وضرر البرد، ووضح ذلك في البيت الثاني، فقد جعل جسم المستحم يسعد بهذا القر والحر، وصوره بصورة الغصن الناضر ينعم بين الشمس والمطر. ونلحظ الرؤية الإنسانية تسيطر على الوصف، وتظهر في التعبيرات العاطفية التي تمزج بين المادي والروحي.

وقد وصف الشعراء الأندلسيون السفن الحربية، إذ كان لبني أمية في الأندلس أسطول قوي يجوب المحيط الأطلسي، وبعضه يعبر في البحر المتوسط، فكانت هذه السفن الحربية والزوارق العديدة تحرس الدولة من غارات الأعداء. ولما انقضت دولتهم ورث الأسطول ملوك الطوائف، فتمزق فيما بينهم، ولكن عددا كبيرا منه كان تحت إمرة مجاهد العامري، حاكم دانية وجزر الأندلس، وكان هذا الحاكم مجاهدا قويا دافع عن شرق الأندلس كثيرا، وانتصر في بعض المعارك، وسجل الشعراء انتصاراته، ووصفوا السفن والزوارق الحربية وصفا يعتمد على تصوير الهيئة والحركة واللون.

وصف الشاعر أبو بكر الداني الملقب بابن اللبانة الأسطول بقوله:

بشرى بيوم المهرجان فإنه ... يوم عليه من احتفائك رونق
طارت بنات الماء فيه وريشها ... ريش الغراب وغير ذلك شوذق
وعلى الخليج كتيبة جرارة ... مثل الخليج كلاهما يتدفق
وبنو الحروب على الجواري التي ... تجري كما تجري الجياد السبق
ملأ الكماة ظهورها وبطونها ... فأتت كما يأتي السحاب المغدق
خاضت غدير الماء سابحة به ... فكأنما هي في سراب أينق

عجبا لها ما خلت قبل عيانها أن يحمل الأُسْد الضواري زورق

هزت مجاديفا إليك كأنها أهداب عين للرقيب تحدق

وكأنها أقلام كاتب دولة في عرض قرطاس تخط وتمشق(١)

إن الشاعر يرسم صورة جميلة لاحتفال الأسطول في يوم المهرجان، وهو يشبه المناورات البحرية في عصرنا الحديث ، فالسفن تجري بسرعة كأنها طيور من بنات الماء، وريشها أسود كاتم كلون ريش الغربان، والقوات البحرية متراصة على الخليج تنتظر دورها في التدريب، وإظهار مهاراتها البحرية، وهي كثيرة العدد مثل مياه البحر، وهناك في السفن والزوارق أبطال كنى عنهم ببني الحروب، والزوارق تجري بهم جريا شديدا كأنها الخيول المسومة، ثم يزيد الشاعر في الصورة، فيبين أن الأبطال البحريين ملأوا ظهور السفن وبطونها، فصارت كالسحب المحملة بالمطر، ثم يصورها مرة أخرى وهي تمخر عباب البحر بالجمال والنوق التي تقطع الصحراء وتسير وسط السراب، وهو يتعجب في صورة أخرى بديعة، كيف تحمل الزوارق الأسود، والأسود هنا هم الأبطال البحريون من المسلمين. ويصور مجاديف الزوارق والسفن بأهداب العيون، ولكنها عيون يقظة كعيون الرقباء الذين يرقبون العدو، فإنها لا تغمض. ثم يشبهها وهي بعيدة في عرض البحر بأقلام كتاب الإنشاء، وهم يكتبون في القراطيس لدقتها في العين، لبعد المسافة من الشاطئ، وهذه صورة جديدة جميلة. ويبدو في كلام الشاعر روح الإعجاب والفرح؛ لأنه يطمئن إلى أن القوة الإسلامية في البر والبحر كفيلة بدفاع الأعداء الخارجين ، وتحقيق الأمن والطمأنينة للشعب الأندلسي.

٢- شعر الغزل:

كان الغزل موضوعا مهما في الأدب العربي منذ الجاهلية، ثم تطور في الإسلام وظهر في صور عديدة، وقد أجملها الباحثون في اتجاهين؛ أولهما:

---

(١) المعجب لعبد الواحد المراكشي ، ص ١٣٤ .

الغزل الحسي، وثانيهما الغزل العفيف. وهذا ما كان عليه الحال في الأندلس كان فيها اتجاه يعتمد على التعفف عند الحديث عن المرأة، فيكتفي بذكر محاسنها الأخلاقية، وإذا عرض لمحاسنها الجسمية أجملها إجمالا، ويرسم صورة لأثرها في نفسه، وما تركته في قلبه من تباريح الهوى والصبابة، ويزيد بعضهم فيتحدث عن تمكنه من محبوبته، ويخبر أنه لم يرتكب إثما، وإنما اكتفى بالحديث معها، والنظر إليها، كل ذلك في تعبير أخاذ وأسلوب جذاب.

والاتجاه الثاني وهو الغزل الحسي أو الصريح، فكان يميل الشاعر فيه إلى الحديث عن مغامراته العاطفية، ويتبع ملامح الجمال الجسدية في المرأة التي يهواها، فيصورها ويشبهها بتشبيهات عجيبة من الطبيعة، وبعض هذه التشبيهات موروث من القدماء، كتشبيه المرأة بالغزالة، ووجهها بالقمر، وشعرها بالليل أو الفحم، وقدها بغصن البان، وردفها بالكثيب، إلى غير ذلك من الأوصاف، وزاد الشعراء الأندلسيون التغزل بالحسناوات الشقراوات من بنات الأندلس.

وفي بعض الأشعار الغزلية يمزج الشاعر بين الاتجاهين، فتراه يصور المحاسن الجسدية والمحاسن الأخلاقية، ويذكر ما انطبع في نفسه، وما أحدثته رؤيتها في قلبه. يقول الشاعر أبو الحسن علي بن عطية الزقاق :

لعمر أبيها ما نكثت لها عهدا ... ولا فارقت عيني لفرقتها السهدا
أتأمرني سعدى بأن أهجر الكرى ... وأعصي على طوعي لأجفانها سعدى
برئت إذن من صحبة الركب والسرى ... ولا عرفت إبلي ذميلا ولا وخدا
وليل طرقت الخدر فيه وللدجى ... عباب تراه بالكواكب مزبدا
أجاذب عطف المالكية تحته ... وأسحب من ضافي العفاف به بردا
نعمت بها والليل أسود فاحم ... يغازل منها الأسود الفاحم الجعدا
فلم أر أشهى من لماها مدامة ... ولم أر أذكى من تنفسها ندا
تبسم عما قلدته فاجتلى ... بمبسمها درا ولبتها عقدا

ويعبق رياها إذا هبت الصبا فيحمل عنها نشرها العنبر الوردا
سل الريح عن نجد تخبرك أنها معطرة الأنفاس مذ سكنت نجدا
وأن الغضا والسدر مذ جاورتهما بطيب شذاها أشبها البان والرندا(١)

وقد اتسم الغزل الأندلسي في عصر الطوائف ومن يليهم بالجمع بين المحبوبة والطبيعة واحتساء الشراب خاصة في فصل الربيع؛ لأن الأندلسيين كانوا يحبون التنزه بين الحدائق والأزهار، وهي كثيرة في تلك البلاد، لكثرة الأمطار والأنهار والعيون الجارية، ففي هذا الجو المعتدل الجميل يحلو لهم الغزل، فأكثروا منه. ومن أجمل أشعار الغزل في الأندلس قصائد ابن زيدون، يقول في إحدى قصائده:

هي الشمس مغربها في الكلل ومطلعها من جيوب الحلل
وغصن ترشف ماء الشباب ثراه الهوى وجناه الأمل
تهادى لطيفة طي الوشاح وترنو ضعيفة كسر المقل
وتبرز خلف حجاب العفاف وتسفر تحت نقاب الخجل
بدت في لدات كزهر النجوم حسان التحلي ملاح العطل
مشين يباهين روض الربى بيانع روض الصبا المقتبل
فمن قضب تتثنى بريح ومن قضب تتثنى بدل
ومن زهرات تندى بمسك ومن زهرات تندى بطل(٢)

وقد أحب ابن زيدون الأميرة ولادة بنت المستكفي حبا شديدا؛ لأنها كانت مثقفة شاعرة أديبة، حلوة الحديث، وكان لها منتدى بقرطبة يجتمع فيه الشعراء والأدباء والمثقفون يتناقشون في القضايا الأدبية والشعرية والاجتماعية

---

(١) المطرب في أشعار أهل المغرب ، ص ١٠٠ – ١٠١ .
(٢) ديوان ابن زيدون ، تحقيق علي عبد العظيم . طبعة نهضة مصر بالقاهرة ، ١٩٨٠ م ، ص ٤١٧ – ٤١٩ .

والسياسية، وقد أعجبت ولادة بابن زيدون وبادلته الحب، وكتبت إليه رسائل شعرية وأجابها عليها، وقد روى المقري في كتابه "نفح الطيب" قصتهما، ودامت العلاقة مدة، ثم انقلبت إلى هجر، ومالت ولادة إلى ابن عبدوس، فحزن ابن زيدون، ونظم أجمل قصائده في الشكوى والعتاب، وكتب رسالته الهزلية نثرا في هجاء غريمه ابن عبدوس، ومن قصائده نونيته الشهيرة التي مطلعها:

أضحى التنائي بديلا عن تدانينا   وناب عن طول لقيانا تجافينا(١)

وهي قصيدة جميلة من عيون الشعر العربي كله، ويراها بعض المستشرقين أجمل الشعر الأندلسي، ويقارنون بينها وبين بعض قصائد لشعراء غربيين.

وتغزل بعض شعراء الأندلس بالنصرانيات من بنات أولئك الأندلسيين المسيحيين الذين عاشوا وسط المسلمين، واحتفظوا بدينهم، وقد وصل إلينا بعض تلك الأشعار، وأعظم من يشار إليه من شعراء الأندلس في هذا الموضوع، هو ابن الحداد الذي أحب جميلة، وهي فتاة نصرانية، وكان يسميها في شعره نويرة غير أنه لم يتزوجها ؛ يقول فيها :

ورأت جفوني من نويرة كاسمها   نارا تضل وكل نار ترشد

والماء أنت وما يصح لقابض   والنار أنت وفي الحشا تتوقد(٢)

ويقول أيضا :

عساك بحق عيساك   مريحة قلبي الشاكي

فإن الحسن قد ولا   ك إحيائي وإهلاكي

وأولعني بصلبان   ورهبان ونساك

ولم آت الكنائس عن   هوى فيهن لولاك

---

(١) ديوان ابن زيدون ، ص ١٤١.

(٢) الذخيرة، ق ١، ج ٢ ، ص ٥٣٧ .

وهـا أنـا منـك فـي بلـوى ولا فـرج لبلـواك
ولا أسـتطيع سلـوانا فقـد أوثقـت أشـراكي[١]

وظهر اتجاه آخر في شعر الغزل بالأندلس هو التشبيب بالذكران، ولا شك أن هذا النوع من الغزل مناف للطبيعة، ولكنه تأثر بالشعر العباسي، فإن قصائد أبي نواس وأصحابه الماجنين قد انتقلت إلى الأندلس، وأعجب بها بعض الشعراء هناك ومنهم ابن شهيد، فنظموا فيها قصائد ومقطعات، ومن المؤكد أن الشعر العربي لم يعرف الغزل بالذكران قبل العصر العباسي؛ ولذا يراه العلماء والنقاد أثرا من آثار الحضارات التي تغلب عليها العرب، فانتقلت إليهم، لأن الغزل بالمذكر كان في الأدب الفارسي القديم، وفي الأدب اليوناني وغيره.

كان الشعراء يصفون الغلمان بأوصاف النساء، فالوجه كالبدر، والقد كالغصن، والردف كالكثيب، والأسنان كاللؤلؤ، والشعر كجناح الغراب، والريق عطر لذيذ، إلى غير ذلك من الصفات الحسية، ثم يصفون ما يلاقونه من عشقه، أي من الألم والجوى، وإذا لم يذكر الشاعر العذار، وهو أول ما ينبت من شعر اللحية على خدود الفتيان عند البلوغ فإن القصائد يمكن أن تكون غزلا بالنساء، إذ إن العرب تستخدم ضمير المذكر كثيرا، وهي تتحدث في شعرها عن الحبيبة.

وينبغي أن نعلم أن هذه القصائد لا تخرج في معظمها عن حد التعبير اللفظي؛ فلا صلة لها بالانحراف الجنسي، كما حاول بعض الباحثين أن يستنبط منها؛ لأن الشعر خيال، صحيح أن بعض الشعراء كان منحرفا؛ وهذا من قبيل الاستثناء الذي يثبت القاعدة. ونحمد الله أن الشعر الحديث قد ابتعد عن هذا الموضوع الذي ينافي الدين، ويضاد الطبيعة التي أنشأها الله من ذكر وأنثى.

---

(١) السابق، ص ٥٣٩ .

كان الشاعر أبو القاسم عامر بن هشام يتغزل في صبي، فعلم أبو الصبي، فخشي على ابنه، فحلق شعره ومنعه من الخروج، ثم تركه يخرج بعد مدة، فأنشد هذا الشاعر عندما رآه:

صفح السرار عن القمر وبدا وقد كان استتر
كتب السرور لناظري لما رآه قد ظهر
هذا أمان للجفون من المدامع والسهر (١)

ويقابل هذا التيار اللاهي تيار آخر من الزهد، يتجه فيه الشاعر إلى الله، فينظم أشعارا في التوبة والاستغفار، وهذا يندرج تحت الشعر الديني في الأندلس.

٣- شعر التصوف:

ينبع الشعر الديني من العاطفة الروحية، فالإنسان في داخله نفس تميل إلى خالقها، وتبحث عن طرق السعادة في جنابه، ولذلك لاقت الأديان قبولا عند الناس، وإن كان بعضهم يحاول أن يجحدها، وكان الأندلسيون شديدي التمسك بالدين رغم انحراف بعضهم أحيانا، فكانوا يحفظون القرآن أو ما تيسر منه، وكانوا يدرسون الحديث النبوي، وكان منهم حفاظ كبار كبقي بن مخلد، وأبي عمر بن عبد البر، وابن العربي الفقيه... وكثير سواهم.

وإذا نظرنا في مجموع الأشعار الدينية وجدناها تضم ثلاثة أنواع ؛ الأول: الزهد، والثاني: مدح الرسول ﷺ والثالث: التصوف.

كان المجاهدون الأوائل الذين فتحوا الأندلس زاهدين، فكانوا يكتفون بالقليل من العيش، وكانوا يحرصون على الشهادة في سبيل الله؛ لينالوا الحسنى، وجهادهم كان لنشر دين الإسلام، وهذا الزهد كان معتدلا، أى إنهم

---

(١) المغرب في حلى المغرب ، لابن سعيد ، تحقيق د / شوقي ضيف ، دار المعارف بالقاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٨ م ، ج ١ ، ص ٧٦ .

يزهدون فيما حرم الله، ويبدو هذا الزهد أيضا بين طبقة علماء الدين؛ والذين قرضوا الشعر منهم كانوا يركزون على الزهد، وذم الطمع والحرص على الدنيا، واشتهر جماعة منهم حتى إن ابن بشكوال ألف كتابا عن هؤلاء الزهاد، ولكن الكتاب ما زال مفقودا.

وبعض الأمراء الأمويين كانوا زهادا، وقد وصلت إلينا من أشعارهم عدة مقطعات، ومنها أشعار الأمير عبد الله، يقول في قطعة منها:

أرى الدنيا تصير إلى فناء   وما فيها لشيء من بقاء
فبادر بالإنابة غير لاو   على شيء يصير إلى فناء
كأنك قد حملت على سرير   وصار جديد حسنك للبلاء
فنفسك فابكها أو نح عليها   فربتما رحمت على البكاء[1]

ففكرة الفناء أو زوال الدنيا من الأفكار المسيطرة على شعر الزهد، يعرضها كل شاعر بأسلوبه الخاص، ثم تأتي النصيحة بالتوبة والرجوع إلى الله. وتصور الشعراء الزهاد للموت يجعلهم يوجهون نفوسهم ومن يخاطبون إلى الاجتهاد في العبادة، والندم على ما مضى من عمرهم دون جد في الخير.

يقول الزاهد أبو عمران موسى بن عمران المارتلي :

إلى كم أقول ولا أفعل   وكم ذا أحوم ولا أنزل
وأزجر عيني فلا ترعوي   وأنصح نفسي فلا تقبل
وكم ذا تعلل لي ويحها   بعل وسوف وكم تمطل
وكم ذا أؤمل طول البقا   وأغفل والموت لا يغفل
وفي كل يوم ينادي بنا   منادي الرحيل ألا فانزلوا
أمن بعد سبعين أرجو البقا   وسبع أتت بعدها تعجل

---

(١) الحلة السيراء ، ج ١ ، ص١٢٢.

كأن بي وشيكا إلى مصرعي   يساق بنعشي ولا أمهل
فيا ليت شعري بعد السؤال   وطول المقام لما أنقل[١]

يؤنب الشاعر نفسه على أنه يتكلم وينصح غيره وهو لا يعمل بما يقول، وهو يدور حول الأفعال الطيبة ولا يأتيها، ويرشد عينه إلى البعد عما لا يحل، ولكنها تنظر، وكذلك نفسه تأبى النصيحة، وتتجه إلى الشهوات والأهواء، وتتعلل بأنها سوف تتوب، وتمر الأيام والليالي، ولا يتم ذلك. وحب الحياة أمل دائم في قلبه مع أنه يرى الراحلين من حوله كل يوم، وفيه إشارة وتنبيه له، كأن داعي الموت يدعوه، وقد بلغ سبعا وسبعين سنة، وهو لذا يتوقع الموت، ويود أن يعرف مصيره بعد السؤال في القبر، هل إلى جنة نعيم أو إلى نار جحيم؟ ولا ريب أن هؤلاء الزهاد يبالغون في تصور آثامهم، ويكثرون من لوم أنفسهم، كي تتواضع فلا تطغى، ولا تغتر بالعبادة، فالغرور أسوأ ما يصاب به الإنسان. وكان أبو إسحاق الإلبيري شاعرا زاهدا، أكثر من النظم في هذا الموضوع، وقد وصل إلينا ديوانه. يقول في قصيدة زهدية طويلة:

تفت فؤادك الأيام فتا   وتنحت جسمك الساعات نحتا
وتدعوك المنون دعاء صدق   ألا يا صاح أنت تريد أنتا
أراك تحب عرسا ذات غدر   أبت طلاقها الأكياس بتا
تنام الدهر ويحك في غطيط   بها حتى إذا مت انتبهتا
فكم ذا أنت مخدوع وحتى   متى لا ترعوي عنها وحتى[٢]

---

(١) المغرب ، ج ١ ، ص ٤٠٦ – ٤٠٧ .

(٢) ديوان أبي إسحاق الألبيري، تحقيق د / محمد رضوان الداية، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ص ٢٥ .

ونلحظ أن الشاعر يجرد من نفسه مخاطبا يخاطبه بهذا الحديث، وهو لا يقصد إلا نفسه، وكان الأندلسيون يحفظون هذه القصيدة، لجمال نظمها، وحسن موسيقاها، وكثرة معانيها.

وظهر في الشعر الديني بالأندلس مدح النبي ﷺ وفشا في عصر الموحدين والغرناطيين، وكان ابن جابر من أعظم الشعراء الذين أنشدوا القصائد في مدح الرسول، وله بديعية جميلة في مدحه ﷺ. ولما احتفل الفاطميون في مصر بمولد النبي ﷺ انتقل أثر ذلك إلى الأندلس، ثم احتفل الأندلسيون بالمولد كذلك، وكان في هذا الاحتفال رد فعل لاحتفال النصارى بميلاد عيسى بن مريم، وكان سلاطين غرناطة يعنون بالمولد عناية كبرى، فيرصدون الجوائز للشعراء والوشاحين الذين يحسنون نظم المدائح النبوية والتغني بها. وفي دواوين شعراء غرناطة خاصة نجد قصائد طويلة بعنوان مولديات، نظموها في هذه المناسبة الجليلة.

وتتألف المولديات أو المدائح النبوية من عناصر فكرية عامة، منها إرهاصات النبوة، ومعجزات الرسول، وشمائله الكريمة، وتغييره العالم من جاهلية جهلاء إلى إيمان وإسلام وإحسان، وتسوية بين الناس، فلا تمايز إلا بالتقوى، ثم حنين إلى زيارة قبر المصطفى، واستشفاع به، لاسيما إذا اشتد ضغط الكاثوليك والأوروبيين عليهم. وتختم المولديات بالصلاة والسلام على النبي ﷺ وآله. وكل شاعر يتفنن في استخدام هذه الأفكار، ويضعها في أسلوب جميل أخاذ.

وبعض سلاطين بني الأحمر كانوا شعراء، فقرضوا الشعر في المدائح النبوية، والمطلع على ديوان يوسف الثالث يجد فيه عددا من المولديات الرائعة.

يقول ابن زمرك في إحدى مولدياته:

يا ليت شعري هل أرى أطوي إلى قبر الرسول صحائف البيداء
فتطيب في تلك الربوع مدائحي ويطول في ذاك المقام ثوائي

حيث النبوة نورها متألق كالشمس تزهى في سنا وسناءِ
حيث الرسالة في ثنية قدسها رفعت لخير الخلق خير لواءِ
حيث الضريح ضريح أكرم مرسل فخر الوجود وشافع الشفعاءِ
المصطفى والمرتضى والمجتبى والمنتقى من عنصر العلياءِ
خير البرية مجتباها ذخرها ظل الإله الوارف الأفياءِ [(١)]

وأبدع الشعراء مسمطات وموشحات كثيرة في مدح النبي، وكذلك مخمسات ومعشرات، عشرة أبيات على كل حرف من حروف المعجم في مدحه.

والأشعار الصوفية نوع من الأشعار الدينية، وقد فشا هذا الاتجاه الصوفي خلال عصر الموحدين والغرناطيين، والقضايا البارزة في تلك القصائد والمقطعات الصوفية قضية الحب الإلهي، وحب الرسول، ووصفه بالنور، والشوق إلى الأماكن الطيبة، في مكة والمدينة، والهيام بآثار النبي، وكان للشاعر ابن الفارض المصري الذي يلقب بسلطان العاشقين تأثير كبير على صوفية الأندلس، وقد وصل ديوانه إليهم، فقرأوه، ودرسوه، ونسجوا على منواله.

ومن المشهورين بالتصوف في الأندلس، محيي الدين بن عربي، الذي نظم قصائد عديدة، كلها رمزية صوفية، جمعت في ديوان ضخم، ولا بد لقارئها من معرفة المصطلحات الصوفية؛ لأنه لا بد من تأويل هذه الأشعار، إذ إنه لم يجد لغة خاصة يعبر بها عن أشواقه، فاستخدم في نصوصه لغة الحب العذري، فتجد في نصوصه سعدى وليلى وسلمى، وترى الخمر والخمار والسكر، وتجد البان، والحمام ورضوى، والغضا، والهوى والعشق والجنون، والحب والفناء، وغيرها من الألفاظ الواردة في الشعر العربي، ويستحيل أن تؤخذ على ظاهرها، وإنما لا بد من تأويلها.

ومن الشعراء الصوفية في الأندلس أبو الحسن الششتري، وله ديوان رائى

---

(١) نفح الطيب ، ج ٧ ، ص ١٨١ .

فيه قصائد وأزجال وموشحات، وكان يغنـي بشـعره وأزجالـه وموشـحاته الدراويش، واشتهرت حتى عبرت إلى الشرق.

ومنهم كذلك ابن العريف، وهو مشهور بالزهد، إلا أن شـعره صـوفي، وهو معتدل في تصوفه، حسن التعبير عن عواطفه وأفكاره، يقول في قطعـة من شعره:

سلوا عـن الشـوق من أهـوى فـإنهم ... أدنى إلى النفس من وهمي ومن نفسي
ما زلت مذ سكنوا قلبـي أصـون لهـم ... لحظي وسمعي ونطقي إذ هـم أنسـي
وفي الحشا نزلـوا والـوهم يجـرحهم ... فكيف قروا على أذكـى مـن القـبس
حلوا الفؤاد فمـا أنـدى ولـو وطئـوا ... صخرا لجـاد بمـاء منـه منـبجس
لأنهضـن إلـى حشـري بحـبهم ... لا بارك الله فـيمن خـانهم فنسـي(١)

---

(١) نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

ملخص الوحدة الثالثة



طبيعة الأندلس جميلة ومتنوعة، كثيرة الأشجار والثمار، والأزهار والنوار، والأنهار والأمطار والبحار، وهي تختلف عن جزيرة العرب الصحراوية الجافة؛ ولذلك أتت أشعار الأندلسيين في وصف الطبيعة متنوعة وجميلة، فقد وصفوا الأنهار وماءها، والأشجار وثمارها، والأطيار وأشكالها وغناءها، ووصفوا الجبال وكثبانها، والبحار وأمواجها وأسماكها وأخطارها. ووصفوا الفصول المختلفة خاصة فصل الربيع، وبثوا في تعبيراتهم أحاسيسهم، ووقفوا وقفات متأملة أمام الطبيعة كما نرى في شعر ابن خفاجة، خاصة قصيدة وصف الجبل ووصف القمر. ومثلما فعل ابن الزقاق، ومن قبلهما يوسف بن هارون الرمادي، ووصفوا المصنوعات التي أبدعها الأندلسيون كأدوات الترف من آنية الطعام والشراب، وأدوات الزينة والملابس، والقصور والحمامات والقناطر والنوافير والنواعير والشموع والأقلام ... وغيرها.

هذه الطبيعة الثرية أرهفت شعور الأندلسيين ، وجعلتهم يتأملون الجمال، ويحبون النظافة ولا سيما المرأة، فنشأ الغزل وهو ذكر محاسن النساء ووصفهن، وقد أكثروا من الغزل؛ لجمال النساء الأندلسيات، وعنايتهن بالعلم والثقافة، وقد كتب عنهن ابن الخطيب كلمة حسنة في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة". وينقسم الغزل الأندلسي إلى قسمين: الغزل العفيف، وكان معظم الشعراء الأندلسيين يسلكون في غزلهم هذا المسلك، مثل الشاعر الغزال، وابن عبد ربه وعبد الرحمن الأوسط وابن زيدون وابن خاتمة. والغزل الحسي وهو الذي يعنى بالأوصاف المادية لجسم المرأة، وبذكر المغامرات العاطفية، وأعظم من يشار إليه في هذا الجانب ابن شهيد. وبعض الشعراء كان يمزج الغزل العفيف ببعض النعوت الجسدية، كبياض الوجه وسواد الشعر واستقامة القد، ولكنهم لا يفحشون.

وفي مقابل شعر الغزل يأتي شعر التصوف، ولم ينشأ في الأندلس في عصر الولاة ولا في العصر الأموي، وإنما كان في ذلك العصر زهاد ينظمون في الزهد كالأمير عبد الله، وابن عبد ربه الذي اخترع "الممحصات" أو "المكفرات" وهي قصائد في الزهد عارض بها قصائده في الغزل الذي نظمه في شبابه، كأنه قد كفر عن ذنوبه بها. واستمر الزهد كما يظهر في شعر ابن حزم وأبي إسحاق الإلبيري، وقد ظهر الشعر الصوفي وانطلق من هذا الزهد، لكنه ارتبط بقضية الحب الإلهي، وحب النبي ﷺ ومزج الشعراء بهذا الشعر شيئا من الفلسفة، وأكبر شعراء التصوف في الأندلس محيي الدين بن عربي وأبو الحسن الششتري، وابن العريف وابن سبعين المرسي. وكثر المديح النبوي خاصة في العصر الغرناطي، وصار الأندلسيون يحتفلون بالمولد النبوي، وينشدون قصائد في مدح الرسول ﷺ ، وكان سلاطين غرناطة يكافئونهم عليها. وأهم من مدح النبي الشاعر ابن الجنان ويوسف الثالث سلطان غرناطة وابن الخطيب وابن زمرك.

أسئلة تقويمية على الوحدة الثالثة

س١: حدد المصطلحات الآتية: الوصف – الغزل – التصوف – الممحصات.

س٢: لماذا انتشر شعر الطبيعة في الأندلس أكثر من المشرق؟

س٣: ما أنواع شعر الغزل في الأندلس؟ ومن أهم شعرائه؟

س٤: متى ظهر شعر التصوف في الأندلس؟ وما الفرق بينه وبين الزهد؟

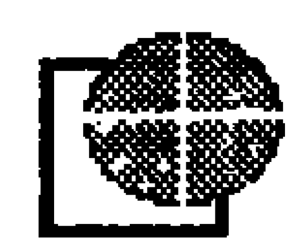
س٥: اذكر أثر احتفال الأندلسيين بالمولد النبي على الشعراء الأندلسيين.

إجابة بعض أسئلة الوحدة الثالثة

ج٤ – ظهر شعر التصوف في الأندلس في عصر متأخر هو عصر الموحدين، ويعد هذا تطويرا لشعر الزهد الذي ظهر في عهد بني أمية، ولكنه امتزج بشيء من الفلسفة.

والفرق بينه وبين شعر الزهد هو أن شعر الزهد يعتمد على ذم الدنيا، وتذكر الموت، ولوم النفس لاتباعها الشهوات. وأما شعر التصوف فيتركز على الحب الإلهي، وحب النبي محمد، والخيال فيه أعمق من الخيال الموجود في شعر الزهد.

وهناك فرق آخر وهو اللغة التي يستخدمها الشعراء، فشعراء الزهد يستخدمون لغة واضحة، بيانها قريب، وهدفها جلي. وأما شعراء الصوفية فيستعملون رموزا عجيبة معظمها مستمد من شعر الغزل العفيف، خاصة شعر مجنون ليلى وجميل بثينة وكُثَيِّر عزة. وكذلك نجد فيه ألفاظ الخمر والسكر والهوى والعشق كثيرة، مما جعل بعض الناس ينفرون منه، غير أننا يجب أن نعرف أن الصوفية لم يجدوا لغة مستقلة يعبرون بها عن وجدهم؛ ولذا وجب تأويل أشعارهم على أحسن الوجوه.



الوحدة الرابعة

شعر الاستنجاد وشعر مأساة ابن عباد

الأهداف السلوكية:

١- الهدف المعرفي :

- أن يتعرف الطالب على هذا النوع من الشعر وعلاقته بالصراع الدائم بين المسلمين والكاثوليك.
- أن يحيط الطالب بالعناصر التي يتكون منها شعر الاستنجاد وأهدافه.
- أن يتعرف على شاعر عظيم هو المعتمد بن عباد، ملك أشبيلية، ويفهم شعره خاصة بعد خلعه من الملك، وسجنه في المغرب.

٢ – الهدف الوجداني :

- أن يدرك العواطف السائدة في شعر الاستنجاد، والمشاعر الحزينة في شعر ابن عباد.

٣ – الهدف المهاري:

- أن يستنتج الدوافع التي أنتجت شعر الاستنجاد، وشعر المعتمد بن عباد، وأن يعرف كيف يحلله.

١- شعر الاستنجاد:

يعتبر الاستنجاد في الأدب الأندلسي واحدا من أروع فنونه وأكثرها حرارة وتأثيرا وصدقا؛ لأن الاستنجاد بالمسلمين وحثهم على فريضة الجهاد منحى حيوى في الأدب الأندلسي يصادف نداءً فطريا وإنسانيا عظيم الأبعاد، ويحشد تداعيات واسعة في النفس تتيقظ معها الأخوة الإسلامية، وتتجلى فيها مظاهر الطغيان والعدوان من أعداء الإسلام التى حكاها ربنا سبحانه وتعالى

حين قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[4]، لذلك أوجب الله التيقظ لهم والاستعداد الدائم لمواجهتهم وإبطال مكرهم وخداعهم فقال لرسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾[5] وقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[6] وحذر من التهاون معهم قائلا: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[7].

وقال لنبيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[8].

وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[9].

وقد جعل الله للمجاهد أعلى الثواب لقاء بذله النفس والمال في سبيله تعالى،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٢٠.

(٥) سورة الأنفال: الآية ٦٥.

(٦) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٧) سورة محمد: الآية ٤.

(٨) سورة التوبة: الآية ٧٣.

(٩) سورة التوبة: الآية ١٤.

وحذر ربنا جل وعلا من التهاون معهم والتخاذل أمامهم وموادعتهم قائلا : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١) واتهم المتخاذلين من المسلمين والخائفين منهم بضعف الإسلام وتدهور الإيمان وسماهم مرضى القلوب في قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾(٢).

وإن الصراع بين الخير والشر أو بين الإسلام وبين الكفر سيظل مشتعلا تخمد نيرانه استعدادات المسلمين وقوتهم وتأمين حوزتهم واجتماع كلمتهم وتسعر هذه النيران فرقة المسلمين وانقساماتهم وبعدهم عن منهج الله وتناحرهم على حطام الدنيا وكراسى الحكم، وهذه هى الآفة التى يلعب الكفر عليها دوره، فإن وجدها باركها ونماها؛ وإن لم يجدها شقها ووضع بذورها وأفاعيها وحفر أنفاقها وولغ فيها فتنا وعفنا لينهب الأرض ويسرق الخير ويقضى على الاختراع ويقتل كل بارقة أمل ويخنق هالات العلم والبطولة والتقدم تحت مسميات خبيثة كاذبة تسوغ ابتلاعنا في غيبة اليقظة والرجولة، ولا أعلم صراعا بين الإسلام وحضارته من جهة وبين الكفر والشر وحضارته من جهة أخرى امتد هذا الامتداد، فقد ظل على أرض الأندلس أكثر من خمسة قرون مشتعلا قبل أن ينتقل إلى المشرق في حلقات مختلفة الطلاء متحدة العطاء بصرنا بها ربنا وحذرنا إياها ومن أصدق من الله قيلا ؟ ! .

لقد ظهر الاستنجاد على خارطة الشعر الأندلسى عندما خرت الخلافة بعد أن ابتليت بخلفاء تافهين أتت بهم الوراثة ولم تأت بهم الشورى، فهبت ريح النصارى واشتعلت أطماعهم في دولة الإسلام وهذا مدخلهم الدائم عند تفككنا، وقاوم المسلمون هذه الأطماع. وكان شعر الاستنجاد أحد الأسلحة الخطيرة للمقاومة التى نجحت كثيرا في إغراء بر العدوة بعبور المضيق وإنزال هزائم

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٣٩.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٢.

منكرة بالكفر ونصر الإسلام واسترجاع دياره وتحرير المسلمين وحمايتهم، وسوف نجد أن إثارة الأخوة الإسلامية والنخوة العربية والنبل الإنسانى هى المرتكزات الإشعاعية التى وظفها الشاعر الأندلسى في استنجاداته، فآتت أكلها وفجرت مشاعر الدفاع عن حوزة الإسلام والمسلمين، ففتكوا بأعدائهم وأنزلوا بهم الويلات في كثير من الأحيان حين التقى الجمعان تلمسا لرضى الله تعالى وسعيا لجنة عرضها السماوات والأرض؛ لأن القتال يومها كان على العقيدة يريدها الأعداء صليبية بعد أن صارت الأندلس إسلامية، وقد توقع الأندلسيون ما حدث عندما ظهرت نذر الشر في المجتمع الأندلسى، وحذر الكثيرون من هذه النذر وعواقبها المهلكة، وهذه بعض تحذيراتهم: يقول أبو مروان بن حيان بعد ضياع مدينة بَربَشْتَر: "ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين قلما تتنافر أشكالهم، بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يردون، فقد خص الله هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا هذين بما لا كفاية له ولا مخلص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذيادا عن الجماعة وحَوْشا إلى الفرقة والفقهاء أئمتهم صموت عنهم صدوف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم قد أصبحوا بين آكل حلوائهم خائض في أهوائهم وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية في صدقهم وأولئك هم الأقلون فيهم.

فما القول في أرض فسد ملحها الذى هو المصلح لجميع أغذيتها وإن أصبحت بصدد من خيالها، هل هى إلا مشفية على بوارها واستئصالها، ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء(١)".

وممن نبهوا إلى علاج الداء قبل استفحاله خلف بن فرج الألبيرى المعروف بالسميسر هذا الشاعر الذى أفزعه تقارب الحكام مع النصارى وترك الرعية فقال:

---

(١) ابن بسام "الذخيرة"، القسم الثالث، المجلد الأول، تحقيق د/ إحسان عباس، ص ١٨٠-١٨١ ، ط ليبيا ، سنة ١٩٧٨ .

رجونــاكم فمــا أنصــفتمونا وأملنــــاكم فخــــذلتمونا
سنصبر والزمــان لــه انقــلاب وأنــتم بالإشــارة تفهمونــا[1]

ثم يخاطب حكام الأندلس حين استعانوا بالنصارى وأمنوا جانبهم :

نــاد الملــوك وقــل لهــم مــاذا الــذى أحــدثتم
أســلمتم الإســلام فــي أســر العــدا وقعــدتم
وجــب القيــام علــيكم إذ بالنصــارى قمــتم
لا تنكــروا شــق العصــا فعصــا النبــى شــققتم[2]

ويحدد عبد الجبار في أرجوزته العورات التى نفذ العدو منها إلى الأندلس أيام ملوك الطوائف فيقول :

ثــم تمــادت هــذه الطوائــف تخلفُهــم مــن آلهــم خوالــف
دانت بــدين الجــور والعــدول إذ ســلبت عقائــل العقــول
فــأهملوا الــبلاد والعبــادا وعطلــوا الثغــور والجهــادا
واشــتغلت أذهــانهم بــالخمر وبالأغــانى وســماع الزمــر
وزادهم فــي الجهــل والخــذلان أن ظــاهروا عصــابة الصــلبان
لما طوت صــدورهم مــن غــل ولاختيــار الــبعض حــال الكــل
فاستولت الــروم علــى الــبلاد واســتعبدوا حرائــر العبــاد[3]
وقتلــوا الرجــال كيــف شــاءوا وضــاع دلــو الــدين والرشــاء

وقد شرح البسطى – أواخر العصر الغرناطى – الكثيــر مــن مظــاهر الفساد؛ مثل: فساد القضاء والقضاة وفساد الخطباء والعلماء وفساد أهل التوثيق

---

(١) السابق، القسم الأول، المجلد الثانى، ص ٨٨٥ .
(٢) السابق نفسه .
(٣) السابق، ص ٩٤٣ .

والعدالة والصيارفة، وتفشى الجهل والرشوة وظلم العباد مما لا يرضى الله ويؤذن بالزوال، فقد ذكر من القضاة المنحرفين الكثير من أمثال ابن مفضل وابن الأحول وابن القاسم وابن رقبة ومحمد المغربى وأبى حامد بن الحسن... وغيرهم. وبحسبنا ضياع الحقوق وتشجيع الظلم لدى القضاة، يقول عن القاضى ابن مفضل:

تبا لقاضى بسطة ابن مفضل — تبًا له فيه يروح ويغتدى
فلقد أتى من حكمه بعجائب — أمثالها في عصرنا لم تعهد
ويرى النكاح بلا صداق جائزا — رأى الغوى الجاهلى الملحد
ويغير الأحكام عما أصلت — تغيير جبار عنيد معتد[1]

ويعدد انحرافات أحد القضاة قائلا:

منع الجائز المباح رياء — والحرام المحظور شرعا أجازه
ومضى حكمه بذاك مضاء — ليس منه في نفسه من حزازه
واستوت عنده الحقيقة جهلا — مع ما أحكم الكتاب مجازه
يرتشى دائما ويبدى لمرش — عند لقياه هشة واهتزازه[2]

كما يصور جهل القاضى ابن الأحول وفساده فيقول:

عُدَدُ الطوالق إن يحضن حرائرا — جعل ابن أحول أربعين صباحا
فنكاحهن زنا عليه وزره — لعظيم ما بالجهل منه أباحا[3]

والحقيقة أن مظاهر الانحراف ونذر الشر لا تأتى في الأدب الأندلسى إلا على قلة، ربما لأن الأدباء اعتبروها مشهورة، وذكرها تحصيل حاصل،

---

(١) د/ محمد بن شريفة في كتابه: "البطى"، طبعة بيروت سنة ١٩٨٥ ، ص ١٩٤.

(٢) السابق، ص ١٨٧ .

(٣) السابق، ص ١٨٩ .

الراقع أو تجنبا لبطش السلطان بهم.

غير أن صوت الاستنجاد في شعر الجهاد كان الصوت الأعلى والأجدى فجاء غزيرا في الشعر الأندلسى حتى استقلت به بعض المؤلفات[١]. وقد تصدى لشعر الجهاد كوكبة من خيرة شعراء الأندلس حفظا لعزة الإسلام والمسلمين في ضوء العقيدة القتالية في الإسلام ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾[٣] ومن هذه الكوكبة أبو عبد الله محمد بن الأبار القضاعى وابن خفاجة وحازم القرطاجنى وابن سهل وابن عياش الوقشي وابن الخطيب وموسى بن هارون ومالك بن المرحل والفازازى وعبد الكريم القيسى وغيرهم الكثيرون، وكان ابن الأبار أكثر الشعراء حثا على الجهاد وإنقاذ الإسلام على أرض الأندلس، يقول ابن الأبار مستنجدا أبا زكريا الحفصى:

نادتك أندلس فلب نداءها ... واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية فاحبها ... من عاطفاتك ما يقى حوباءها
واشدُدْ بِجلبك جُرْد خَيلك أزْرَها ... تردد على أعقابها أرزاءها
هى دارك القصوى أوت لإيالة ... ضمنت لها مع نصرها إيواءها
وبها عبيدك لابقاء لهم سوى ... سبل الضراعة يسلكون سواءها

ويحث محمد بن عياش – ت ٦١٩هـ – قبائل بنى هلال بالمغرب على الجهاد[٤] بجانب إخوانهم في الأندلس فيقول :

---

(١) انظر على سبيل المثال: "شعر الجهاد في عصر الموحدين" للأستاذ شفيق الرقب، طبعة الأردن، سنة ١٩٨٤.
(٢) سورة التوبة: الآية ٤١ .
(٣) سورة التوبة: الآية ٣٩ .
(٤) ابن الأبار: الديوان، تعليق د/ عبد السلام الهراس، طبعة تونس، سنة ١٩٨٥، ص ٣٣ .

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحـل وقودوا إلى الهيجاء جرد الصـواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثـائر وشدوا على الأعـداء شـدة صـائل
فما العز إلا ظهر أجـرد سـابح يفوت الصبا فـي شـده المتواصـل
بنى العم من عليا هلال بن عامر وما جمعت من باسل وابـن باسـل
تعالوا فقد شدوا إلـى الغزونيـة عواقبهـا منصـورة بالأوائـل

ويشيد ابن خفاجة بأبى إسحق الموحدى أمير إشبيلية مطريا شـجاعته(١) وخفته لنجدة المسلمين فيقول:

وما السيف من كف الكمى مجـردا بأسطى وراء النقع منه وأسـطعا
دعا باسمه داعى الحفيظـة والنـدى فلبى على شرخ الشباب وأهطعـا
وهب كمـا هـب الحسـام شـهامة وعب كما عب الخضـم تبرعـا
وجر به ذيل الخمـيس ابـن غابـة تـردى غلامـا بـالعلا وتلفعـا
وداس العدا ركضا وأجرى إلى الوغى بأطوع من يمناه فعـلا وأطبعـا

أما الوقشى فيستصرخ بيوسف بن عبد المؤمن لينتصر للإسلام مجاهدا (٢) نصارى الأندلس فيقول :

ألا ليت شعرى هل يمد لـى المـدى فأبصر شمل المشـركين طريـدا
وهل بعد يقضى في النصارى بنصـره تغـادرهم للمرهفـات حصـيدا
ويلقى على إفرنجهم عـبء كلكـل فيتركهم فـوق الصـعيد هجـودا
يغـادرهم جرحـى وقتلـى مبرحـا ركوعا على وجه الفلا وسـجودا

وقد أنشد ابن طفيل ت سنة٥٦٦هـ بتكليف من عبـد المـؤمن قصـيدة

---

(١) المراكشي في المعجب ص ٢٢٥.

(٢) ابن خفاجة: الديوان، بيروت، دار صادر سنة ١٩٦١، ص ١٦٤.

معارضه[١] يندب فيها المغاربة على الجهاد ضد أعداء الدين وفيها:

أقيموا صدور الخيل نحو المغـــارب	لغزو الأعادي واقتنــاء الرغائــب
واذكوا المذاكى العاريات على العدا	فقد عرضت للحرب جرد السلاهب
ولا يبلـــغ الغايـــات إلا مصـــمم	على الهول ركاب ظهور المصاعب
فلا تقتضى الآمـــال إلا مـــن القنـــا	ولا تكتب العليـــا بغيـــر الكتائـــب
ألا فابعثوهـــــا همـــــة عربيــــة	تحف بأطراف القنـــا والقواضـــب
أفرسان قيس من هلال بـــن عـــامر	وما جمعت من قـــوة ومضـــارب
لكم قبـــة للمجـــد شـــدوا عمادهـــا	بطاعة أمر الله من كـــل جانـــب[٢]

وفي هذه القصائد الاستنجادية الخمس التى مـــرت بنـــا تتجلـــى تجربـــة الاستغاثة محورا تدور في فلكه خواطر الشعراء وتشتعل حميـــا الاستنصـــار برجالات الإسلام الأقوياء كأبى زكريا الحفصى وأبى إسحق الموحدى ويوسف ابن عبد المؤمن، ولكن إثارة نخوتهم تعتمد بشكل رئيسى على النجدة العربيـــة وأخوة العروبة وروح القبلية المتصلة بالجذور الأولى في الجزيرة العربية، أما أخوة الدين فهى نائية خافتة لا تكاد تظهر إلا مرة في آخر قصيدة.

وقد تلحظ أخوة الدين ونصرة الإسلام كخاطرة ترد عنـــد ذكـــر الآخـــر كالمشركين أو النصارى أو طواغيت الصليب، وربما فعل الشعراء هذا إغراء للأبطال بالجهاد وعزفا على أوتار الشهرة وذيوع الصيت وخلود الانتصارات وهى أمور سيرت الأحداث التاريخية إلى مدى بعيد، وغذت كبرياء العـــروش والتيجان في تلك الأيام.

إن ابن الأبار ركز في الأولى على بطولات أبى زكريا، وكان أقوى قواد

---

(١) د/ حكمت الأوسي: في الأدب الأندلسى في عصر الموحدين، طبعة الخانجى، مصر سنة ١٩٧٦، ص ١٢٢ .

(٢) السابق، ص ١٢١ .

زمانه يومها وأثار شهيته في تأديب الصليب ونيل شهرة ذائعة. ويستصرخ ابن عياش قبيلة بني هلال وعروبتهم ويمني الوقشي نفسه بهزيمة فادحة تشفي نفسه من الأعداء فيذكرنا بخواطر المتنبي وهو يصف معركة اللقان بين الروم وسيف الدولة يخاطبه قائلا :

شننت بها الغارات حتى تركتها ... وجفن الذى خلف الفرنجة ساهد
مخضبة والقوم صرعى كأنها ... وإن لم يكونوا ساجدين مساجد

وبهذا نرى جهارة صوت العروبة على حساب صوت الإسلام واضحة[1] جلية، وذيوع أساليب القتال وتعابيره على حساب الجهاد والاستشهاد ويمكن أن نطلق على هذا اللون من الاستنجاد مصطلح الاستنجاد القبلي، والاستنجاد على هذه النغمة يشكل القسم الأول أما القسم الثاني فتتبدل فيه نغمة الاستنجاد تهديدا ووعيدا بهزائم فادحة.

٢- تهديد النصارى ووعيدهم:

ويأتي ابن الأبار سابق هذه الحلبة وفارسها وهو بلا شك يشغل المساحة الكبرى في شعر الاستنجاد، ويمتلئ ديوانه بشعر الاستغاثة لنصرة الدين بين قصائد مستقلة بهذا الفن وأخرى جاءت في غيره، واحتل شعر الاستنجاد مساحة فيها، ففي عيد الأضحى لم يشغله العيد عن آلام أمته لسقوط إشبيلية حاضرة الثقافة وعاصمة الأندلس أيام بني عباد، فيأخذ في حث المرتضى على استرداد إشبيلية وهو يمدحه حتى يرضى ربه فيقول:

أذنت أرض العدا بافتتاح ... هل وراء الليل غير الصباح
ما عدوا أن هيجوا لافتراس ... وهم الذؤبان ليث الكفاح
قدحوا زند الوغى فاستحثوا ... من له فيها معلى القداح

---

(١) المتنبي: الديوان شرح العكبري، جـ١، ص ٢٧٣ ، اللجنة عن دار الكتب، بيروت .

لقحت حـربهم عـن حيـال[١] أنسـوا إلحـاقهم باللقـاح
إن للتوحيـد عزمـا صـحيحا يوسـع التثليـث كـر اكتسـاح
وعِّـدت أنـدلسُ منـه بيـوم هـى لاسـتقباله فـي ارتيـاح[٢]

وفي أخرى يهدد ابن الأبار طاغية الروم بزحف أبى زكريا قائلا :

إن يكـن طاغيـة الـروم بغـى فظبـى الهنـد لـه بالمرصـد
لم يكد لو كـان يـدرى غيـره فـي محابـاة هـوى لـم يكـد
غره البعد وعـن قـرب يـرى جزيـة الكفـر تـؤدى عـن يـد
سوف تغشاه الجِـوارى ملؤهـا مـلأ كالأسـد ذات اللبـد
كل شيحان تمطـى مـن مطـا أدهـم الصـبغة سـهل المقـود
يحسـب البحـر طريقـا يبسـا فهـو يجريـه كطـرف أجـرد
عـزة الجمعـة قـد ضـاعفها فارتـدى الذلـة أهـل الأحـد
وعلـى القـائم بالتوحيـد أن يقعـد التثليـث أدنـى مقعـد
صرخ النـاقوس يبكـى يومـه لتنـاهى عُـدد أو عَـدد
واقتـدى الرهبـان فـي ندبتـه بلبيـد فـي أخيـه أربـد[٣]

وهذه الاستنجادات الممزوجة بتهديد النصارى وهزيمتهم ثقة في جيـوش المسلمين وقوادهم كثيرة، ومن أراد الاستزادة منها لدى ابن الأبـار فليراجـع ديوانه[٤].

وهى طريقة مجدية لتفخيم الأبطال وإكبارهم حتى يهشوا للجهاد ويخفـوا

(١) اشتعلت فجاة بقوة .

(٢) ابن الأبار: الديوان، ص ١١٩ .

(٣) السابق، ص ١٥٢-١٥٣ .

(٤) انظر هذه القصائد فى : صفحات ٣٩٥/٢٧٢/٣٣٤/٢٠٧ .

للاستنجاد ويستشعرون ثقة الرعية المسلمة بكفاءتهم ومدى تجبر أعدائهم وعدم وجود ملجأ بعد الله إلا لهم بالإضافة إلى تذكيرهم بفريضة الجهاد.

٣- السخرية من القاعدين عن الجهاد :

وهى طريقة تستفز الهمم الكسلى وتدفع دم الجهاد في العروق يقول الفازازى :

الروم تضرب في البلاد وتغنم والجور يأخذ ما بقى والمغرم
والمال يورد كله قشتالة والجند تسقط والرعية تُسلم
أسفى على تلك البلاد وأهلها الله يلطف بالجميع ويرحم[١]

يحكى المقرى أنها وجدت مكتوبة على ورقة في جيب محمد الفازازى يوم موته، فالشاعر يأسى على الأندلسيين حين أسلمهم قوادهم وضعفوا أمام العدو الذى استبسل في الإيقاع بهم فأخذ البلاد بما فيها، وبالرغم من ذلك فإن جور حكام المسلمين وضرائبهم لم ترحمهم ولم تدعهم وبلاءهم. لقد نقل الشاعر صورة للإحباط والصدمة النفسية والحيرة العاجزة للمسلمين.

ومن العجيب أن سلطان بلد الشاعر عندما قرأ الأبيات قال – بعدما بكى –: "صدق رحمه الله تعالى ولو كان حيا ضربت عنقه"[٢].

وقال آخر:

بالطبل في كل يوم وبالنفير نراع
وليس من بعد هذا وذاك إلا القراع
يا رب جبرك يرجو من هيض منه الذراع
لا تسلبنّى صبرا منه لقلبى ادّراع[٣]

---

(١) المقرى: نفح الطيب ٤/٤٦٧ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) السابق ٤/٥٥٠ .

لقد نقل هذا الشاعر لوحة للتمزق الذى عاناه الأندلسيون وكشف أن الثغور أضحت مكشوفة بلا حماية ولا مدافع عن البلاد والعباد إلا الله وإليه الملجأ في الصبر على البلاء.

ويقول البسطى عن أبى العلاء الملقب بالمأمون في العصر الغرناطى إنه أمام سقوط الأندلس لم يفعل غير التفكير في الهروب منها فيقول :

بوقعة عفص وطليطلة ... تكامل إقبال أيامنا
فبالغرب تلك وبالشرق ذى ... أناخا على شم أعلامنا
وفي وسط الأرض قيجاطة ... ولوشة خفا بأحلامنا
وليس الصليب يُرى قانعا ... بغير تواتر إعدامنا
وسيدنا ناظر في الجواز ... يروم النجاة بإسلامنا(١)

ويقول شاعر في سقوط بطرنة ساخرا هازئا من غفلة المسلمين عن الجهاد:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم ... حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها ... لو لم يكن ببطرنة ما كانا(٢)

أما ابن عاصم الغرناطى فقد استسلم للمقادير حين يأس وقنط عندما وجد بلاده وأهلها دون حماة، فوكل الأمر لله تعالى، ويقول عندما نزل النصارى مرج غرناطة :

رويدك فارقب للطائف موضعا ... وخل الذى من شره يُتَوقع
وصبرا فإن الصبر خير غنيمة ... ويا فوز من قد كان للصبر يرجع
وثب واثقا باللطف من خير راحم ... فألطافه من لمحة العين أسرع

---

(١) د / محمد بن شريفة في كتابة البسطى، ص ١٧٧ .

(٢) المقرى: نفح الطيب ٤٤٨/٤ .

وإن جاء خطب فانتظر فرجا لـــه فسوف تراه في غد عنــك يرفــع
وكن راجعا لله فـــي كـــل حالـــة فليس لنـــا إلا إلـــى الله مرجـــع(١)

وهكذا يمتزج التهكم والسخرية بالحسرة التى تقطع الأكباد على تخـــاذل هؤلاء الحكام الذين فرطوا في الجهاد وقعدوا عن الدفاع عن وطنهم ورعاياهم بعد أن نسوا الله فنسيهم واستخف بهم العدو ونهب أرضهم وأكل خيرهم فأذلهم فما الذى تفعله الرعية؟ ولمن تلجأ في بلائها وتدميرها؟ لا مناص من الصـــبر حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.

وقد تمشت في هذه التجارب عاطفة التقريع والسخط وبرزت المرارة من خلالها عندما لم يعدوا لأعدائهم ما استطاعوا من قوة وتقهقروا أمامهم فـــذلوا وأذلوا، وفي قول الشاعر: وسيدنا ناظر في الجواز في مقابل ســـقوط المـــدن الكبرى أسى وسخرية بلغت المدى كيف ساد علينا وهو جبان رعديد يرد على أخذ الأوطان بالهروب موليا الأدبار وإن إبراهيم بن خلف القريشى لا يملـــك عند سقوط وطنه إلا البكاء والحسرة فيقول:

ألا مســـعد منجـــز ذو فطـــن يبكـــى بـــدمع معـــين هـــتِن
جزيـــرة أنـــدلس حســـرة فلا غالـــب مـــن حقـــود الـــزمن
وينـــدب أطلالهـــا آســـفا ويرثى من الشعر ما قـــد وهـــن(٢)

٤- الاستنجاد الدينى:

وفيه يركن الشعراء في استنجادهم إلى الرابطة الإسلامية ويبثـــون روح الدين وعبقه في النص ويشيعون حس الجهاد خلال تجاربهم الشعرية؛ يقـــول مالك بن المرحل:

استنصـــر الـــدين بكـــم فأقـــدموا فـــإنكم إن تســـلموه يُســـلم
لاذت بكـــم أنـــدلس ناشـــدة رحـــم الـــدين ونعـــم الـــرحم

---

(١) المقرى: نفح الطيب.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، ٣٧٤/١.

وعندما يستنجد ابن الخطيب أبا عنان المرينى ومسلمى المغرب يقول :

أإخوتنا لا تنسوا الفضل والعطفا فقد كاد نور الله بالكفر أن يُطفا
وإذ بلغ الماء الزبا فتداركوا فقد بسط الدين الحنيف لكم كفا
وجاشت جيوش الكفر بين خلالها فلا حافرا أبقت عليها ولا ظلفا
أحاط بنا الأعداء من كل جانب فلا وزرا عنهم وجدنا ولا كهفا
فمن معقل حل العدو عقاله ومن مسجد صار الضلال به وقفا
وسيلتنا الإسلام وهو أخوة من الملأ الأعلى تقربنا زلفى
فهل ناصر مستبصر في يقينه يجير من استعدى ويكفى من استكفى
ومنتجز فينا من الله وعده فلا نكث في وعد الإله ولا خلفا
وهل بائع فينا من الله نفسه فلا مشتر أولى من الله أو أوفى
أفى الله شك بعدما وضح الهدى فكيف لضوء الصبح في الأفق أن يخفى(١)

إن الشاعر يضمخ النص بروح إسلامية بارزة موظفا آيات القرآن، وبيوت الله تحولت كنائس، وألفاظ القرآن: كالملأ الأعلى، وتقربنا زلفى، ومنتجز وعد الله، وبائع نفسه لله، وأفى الله شك؟ ومن شأن هذا التوفيق في توظيف التعبير المناسب أن يصادف توفيقا أكبر في استجابة القوى المؤثرة كقوة المرينيين هنا فهم حفظة للقرآن ومسلمون:

ويقول ابن الخطيب داعيا الروم إلى الكف عن الغرور فالنصر عليهم قريب إذ إن ما أحرزوه ليس إلا استدراجا وإملاء يعقبه الكيد المتين:

لا يغرر الروم ما نالوا وما فعلوا فإن ذلك إملاء إلى أمد
فللقلوب من الغماء منصرف بما تقدم في بدر وفي أحد

---

(١) ابن الخطيب في ديوانه: الصيب والجهام، ص ٦٢٨-٦٣٠ .

والعزم باد وصـنع الله مرتقـب والفتح منتظر إن لم يحـن فقـد[(١)]

ويقول الرندى مستغيثا باسم الإسلام للأندلسيين :

ماذا التقاطع في الإسـلام بيـنكم وأنـتم يـا عبـاد الله إخـوان
ألا نفـوس أبيـات لهـا هممـ أما على الخير أنصـار وأعـوان
يا من لذلـة قـوم بعـد عـزهم أحـال حـالهم كفـر وطغيـان
بالأمس كانوا ملوكا في منـازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبـدان[(٢)]

والاستجاد الدينى كان في مقدمة النداءات التى لباها حكام هـذا الزمـان لأنهم حماة الدين والوطن، وعلى عاتقهم وقعت مهمة الجهاد وحمايـة حـوزة المسلمين ومقاومة أعداء الدين، ولا يجد الشعراء في حثهم واستبطاء نصرتهم تثريبا كما يجد الحكام أنه لا ينبغى أن يشيحوا وجـوههم عـنهم أو يتبرمـوا بنداءاتهم الاستجادية.

وهكذا لعب الشعراء في تجاربهم على أوتار النفس بكل أصواتها لعلهم يجدون همة أو يبعثون عزيمة فاستخدموا أساليب مختلفة وطرقا متعـددة؛ لأن المعركة مع النصارى على أرض الأندلس طال أوارها وكانت أوروبا تغذى الحرب وتمد الإسبان بكل ما يحتاجونه من الرجال والعتاد، وكانت البابوية والقساوسة والتشكيلات الحربية للكنائس تشترك في المعارك ضد الأندلسيين، وقد كثر الاستنجاد عقب سقوط الخلافة الأموية وبدأت الاستعانة بالقوى الإسلامية في الشمال الإفريقى أيام الطوائف، والنفس الإنسانية تميل إلى المهادنة وتكره القتال ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ لذلك أعد الله أعظم الأجر للمجاهدين لقاء الصبر على الجهاد ونصرة الدين حتى لا تضيع البلاد والعباد وتزول الرسالات.

---

(١) السابق، ص ٤١٠ .

(٢) المقرى في: أزهار الرياض، ١/٤٧-٥٠ .

من هنا جاء الاستنجاد فنا صادقا جمع نداؤه القوى الإسلامية فقهرت العدو وكلفته غاليا من الجثث والهامات على كل شبر كان يتقدم عليه في أرض الأندلس، لكن الصراع الدنيوى بين القوى الإسلامية على حطام الدنيا واعتلاء العروش هو في الحقيقة كان أكبر البلاء الموصل للسقوط. ونجد أن هذه الاستنجادات قد طالت في العصور الأندلسية الأخيرة مثل سينية ابن الأبار القضاعى ومطلعها:

أدرك بخيلك خيلِ الله أندلسا　　　إن السبيل إلى منجاتها درسا(١)

فقد بلغت أكثر من ستين بيتا، وأكثر منها القصيدة التى مطلعها:

نادتك أندلس فلب نداءها　　　واجعل طواغيت الصليب فداءها

صرخت بدعوتك العلية فاحبها　　　من عاطفاتك ما يقى حوباءها(٢)

فقد قاربت التسعين بيتا.

وفي العصر الأخير نجد استنجاد العقيلى بالوطاسى في إفريقيا بمدينة فاس أيام أبى عبد الله المخلوع وفيها يبدأ العقيلى بقوله:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم　　　رعيا لما مثله يرعى من الذمم

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن　　　جار الزمان عليه جور منتقم

حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا　　　وأفظع الخطب ما يأتى على الرغم(٣)

وقد بلغت مائة وخمسة وعشرين بيتا، ويبدو أن الشعراء أحسوا فتور الهمم وطول الزمان وكثرة الاستنجادات فأطالوا وزادوا حتى تنجح سفاراتهم وتجدى أشعارهم في زمن قلت فيه الانتصارات وكثرت الفتن وتوالى سقوط

---

(١) ابن الأبار: الديوان، ص ٣٩٥-٤٠٠.

(٢) السابق، ص ٣٣-٤٠.

(٣) المقرى في كتابه: نفح الطيب ٥٢٩/٤.

المدن في يد النصارى بعد أن تجمعوا وتفرقنا وتقدموا وتأخرنا على حين كان الأمر على عكس هذا في عصور الطوائف وما قبلها.

٥- الإشادة بالجهاد والنصر:

كانت الإشادة بالنصر ومقاومة الصليب تكثر حين تكون اليد العليا للمسلمين وتقل أشعارهم في هذا الفن بذهاب ريحهم بالضعف والفرقة، وكان الشعراء لسان الفرحة التى تستشعرها الأمة، فهم يمجدون القواد المنتصرين ويطرون جندهم المجاهدين ويسخرون من المنهزمين مقارنين فيهم بين حالتين؛ الأولى: عند قدومهم مغرورين متكبرين، والثانية: عندما يتجرعون الهزيمة ويفرون مذعورين كالجرذان يذكرونهم بالمشركين أيام الإسلام الأولى في شكل تداعيات تسترجع انتصارات المسلمين الأوائل أيام بدر والأحزاب وفتح مكة وحنين ليتمكن الشعراء من تأصيل الجهاد في نفوس المقاتلين وتذكيرهم بقداسة المعارك مع أعداء الإسلام. يقول صاعد مهنئا ومشيدا بالمنصور عندما هزم الصليب في معركة جربيرة سنة ٣٩.هـ :

ووقفت في ثانى حنين وقفة فرأيت صنع الله يأخذ باليد
من فاته بدر وأدرك عمره جربير فهو من الرعيل الأسعد

ثم يقول :

غطى عليه المشركون فلم يكن في القوم إلا صخرة في فدفد
حتى تحصن بالملائكة التى حفته بين معفر ومرود[1]

لقد جاء النصر بعد صعُوبات وصعوبات ثم أشرق للمسلمين، فذكرنا حنينا عندما تحولت الدفة في النهاية للمسلمين.

---

(١) ابن الخطيب في كتابه: أعمال الأعلام، ص ٧٣ .

وفي قوله: "غطى عليه المشركون" ملمحان: الأول: أن المعركة مقدسة حق فيها الجهاد فهم يجاهدون المشركين – كما جاهدهم الرسول ﷺ وصحابته، فما أشبه الليلة بالبارحة، إنهم جند الله أعانهم على أعدائه. أما الثاني: فهو صبر المسلمين وجلادهم أمام أعدائهم الذين كانت لهم صولة في بداية المعركة وظهروا على الأندلسيين ثم تحولت الأمور تحول غزوة حنين فدارت الدائرة على الأعداء. ويقول عباس بن فرناس في انتصارات الأمير محمد المرواني:

فما كان إلا أن رماهم ببعضها ... فولوا على أعقاب مهزولة كشف

كأن مساعير الموالي عليهم ... شواهين جادت للغرانيق بالنسف

بنفسي تنانين الوغى حين جمعت ... إلى الجبل المشحون صفا على صف[١]

لقد صور الشاعر هجمة الأمير على العدو بكواسر أحاطت فجأة بفرائسها فمزقتها شر ممزق، فجند الأمير لا يهزمون، فهم كأفعوانات ضخمة أخذتهم بشدة جعلتهم يلوذون بالفرار؛ أما غزو المنصور لمملكة ليون فيقول فيه ابن دراج القسطلى.

وتركت أرض ليون وهى كأنها ... لم تغن بالأمس القريب ديارها

مرفوعة لك في العلا أعلامها ... لما غدت بك عافيا آثارها

شيع هواها حد سيفك عنوة ... أضحت وعقبى الانتقام قصارها

لقد تركها الأندلسيون يبابا خرابا ترف أعلام الإسلام فوقها[٢] وتفرش جثث الأعداء ساحاتها، وابن دراج يقدم أسباب الاستسلام واليأس ليصل إلى نتيجة المعركة على الأعداء، فلم يصرح بها بل صرح بلوازمها وهو الإعداد للانتقام، وهو تعبير مجازى طريف يجسم الهزيمة النكراء والاستسلام للأندلسيين والإقرار لهم بالنصر والانصراف للتفكير في الثأر لا غير.

وحين ينتصر الأمير عبد الله على ابن حفصون يشير ابن عبد ربه إلى

---

(١) ابن عذارى في: البيان المغرب، ١/٢ .

(٢) ابن دراج في: الديوان، ص ٤٠٩ .

نجاح الأمير في القضاء على الثورات فيقول:

هو الفتح منظوما على أثر الفتح   وما فيهما عهد ولا فيهما صلح
سوى أن صفحا جاء من بعد قدرة   وأحسن مقرون إلى قدرة صفح

يصور الشاعر مكانة الأمير فهو يملك النصر ويتفضل على الثائرين بالعفو ولكن عن مقدرة ويواصل الفتوحات مجاهدا.

ويبشر المعتمد بن عباد يوسف بن تاشفين بالانتصارات يوم الزلاقة، وقد كان ما بشر به، فهو يقول:

غزو عليك مبارك   في طيه الفتح القريب
لله سيفك إنه   سخط على دين الصليب
لا بد من يوم يكو   ن له أخ يوم القليب(١)

إن روح الإسلام تنفث في هذه الأبيات، فهو "فتح قريب" والجهاد لله لا لدنيا "لله سيفك" مما يقلق الصليبيين الذن يخشون هذا النوع، إنها بدر أخرى واختيار القليب يوحي بمصير الأعداء الأسود في الدنيا والآخرة حين يقذفون قتلى كما قذف المشركون في قليب بدر.

وعقب المعركة يقول المعتمد ليوسف :

ولولاك يا يوسف المتقى   رأينا الجزيرة للكفر دارا
رأينا السيوف ضحى كالنجوم   وكالليل ذاك الغبار المثارا
تزيد اجتراء إذا ما الرما   ح عند التناجز زدن اشتجارا
ستلقى فعالك يوم الحسا   ب تنثر بالمسك منك انتشارا
وللشهداء ثناء عليك   بحسن مقامك ذاك النهارا(٢)

إن معركة الزلاقة مقدسة، ولمن شهدها أجر المجاهدين والشهداء لأنها

---

(١) المعتمد في: الديوان، ص ٥٣ ، مصور عن نسخة دار الكتب سنة ١٩٩٧ .

(٢) السابق، ص ٩٧ – ٩٨ .

أزاحت الصليبيين الطامعين في تكفيرها، إن أجرها يوم الحساب لعظيم، وعندما يصور جرأة يوسف يراها تشتعل باشتعال المعركة فيذكرنا بوصف بشار للقتال حين قال :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجاءة إننا بنو الموت خفاق علينا سبابسه

وعندما يهزم النصارى بقيادة رذمير يصف ابن خفاجة هزيمتهم فيقول :

فحمت حريم المسلمين مصارع تركت حريم المشركين مباحا
مسود ساحات المنازل وحشة مملوء أفنية الديار نباحا
تأتي صقور منهم منقضة قدرا على نهج العدو متاحا[١]

يصور ابن خفاجة أثر المعركة على الجبهتين؛ فقد حمت حريم المسلمين وأباحت حريم المشركين وخلت من الرجال ساحاتهم وضجت بالعويل بيوتهم؛ لأن المسلمين صدقوا في الجهاد وكانوا صقورا جارحة تخطف مهج الأعداء.

وعندما تحررت بَلَنسِيَةٍ منتصف القرن الخامس الهجرى يصف ابن خفاجة ما حدث للعدو قائلا:

فغادر الطعن أجفان الجراح به رمدى وصير أطراف القنا فتلا
وأشرق الدم في خد الثرى خجلا وأظلم النقع في جفن الوغى كحلا
وَأَقشَعَ الكُفرُ قَسراً عَن بَلَنسِيَةٍ فانجاب عنها حجاب كان منسدلا
وطهر السيف منها بلدة جنبا لم يجزها غير ماء السيل مغتسلا
كأنني بعلوج الروم سادرة وقد تضعضع ركن الكفر فانسدلا[٢]

---

(١) ابن خفاجة: "الديوان"، ص ٦٨ ، طبعة لبنان، دار صادر سنة ١٩٦١ .

(٢) السابق، ص ٢١٩-٢٢٠ .

يصف ابن خفاجة الملحمة القتالية التى شبت لتطهير بلنسية، وكان وقودها جثث الصليبيين، وعدد مظاهر القتال الضارى من أسلحة بثت الذعر وخلفت الدماء والأشلاء والهامات حتى فر الأعداء من أرض الإسلام وغسلت من نجس الكفار بالسيوف والرماح.

وفي معركة تدمير بين الإسلام والصليب أيام الموحدين ينهزم العدو النصرانى الذى احتمى به ابن مردنيش ويولى الأدبار، فيقول بعض الشعراء:

لقد شنت بأرض الشرق حتى أباحت بعد منعتها حماها
أتيح لها بتدمير دمارا فدك على ترائبها رباها
ذرتهم فيه ريح النصر طحنا غداة أدارت الهيجا رحاها
فإن ينج اللعين لغير منجى لقد فغرت شعوب عليه فاها
وولى يقطع البطحاء شدا على شوهاء ما ونيت شواها
ولو كانت وميض البرق عدوا لخطاها ولم يحمد خطاها[١]

تزخر عاطفة هذا الشاعر بالحرارة والحماسة فتتفتح نفس المتلقى لها وتعانقها وتميل معها حيثما مالت، إن الشاعر شفى نفوسنا بتصويره البارع ما حدث للعدو من كسر أنفه وتحطيم غروره وبحثه عن منفذ يهرب منه فلا يجده ولا يكاد يصدق رغم سرعة البرق الذى جرت بها جياده أنه نجا بنفسه وخرج من فم المنايا التى ابتعلت كبرياءهم، والشاعر جديد التصوير والتعبير تتطاير فرحة النصر في أبياته، وقد وظف الحلى البديعية العفوية توظيفا ناجحا كالطباق بين أباح ومنع والتجنيس بين تدمير ودمار وريح النصر ورحاها وينج ومنجى وشوهاء وشواها وخطاها وخطاها، وقد فعل التجنيس فعله وأعان على إشعال العاطفة بالتأثير والإطراب والشماتة بأعداء الإسلام، أما البيت الأخير فإنه يذكرنا بقول المتنبى عن المهزوم الذى لا يصدق أنه نجا من المعركة.

---

(١) ابن صاحب الصلاة في: (المن بالإمامة)، ٢٨٣/٢ .

ولكنه ولـــى وللطعــن ســـورة إذا ذكرتها نفســـه لمـــس الجنبـــا

وقد كان دور الخيال بارعا في تأجيج الفرحة الغامرة بنصر الله في قوله: فدك على ترائبها رباها، الموحية بعنف الضربات وقوله : فإن ينج اللعين لغير منجى، توحى بحيرة المهزوم وحركاته المضحكة غير الإرادية، أمـــا قولـــه: لخطاها، ولم يحمد خطاها، فتكشف ذعر العدو وما استولى عليه مـــن رعـــب حتى إنه لا يشعر بالسرعة الرهيبة للخيل فيرى عدم جدواها في النجـــاة مـــن موت سد عليه المسالك.

أما العبدرى فيشيد بالسلطان أبى يعقوب ودفاعه عن الإسلام قائلا :

طغى الكفـــر حتـــى صـــده بجيوشـــه كما صد ذو القرنين يـــأجوج بـــالردم

إلى الملك السامى صعودا على الورى وليثهم في الحرب والغيث في الســـلم

إلى يوسف سيف الإلـــه الـــذى أتـــى لحسم العدا إن الحسام من الحســـم(١)

أبرز العبدرى أن أبا يعقوب حوى صفات الحاكم المسلم التقى القوى الكريم الشفيق على الرعية.

وفي معركة الأرك يقول أبو العباس الجراوى:

ألوف غـــدت مأهولـــة بهـــم الفـــلا وأمست خلاء دورهم مـــنهم قفـــرا

ودارت رحا الهيجا عليهم فأصبحوا هشيما طحينا في مهب الصبا يذرى

يطيـــر بأشـــلاء لهـــم كـــل قشـــعم فما شئت من نسر غدا بطنه قبـــرا

ومنها:

لقد أورد الإذفونش شـــيعته الـــردى وساقهم جهلا إلى البطشة الكبرى

حكى فعل إبليس بأصحابه الأولـــى تبرأ منهم حـــين أوردهـــم بـــدرا

---

(١) د/ محمد بن شقرون في كتابه: مظاهر الثقافة المغربية، ص ١٦٤، طبعة المغرب، سنة ١٩٨٢.

أطارتـــه شـــدات تـــولى أمامهـــا شريدا وأنسته التعاظم والكبـــرا(١)

يرسم الجراوى موقفين للنصارى، لوحة الهزيمة التى راح فيهــا مئــات الألوف من النصارى ولوحة الغطرسة والخيلاء وهو يهــدد المســلمين قبــل المعركة، ليرسم مفارقة تصويرية حادة تتيح للفرحة بالنصر والشماتة بأعــداء الدين مساحة من السعادة والأفراح بعيدة المدى بانتصار الأرك في رمضـــان، ويصور هروبه المخزى تاركا جثثه وهاماته للنسور والعقبان دون خجــل أو حياء كما صنع إبليس اللعين مع قريش في بدر ودلاهم بغرور قائلا: لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تلاقت الفئتان نكص على عقبيه وفــر هاربا عندما رأى الملائكة وهو يقول: إنى أرى ما لا ترون. إن إلفونسو فعل كل ما استطاع، لكن هجمات المسلمين لا علاج لها وقد هبت ريـــاح النصـــر فولى شريدا ذليلا يجرع آلامه حتى مات بعد أيام، وفي هذا اليوم الرائع ألقـــى على ابن حزمون بين يدى عبد المؤمن قصيدته الجميلة:

حيتـــك معطـــرة الـــنفس نفحـــات النصـــر بأنـــدلس

فـــذر الكـــفـــار ومـــأتمـــهـــم إن الإســـلام لـــفـــى عـــرس

جاؤوك تضـــيق الأرض بهـــم عددا لم يحـــص ولـــم يقـــس

خرجوا بطـــرا ورئـــاء النـــاس ليختلســـوا مـــع مخـــتلس

فأنـــــاخ المــــوت كلاكلـــــه بظباك علـــى بشـــر رجـــس

ومنها:

أذوى الصـــلبـــان وراءكـــم خيـــل المـــلـــك الخبـــر الندس

مـــــلأ التوحيـــد أعنتهـــا وأغـــار بهـــا روح القـــدس

نهضت فمضت فقضت أمـــدا أنسى عتـــب الـــدنيا فنســـى(٢)

---

(١) ابن عذارى في: البيان المغرب، ١٩٧/٣.

(٢) المراكشي: في المعجب، ص ٣٧١ .

يصور الشاعر أفراح واحتفال المسلمين بالفتح العظيم في الأرك وأحزان الصليب ومأتمه رغم كثرة جندهم وبغيهم وتكبرهم، وصدق الشاعر حين كنى عن كثرة القتلى بأن الموت أناخ عليهم بكلاكله. لقد جاءهم الموت من كل مكان على يد مجاهدين موحدين قادتهم الملائكة فقهروا الأعداء قهرا لا يزال يفوح عبقه وينسى ما كان قبله، وقد صنعت موسيقى الهزج الأخاذة إطرابا أضاف سعادة وفرحا بجانب أفراح النصر وتمشى التيار الدينى رائعا في الأساليب المتقنة من أمثال: بطرا ورئاء الناس، وملأ التوحيد، وقادهم جبريل، أغار بهم روح القدس، وهى استدعاءات تراثية تضخ في العروق والقلوب قدسية اللقاء وحلاوة الانتصار يستشعرها المتلقى كما أراد الشاعر.

ويأتى ابن الأبار القضاعى في طليعة الشادين بالنصر كما جاء طليعة المستنجدين لنصرة الأندلس، وهو يمزج في شدوه العروبة بالإسلام ويصدق في عبارته وتجاربه المغلفة بالإباء يقول في حصار بلنسية.

أعياد المسيح دنا رداكم	وأخرس نأمة الجرس النداء
لم استعجلتم حمر المنايا	وأنتم عن تقحمها بطاء
رحى الهيجاء دائرة عليكم	بما ينهد خيفته حراء
هو الزمن الذى كنتم وعدتم	تجلى الحق فارتفع المراء
وما لا يستطاع له دفاع	فليس وراءه إلا الفناء(١)

لقد صور الشاعر نصر الإسلام في عدة ملامح توقيعية مؤدية تتمثل في إخراس الأذان للأجراس وجبنهم المغطى بالغطرسة "وأنتم عن تقحمها بطاء" وجسارة المجاهدين بادية في غاراتهم التى يتهاوى أمامها الجبل الضخم حراء وظهور النصر الصادق في معركة عجز الصليب عن دفعها، وهذا الصدق الممزوج بالحماسة والتحفز يملأ التجربة حرارة ونفاذا ويذكرنا بقصيدة حسان ابن ثابت وهو يهدد المشركين قائلا:

---

(١) ابن الأبار : الديوان، ص ٤٦ .

عـــدمنا خيلنـــا إن لـــم تروهـــا تثيـــر النقـــع موعـــدها كـــداء
يبـــارين الأســـنة مصـــعدات على أكتافهـــا الأســـل الظمـــاء
تظـــل جيادنـــا متمطـــرات تلطمهـــن بـــالخمر النســـاء

ويصور ابن الأبار بحرية الحفصيين وسـفنهم وهـى تـدمر أسـاطيل الصليبيين قائلا:

سوابحه عـم الأعـادى عَـدوها بوارا وأسمى السعي ما انتظم البـرا
فمن مقربات جاست السفعة الغبرا ومن منشآت جابت الأبحر الخضـرا
سمت لأساطيل النصارى فقهقروا لتصـويبها مسـتيقنين بهـا القهـرا
ورامت ليوث الروم فتخا كواسـرا فما وجدوا نصرا ولا عدموا هصرا(١)

يصور الشاعر الدمار الذى ألحقه الأسطول الحفصى بالبر والبحـر فقـد فرش الماء والأرض بالأشلاء والدماء وضرب بعنف تلك القوى النصـرانية التى تحطمت روحها المعنوية فذاقوا هزيمة مريرة؛ ثم يصـور ابـن الأبـار بطولة زيان بن مدافع الذى يعرف الأعداء ضرباته الموجعة فيتخاذلون أمامه يقول ابن الأبار :

وتغرو العدا في عقرهـا متتابعـا وحسبك غزو في العـدا متتـابع
فتلفى ديار المشركين ولـم تـزل أواهل قد أصبحن وهـى بلاقـع
وما هـم ولا البلـدان إلا ودائـع وعمـا قريـب تسـترد الودائـع
تقدمك الرعب الذى ما لهـم بـه قرار ولا في العيش منه مطـامع
فضاق عليهم أفقهم وهـو واسـع وأكثب منهم حينهم وهـو شاسـع
ولاذوا بأعلى الراسـيات توقعـا لما سوف يغشاهم وما حم واقع(٢)

---

(١) السابق، ص ٢٠٧ .

(٢) السابق، ص ٣٥٩-٣٦٠ .

إن الأعداء يعلمون من هو زيان وعنف ضرباته وأفاعيله بهم فيتركون البلاد ويفرون فزعا من قدومه.

والشاعر يوظف التراث الديني في انتصار زيان بالرعب قبل اشتعال المعارك، وله في الواقع طول باع في هذا المجال يضعه في الطليعة من شعراء الأندلس إضافة إلى صدقه وروحه الدينية والوطنية وقوة لغته التي يتكئ فيها على الجزالة وجمال الأداء.

ويأتي ابن الخطيب وزير مملكة غرناطة التي بقيت رغم ضعفها قرابة ثلاثة قرون، وكانت دولة بني مرين تمدها وتساندها عند الأزمات وابن الخطيب كان يستنجد لمملكة بني الأحمر ويصف نصر جيوشها وجيوش بني مرين، فحينما ينتصر السلطان يوسف ابن الأحمر في معركة شوذر يقول ابن الخطيب:

هو النصر باد للعيون صباحه ... فما عذر صدر ليس يبدو انشراحه
حديث تهاداه الركائب في السرى ... وتجلى على راح المسرة راجه
وأصبح دين الله قد عز جاره ... بموقعها والكفر هيض جناحه

ثم يقول:

وصبحت جمع الكفر في مستقره ... فخابت مساعيه وساء صباحه
فبين صريع بالفلاة مجدل ... طريح وعان لا يرجى سراحه
ومن بين مكلوم بحد سيوفها ... تسيل على الأعقاب منه جراحه[1]

تناول الشاعر في تجربته لوحة النصر المؤزر، فبدأ ببشرى النصر الواضح الذي أسعد القلوب وحمى الإسلام ودياره، ثم عرض لمظاهر النصر وفصل عوامله : في مفاجأة الأعداء ثم صبره وتوكله على ربه مما جعله ينال

(١) ابن الخطيب في ديوانه: (الصيب والجهام)، تحقيق محمد الشريف، ص ٣٦٣ ، ط الجزائر، سنة ١٩٧٣ .

من أعدائه ويتركهم بين قتيل أو أسير أو جريح، وذلك حين يقول :

فما ضل من كان الإلــه دليلــه وما ذل من حسن اليقــين ســلاحه

وفي معركة ثابتة بين الروم والنصريين يقول ابن الخطيب :

ولو لم تقد جيشا كفتــك مهابــة من الله تغنى عن نصير وعنــد جنــد

ولكن جلبت الجرد قبــا بطونهــا فأقبلن أسرابا كمثــل القطــا تــردى

وما راع ملك الروم إلا طلوعها بــوارق تــدعى بالمطهمــة الجــرد

وغابا من الخطى تحت ظلالــه أسود من الأنصــار تفتــك بالأســد

فلما استفز الذعر منهــا فــؤاده وحقق معنى الفضل في ذلــك الحــد

وما برحت والله ناصــر دينــه قضاياه في عكس لديك وفــي طــرد

رمى بيد الإذعان للســلم رهبــة وخاطب يستدعى رضاك ويستجدى(١)

إن الشاعر يجعل النصريين منصورين بالرعب فما بالنا لو استعدوا بجيوش وعتاد وجند، وقد مرت بنا فكرة النصر بالرعب عند شعراء مر ذكرهم.

وعندما فتح يوسف النصرى حصن إسبتة أشاد ابن الخطيب بالفتح قائلا:

ورجعت والنصر العزيز مصاحب لــك والملائكــة الكــرام قبيــل

في عسكر لجــب كــأن جموعــه فــوق الوهــاد إذا زحفــن ســيول

كــالبحر إلا أنهــن كتائــب والــريح إلا أنهــن خيــول

والبــرق إلا أنهــن أســنة والرعــد إلا أنهــن طبــول

وبعد أن يصور الجيش وعدته واستعداده يصور المعركة فيقول :

ورميتهــا بعزيمــة نصــرية كادت لها شــم الهضــاب تــزول

أصميت ثغرتها بســهم عزيمــة تذر الأبى الصــعب وهــو ذليــل

---

(١) السابق، ص ٤٣٣.

دارت بأعلى منذريها قهوة للحتف مترعة الكؤوس شمول
وإذا امرؤ جعل الصليب نصيره دون الإله فإنه مخذول(١)

وابن الخطيب بعد أن صور ضخامة الجيش وقدراته عاد ليرسم صورة للمعركة، فقد صدق الجيش ما عاهد الله عليه فصب نيرانه على الصليبيين، فانتشر الموت في كل مكان ودبت الهزيمة في صفوفهم، وكيف ينصر الله من يكفر به ويعبد غيره. ونرى أن روح الشاعر هنا ليست لها حرارة السابقين عليه وبصمات التراث بينة الاقتباس عنده، ويقول مالك بن المرحل لسلطان بنى مرين:

من سنة الله أن يحيى خليفته على يديك وأن يكفى به النقما
وأن يقيم بك الإسلام من أود وأن يديم بك الإحسان والنعما
لله منك مليك لا نظير له لولاك كان وجود الدين قد عدما(٢)

إن الشاعر يرى ملك بنى مرين حمى حوزة الإسلام ودفع عن المسلمين البلاء ولولاه لزال الإسلام وانتهى.

وفي هذه القصائد التى مرت بنا تظهر ملامح وسمات عامة ميزت أهازيج النَّصر وجسارة المجاهدين في قتال الأعداء.

سماتهم الفنية:

برزت في قصائد هذا الاتجاه سمات عامة يمكن إيجازها فيما يأتى:

تدفق التيار الدينى:

فقد نقل الشعراء جهاد المسلمين بالأندلس يمتزج بالمشاعر الدينية من القرآن الكريم تارة ومن الأحاديث الشريفة أو من التاريخ الإسلامى في الغزوات تارة ثانية، وخصوصا عندما رأوا الصليبيين يوظفون طقوسهم في حشد الأوروبيين من كل الدول، وبما أن المسلمين أخوة في الدين والجهاد فريضة عليهم فلم لا يذكرون أمتهم بأن ينفروا للجهاد خفافا وثقالا، ويمكن

---

(١) السابق، ص ٥٦٦-٥٦٧ .

(٢) د. محمد بن شقرون في كتابه : مظاهر الثقافة المغربية، ص ١٦٣ .

أن تكون تجاربهم سالت بهذه التداعيات التى فجرتها مواقف الكفار فأعادت هذه المواقف بطريقة تلقائية ذكريات المعارك الإسلامية مع كفار الأمس، والكفر كله ملة واحدة. يقول ابن سهل مغريا المجاهدين بلذائذ الجنة :

وردا فمضمون نجاح المصدر هى عزة الدنيا وفوز المحشر
نادى الجهاد بكم لنصر مضمر يبدو لكم بين العتاق الضمر
خلوا الديار لدار خلد واركبوا غمر العجاج إلى النعيم الأخضر
وتسوغوا كدر المناهل في السرى ترووا بماء الحوض غير مكدر
وتجشموا البحر الأجاج فإنه سبب به تردون نهر الكوثر(١)

ويقول ابن الأبار عن المجاهدين وعقيدتهم القتالية:

هم القوم راحوا للشهادة فاغتدوا وما لهم في فوزهم من مقاوم
مضوا في سبيل الله قدما كأنما يطيرون من إقدامهم بقوادم
يرون جوار الله أكبر مغنم كذاك جوار الله أسنى المغانم(٢)

ونجد لهذا التيار نماذج كثيرة وقد مر منها ما مر.

وهذا أبو العباس الجراوى يخاطب أمير الموحدين:

أعليت دين الواحد القهار بالمشرفية والقنا الخطار
ورأى بك الإسلام قرة عينه وغدت بك الغراء دار قرار(٣)

تمجيد البطولة والأبطال:

وقد أفاض الشعراء في الإشادة بالقواد المنتصرين وغالوا في تقدير شجاعتهم، يقول ابن الأبار في أبى زكريا الحفصى وقد جنح إلى المغالاة:

---

(١) ابن سهل في ديوانه، ص ١٤٠-١٤١.

(٢) أبن الأبار: الديوان، ص ٢٧٦ .

(٣) شفيق الرقب في كتابه: "شعر الجهاد"، ص ٥٥ .

خضعت جبابرة الملـوك لعـزه ... ونضت بكف صـغارها خيلاءهـا
أبقى أبـو حفـص إمارتـه لـه ... فسـما إليهـا حـاملا أعباءهـا
سل دعوة المهدى عـن آثـاره ... تنبيـك أن ظبـاه قمـن إزاءهـا
فغزا عـداها واسـترق رقابهـا ... وحمى حماها واسـترد بهاءهـا(١)

ويقول ابن خفاجة :

بطل جرى الفلك المحيط بسرجه ... واسـتل صـارمه يـد المقـدار
يمتد حبل الأسمر الخطـى فـي ... يـده وبـاع الأبـيض البتـار
بيمينـه يـوم الـوغى وشـماله ... ما شاء من نـار ومـن إعصـار
فالشمس خمر والجياد عـرائس ... والجو كأس والسـيوف مـدارى(٢)

الشماته بأعداء الإسلام:

يقول ابن خفاجة في أمير إشبيلية المرابطى وذلك سنة ٥١٤هـ:

فـي ضـمان المشـرفى بـه ... وقعـة للعـرب فـي العجـم
فتكـة فـي الـروم قاصـمة ... ظهـر عـز الـروم والصـنم
يجمـع الضـرب التـؤام بهـا ... بـين فـل الـروم والـرمم
حـق حمـص أن تسـربه ... أرضـها مـن عـالم علـم(٣)

ويقول ابن الأبار في هزيمة النصارى ومن حالفهم وهو ابن مردنيش:

فإن شقى التثليـث منهـا لغصـة ... فقد شـفى التوحيـد ممـا بـه غصـا
وإن عدو الدين من ظـاهر العـدا ... ليخذ له فاستنصر الشرك واستقصـى(٤)

---

(١) ابن الأبار: الديوان، ص ٣٨ .

(٢) ابن خفاجة: الديوان، ص ١٣٢ .

(٣) السابق، ص ٢٥١ .

(٤) ابن الأبار: الديوان، ص ٣٣٩ .

ويقول ابن حزمون لعبد المؤمن يوم الأرك شامتا بألفونسو وما تركه خلفه من جميلات الصليب أسيرات للمسلمين :

سهرا لموتور وأرقه ... تذكار المنصل والمرُس
وبكاء عقائل هاتفة ... كالورق ينحن مع الغلس
برزت وكأن ذوائبها ... أذناب روامحة شمس
ترنو كظباء الرمل على ... وجل لضراغمة شرس(١)

ويقول الجراوى :

عدد المصرع منهم عدد الحصى ... هيهات أن يحصى وأن يتحصلا
كم أجدل منهم أذل ببأسه ... ما هم أن ينقض حتى جدلا(٢)

ومن حق المسلم المنتصر أن يزهو بنصره ويحمد الله على معونته، فقد تبختر أبو دجانة راقصا عندما أعطاه الرسول ﷺ سيفه بحقه وهو أن يضرب به في عدو الله حتى ينحنى السيف، فأخذه أبو دجانة على هذا الشرط وسار يتراقص وسط الصفوف يوم أحد:

فقال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبختر: "إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن"(٣).

الاستصراخ بالعروبة والقبلية:

وقد كثرت إثارة عاطفة العروبة والقبلية وبخاصة في شعر ابن الأبار فهو يقول لأبى زكريا:

قريع بنى فهر يقارع دونها ... أعاديها والباسل الذمر ناكل

---

(١) المراكش في: المعجب، ص ٣٧١ .

(٢) الأستاذ شفيق الرقب في: "شعر الجهاد"، ص ١٣٤.

(٣) ابن هشام: في السيرة النبوية ، جـ٣ ، ص ١٢، ط: دار التراث .

لـــؤى قـــريش عاقـــد للوائهـــا ويحيـــى لـــه دون الأئمـــة حامـــل
لقـــد مـــنح الله القبـــول بنيلـــه لذلك ما التفـــت عليـــه القبائـــل[١]

غير أنها لا تأتى وحدها بل تصحبها عاطفة الجهاد والبلاء في سبيل الإسلام.

ويقول الجراوى:

بنى عامر أنتم صميم فصـــمموا إلى الموت تصميم الليوث الخـــوادر
ولا تتوانوا في حظوظ نفوســكم فإنكم أهـــل النهـــى والبصـــائر[٢]

ويقول ابن طفيل بناء على توجيه من الخليفة الموحدى يوسف في استنفار العرب للجهاد:

ألا فابعثوهـــا همـــة عربيـــة تحف بأطراف القنـــا والقواضـــب
أفرسان قيس من هلال بن عامر وما جمعت من طاعن ومضـــارب
لكم قبة للمجـــد شـــدوا عمادهـــا بطاعة أمر الله من كـــل جانـــب[٣]

وكانت الغاية من استصراخ القبلية إثارة الرغبة فـــي الجهـــاد وتســـخين المعركة حتى يشتد القتال وتتماسك الصفوف أكثر.

ومن هذه السمات انتصار المسلمين بالرعب وقد مر هذا فـــي نصـــوص سبقت، وقد برزت مجموعة من الصور البيانية الجديدة كما مر، ومنها قـــول الشاعر مخاطبا الصليبيين:

لـــم اســـتعجلتم حمـــر المنايـــا وأنـــتم عـــن تقحمهـــا بطـــاء

إن المفارقة التصويرية حادة السخرية والتوبيخ، إذ إن الذى يتعجل القتال

---

(١) ابن الأبار: الديوان، ص ٢٣٨ .

(٢) شفيق الرقب : شعر الجهاد، ص ٧١ .

(٣) السابق، ص ٦٩ .

هو الشجاع الذى لا يلوى على شيء؛ لكن الشاعر صدمنا في أن المتعجلين جبناء منعهم خوفهم من خوض المعركة، والذى شكل هذا البعد الفني قول الشاعر: "وأنتم عن تقحمها بطاء" وهى كناية عالية الأداء صاغها الشاعر لتكتمل المفارقة الحادة على طريقة الكناية عن صفة، وهى تردنا إلى الصورة البيانية في القرآن الكريم وهى كناية عن صفة الجبن أيضا ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ عند الدعوة إلى الجهاد، وبها قيم فنية عالية تتمثل في حركة الجبان الرعديد المتردد لا يقوى على القيام كأن أرجله لا تنهض بحمله لشدة فزعه أو كأن أردافه ثقلت فأقعدته؛ لأنه من القواعد اللاتى لا يبرحن البيوت. وهكذا تترامى الظلال الدلالية وتمتد لترسم تلاشى الرجولة وموت الجسارة والجرأة والتخلى عن مقتضيات النخوة والنجدة.

وقد برز اتخاذ الحلى البديعية وهى متقنة إلى حد بعيد، وممن استكثر منها ابن الأبار القضاعى حتى إننا نجد قصيدة له كاملة ينتهى كل بيت فيها بتجنيس جيد، وأن أثقلت التجربة بهذه الكثافة الموسيقية التى غصت بها، ومن هذه القصيدة التى بلغت خمسة وخمسين بيتا:

يقول ابن الأبار يصف البحرية الحفصية المجاهدة.

ما أولى القرآن إن صدقوا	عزمهم من جيل إنجيل
بالجوارى المنشآت لهم	جر تبتير وتبتيل
صدرت عن معشر نصرت	إثر تقتير وتقتيل
فهم من عزة وهدى	غب تذليل وتضليل
مد ظل الأمن كثرهم	بعد تقليص وتقليل
في سبيل الله مسبحها	تحت توكيد وتوكيل[١]

(١) ابن الأبار: الديوان، ص ٢٣٤ .

التأثر بالسابقين:

إن كثيرا من المعانى قريبة الشبه بمثيلات لها في تراثنا العربــي لــدى النابغة أو لدى بشار كما مر، ونجد عند ابن الخطيب من لمحات ابــن هــانئ وهو يصف أسطول المعز لدين الله طرفا من هذا، كما نجد لدى ابــن الأبــار تصاريف أسلوبية كتلك التى نجدها عند المتنبى ولولا ضيق مجال هذه العجالة لتوقفنا طويلا عند هذا التأثر، ووازنا بين المعنى في مراحله المتعددة، وبينــا المزية لصاحبها ولعل الوقت يسمح بهذا إن شاء الله.

٢- شعر المعتمد بن عباد:

تتبدل بالناس أيامهم من اليسر إلي العسر، ومن الملك والمجد إلــي زوال هذا الملك والمجد، والدهر يومان، يوم لك ويوم عليك، والناس مختلفون فــي هذا التبدل وكيفية التعامل مع الوضع الجديد.

إنهم مختلفون في مشاعرهم، وطرائق التعبير عنها ومختلفون في مواقفهم منها وذلك تبعاً لمساحة ثقافتهم، وعمق إيمانهم، كما يختلفون في طبيعة بنائهم النفسي، ومدى صلابة إرادتهم ويشكل مدى توقعهم لحدوث هذا التبدل جانبــاً عظيماً من تباينهم في استقباله.

فإن سبقت هذا التبدل مقدمات يمكن أن تؤدي إليه، نتيجة مجموعة مــن العوامل تفعل فعلها فإن التبدل لا يأتي مفاجئاً، أما إن جاء دون توقع فإن وقعه يكون أليماً ووطأته ثقيلة، وفي هذه الحالة إما أن يختلط علي المرء أمره وتتبدد نفسه وتطحنه الأحداث، وإما أن يعوذ بربه ويركن إلي مجده وصلابة بنائه فلا يتعذر عليه التصبر والتسليم لما قدره الله، وهذا ما حدث للمعتمد بــن عبــاد أسطورة البسالة والنبل أو "الملك الجواد العالم المعتمد على الله محمد بن الملك المعتضد[١]،" تولي مملكة بني عباد إثر وفاة أبيه "سنة إحدى وستين وأربعمائة،

---

(١) ابن سعيد في كتابه: "رايات المبرزين": تحقيق/ الدكتور النعمان عبد المتعال، ص ٣٧ ، طبعة القاهرة، ١٩٧٣م .

وولي بعده ابنه أبو القاسم محمد وتلقب بالمعتمد وقوي أمره، واستولى على دار الخلافة بقرطبة وانتزعها من يد ابن جهور[١]" وفي الملمات الكبرى اعتبر ملوك الطوائف أن "مفزعهم في ذلك إلى المعتمد بن عباد لأنه أشجع القوم[٢]" ، وأصبح المعتمد بذلك "شهير الذكر بالمشرق والمغرب[٣]"، يقول ابن الأثير: "وكان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الأندلس ومتملك أكثر بلادها[٤]". وقد أهلته صفاته لمكانته لأنه "ملك قمع العدا وجمع البأس والندى، وطلع على الدنيا بدر هدى[٥]"، وذاعت أبهة ملكه حتى قال شاعره ابن اللبانة: "إن الدولة العبادية بالأندلس أشبه بالدولة العباسية ببغداد سعة مكارم وجمع فضائل[٦]".

ولقد أحرز المعتمد شهرة واسعة بعد انتزاعه قرطبة وأحرز عدة انتصارات مدوية علي الممالك المجاورة مسلمين وغير مسلمين. وهنا أحست أوربا خطره؛ فتجمعت في قوة واحدة لتحطيم قواه، وهكذا يفعلون دائماً حين تظهر قوة فتية خيرة، وبلغ جيشهم " ثلاثمائة ألف[٧] " ووقف ملوك الطوائف خلف المعتمد صفاً واحداً مستنجدين بالمرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين ثم عادوا يخوفون المعتمد شر يوسف وإمكانية استيلائه على ممالكهم قائلين : "الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد، " فأجابهم المعتمد: " رعي الجمال ولا رعي الخنازير[٨] "؛ وفسر المعتمد الأمر قائلاً: "إن استندت إلى

---

(١) "القلقشندى في: مآثر الأنافة في معالم الخلافة": ٣٥٢/١-٣٥٣ ، تحقيق الأستاذ عبد الستار فراج، طبعة الكويت ١٩٦٤م .

(٢) المقري في نفخ الطيب تحقيق: أ.د. إحسان عباس ٤٣٨/١ ، طبعة بيروت ١٩٦٨م .

(٣) السابق نفسه .

(٤) ابن الأثير في: الكامل، ١٤٢/١ ، بيروت .

(٥) الفتح بن خاقان في كتابه: "قلائد العقيان"، ص ٤.

(٦) المقرى في: نفح الطيب، جـ٤ /٢٥٥ .

(٧) المقرى في: نفح الطيب، ٤٣٩/١ .

(٨) السابق، ٣٥٩/٤ .

ابن تاشفين فأنا أرضى الله، وإن استندت إلي الإذفونش أسخطت الله تعالي[١]".

وعبرت قوات المرابطين الرئيسية بحر الزقاق، ونزلت بالجزيرة وفاجأهم ألفونسو – بعد خداع – بالهجوم فجر الجمعة، ولكن خداعه قد بطل وتحطم؛ لأن عيون المسلمين كانت تنقل كل تحرك للأعداء وجاءت بشائر النصر قبل المعركة فتفاءل الجميع؛ وقال المعتمد:

غـــزو عليـــك مبـــارك سـيعود بـالفتح القريـبْ
لا بـــد مـــن يـــوم يكـــو نُ لـــه أخًـا يـومُ القليـبْ[٢]

لقد بعث يوسف كتيبة خلف خطوط الأعداء أشعلت في بلادهم النيران، والتقى المعتمد بجيش أوربا بقيادة ألفونسو ولم تصل قوات المرابطين فصدم ألفونسو المعتمد صدمة هائلة ثبت لها وخر آلاف القتلى من الجانبين، ولم يبق موقع إلا ملأته الجثث وكانت شجاعة المعتمد مضرب الأمثال رغم جراحه في وجهه وجنبه وفلق هامته وجرح يده اليمنى، وقاسى حياض الموت بعد أن قتلت تحته ثلاثة أفراس وفر عنه الكثيرون وهو يقاتل بجسارته المعروفة، وبعد مضض وصلته طلائع المرابطين فخففت عنه وثبتت أقدامه. ثم جاء يوسف بقواته وإبله وطبوله وخيوله وقتها دفع المعتمد بآخر أوراقه قوات تلبس الدروع اللمتونية أوقفت ألفونسو وتراجع المعتمد وانضم إلى يوسف وهجما معاً هجمةً واحدة، فتفرقت أوربا وتمزقت جموعها وجاءت تباشير النصر، وحمى الوطيس وفروا ليقعوا فريسة للمسلمين، ولم ينج من الثلاثمائة ألف إلا ثمانية عشر رجلاً فيهم ألفونسو ممزقاً ومات بعدها بأيام، وكانت معركة الزلاقة أول جمعة في رمضان ٤٧٩ هـ[٣]، وعف يوسف عن الغنائم لأنه

(١) السابق .

(٢) المقري في: النفح ٤/٣٦٤ .

(٣) الحافظ الذهبى في: العبر تحقيق فؤاد سيد، جـ٣ ص ٢٩٣ ، طبعة الكويت، ١٩٦١م .

احتسب عند الله جهاده[١].

وانطلق الحمام الزاجل إلى المغرب يحمل بشائر النصر، وجمعت رعوس الأعداء في تلال أذن فوقها المؤذنون وعمت الفرحة أرجاء المغرب والمشرق، ونعمت الأندلس بالرخاء والأمن وعبر المرابطون وأوقعوا العديد من الهزائم وغنموا مغانم ضخمة بعد الزلاقة وزعوها في المرابطين وبرزت عدة عوامل أغرت المرابطين بضم الأندلس وإسقاط ملوك الطوائف بعد أن رأوا بالأندلس ما رأوا.

وفي رجب من عام ٤٨٤ هـ[٢] يفاجأ المعتمد بتطويق قصره بقوات المرابطين رفاق الجهاد بالأمس، وتصدى لهم المعتمد وليس على جسمه سوى غلالة رقيقة وأظهر ضروباً من البطولة حتى قالوا: إنه كان يترامى على الموت " لا درقة له ولا درع عليه[٣]"، لأنه آثر الموت على الأسر، وقد قتل قائد المهاجمين وضرب آخر فقسمه نصفين، ففر المهاجمون وتراموا خارج السور ثم عادوا بعد أيام ليجد المعتمد أن الأمر خرج من يده وقتل، من أولاده من قتل وسيق أسيراً إلى سجن أغمات بالمغرب وسط نحيب الأندلسيين على ملكهم النبيل الذي ملأ البلاد بأساً وأمناً وعلماً ونبلاً.

يقول المعتمد :

أنباء أسرك قد طبقن آفاقَا ... بل قد عممن جهات الأرض إقلاقَا

سرت من الغرب لا يطوي لها قدم ... حتى أتت شرقها تنعاك إشراقَا

فأحرق الفجع أكبادا وأفئدة ... وأغرق الدمع آماقا وأحداقا

---

(١) السابق، ٤/٤٦٦٩ .

(٢) ابن الخطيب في: أعمال الأعلام، ص ١٨٩ .

(٣) عبد الواحد المراكشي في: المعجب، ص ٩٨.

وقد حز أسره في نفوس الكثيرين وفي مقدمتهم شاعره[١] أبو بكر بن اللبانة الذي قال:

حكيتَ وقد فارقتَ ملكك مالكا ... ومن ولهى أحكي عليك متمما
مصاب هوى بالنيرات من العلا ... ولم يبقِ في أرض المكارم معلما
تضيق عليَّ الأرض حتى كأنما ... خلقت وإياها سوارا ومعصما
ندبتك حتى لم يخلٍّ لي الأسى ... دموعا بها أبكي عليك ولا دما
سينجيك من نجَّى من السجن يوسفا ... ويؤويك من آوي المسيح ابن مريما

وقد زخر شعر المعتمد بعد النكبة بالأسى، وتعددت أصواته[٢] التي نقلت إلينا عالمه النفسي، وما تمور به مشاعره تجاه تحول الأيام عنه.

وفي هذه التجارب نراه أحيانا يعتصم بدينه ويرى أن ما حدث ابتلاؤه المقدر له كقوله:

والملك يحرسه في ظل واهبه ... غُلب من العجم أو شم من العربِ
فحين شاء الذي آتاه ينزعه ... لم يُجْدِ شيئًا قِراعُ السمّرِ والقضبِ

أو قوله :

اقنع بحظك في دنياك ما كانا ... وعَزٍّ نفسك إن فارقت أوطانا[٣]
في الله من كل مفقود مضى عِوَض ... فأشعر القلب سلوانا وإيمانا

---

(١) ابن عباد في: الديوان جمع وتحقيق د/ أحمد بدوى، وآخر طبعة ٢ ص ١١٠، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٩٧م .

(٢) المقرى في: نفح الطيب، ٢٥٨/٤ .

(٣) ابن بسام في: الذخيرة تحقيق د/ إحسان عباس - القسم الثانى، المجلد الأول، ص ٦٨ ، طبعة الدار العربية للكتاب ليبيا وتونس، ١٩٧٨م .

وأحيانا يئن المعتمد أسى لما يعاني في الأسر والقيد فيقول[١]:

غريب بأرض المغـربين أسـير   سـيبكى عليـه منبـر وسـريرُ
وتندبه البيض الصـوارمُ والقنـا   وينهـلُّ دمـعُ بيـنهن غزيـرُ[٢]

وأحيانا يتألم لتقلب الأيام فيقول:

وأنا اليـومَ رهـن أسـرٍ وفقـرٍ   مستباح الحمى مهـيض الجنـاحِ
لا أجيب الصريخ إن حضر النـا   س ولا المعتقـين يـوم السـماحِ
عاد بشرى الذي عهدت عبوسـا   شغلتنى الأشجان عن أفراحـي[٣]

وقد تزحف عليه نكبات جديدة بقتل أولاده فيتضاعف عليه البلاء؛ كرثائه الفتح ويزيد بقوله :

بكيت فتحا فـإذ ناديـت سـلوته   ثوى يزيـد فـزاد القلـب نيرانـا
يا فلذتَي كبـدي يـأبى تقطعهـا   عن وجدها بكما ما عشت سلوانا[٤]

وقد تنقلب أعياده حزنا حين يرى هوان بناته، وفقرهن وهو أسير، يعجز أن يجد لهن حلا فيقول :

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسـرورا   فجاءك العيد في أغماتَ مأسورا
ترى بناتِك فـي الأطمـار جائعـةً   يغزلن للناس ما يملكن قطميـرا
بـرزن نحـوك للتسـليم خاشـعةً   أبصارُهُنَّ حسيراتٍ مكاسـيرا[٥]

وقد لا يجد إلا الطير يبثها أحزانه ويتمنى ما عندها:

---

(١) المعتمد في ديوانه: ص ١١٤ .

(٢) ابن حمديس في: ديوانه، ص ٢٣٥ .

(٣) ابن خلكان في: وفيات الأعيان، ٤٥/٢ .

(٤) ابن بسام: "الذخيرة"، القسم الثانى، المجلد الأول، ص ٧١ .

(٥) ابن العماد في: شذرات الذهب، ٤٥/٣ .

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي ... سوارح لا سجن يعوق ولا كبلُ
هنيئا لها أن لم يفرق جميعها ... ولا ذاق منها البعد من أهلها أهل
وأن لم تبت مثلي تطير قلوبها ... إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل[١]

غير أن صوتا متميزا بين هذه الأصوات يجذبنا إلى الإعجاب بالملك رغم النكبة هو أنه لم ينس كونه ملكا واستمسك بعزة الملوك واستعلائهم في مواقف كثيرة أبرزت ملوكيته واضحة في عدد كبير من تجاربه، فأرتنا كيف استعصى الرجل على الإذلال والقهر مستعصما بصلابة إيمانه وقوة إرادته، وهو أروع أصوات التجربة بعد المحنة وأحفلها بالجهارة والترديد في محاورها المتعددة ومنحدرات نكبته السحيقة. لقد اختفت ملوكيته من فوق خريطة العروش والتيجان لكنها بقيت حية بين أحشائه ظاهرة في شعره، ولا تزال تتردد فتعيد إلينا ملامح مجده وشارات ملكه ونبله، لقد باح بعزته الكامنة في روحه ووجدانه وسلوكه والناس يكبرون هذا التصرف ويقرون صاحبه عليه حين يعتز بمجده ويركن إلى ملكه ولا يستبيح المجتمع تجريدهم منها ولا تناسيهم لها.

وإن من المروءات الدينية والاجتماعية والمثل العليا إكرامهم وتوقيرهم استصحابا لماضيهم الذي عمر بذلك زمانا .

وفي السطور التالية نكشف مواقع الملوكية والمجد في تجارب المعتمد الشعرية إن شاء الله، ونعالج مظاهر ترفعه ملكا نبيلا حتى في آتون محنته وهو يصطلي الأسر والقيد والسجن، وقد انجلت قراءاتنا لشعر المعتمد بعد النكبة عن أربعة محاور ظهرت فيها تصرفاته ملكا وتبدي ترفعه وملوكيته.

المحور الأول – مع النفس:

وتأتي هذه التجارب في صورة نجوى ذاتية من داخل المعتمد يتذكر فيها ملكه ويسترجع عزته ومجده، كما يرفض الواقع المؤلم، ولا يعترف به،

---

(١) ابن بسام في الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ص ٧١ - ٧٧ .

ويمكن تصنيف هذا فيما يسمى بالمنولوج الداخلي، وتتبعث هذه النجوى إما: من دواعٍ خارجية تدفع إليها أو تحرك تداعيات توقظ عزته واستعلاءه على الواقع المؤلم، وإما أن تفيض بها نفس المعتمد الجريحة، دون أسباب خارجية فتعاوده بتلقائية حين يقارن بين ما كان عليه، وما صار إليه فيستعلي على النكبة وتحتشد في عواطفه كوامن مجده الذي يريده حيا أبدا.

المحور الثاني - مع أسرته:

وتدور تجاربه في هذا المحور على ما دارت عليه في سابقه، لكن الخطاب هنا حاد قاس لأن المخاطبين بهذه الرسائل هم ذووه وأقرب الناس إليه: زوجته وأولاده وبناته، ترى هل بقي له بعدهم أحد؟ إنهم أمله وألمه وحياته وموته معا.

المحور الثالث - مع الشعراء:

إن رؤية الشعراء تعيد إليه مواسم الجود والعطاء حين كانوا يفدون عليه آملين فيعودون بأثمن العطايا والهبات، وقد كان المعتمد بن عباد مضرب الأمثال في ذلك، فيحز في نفسه عجزه عن الوفاء لهم بما أمّلوه وهو من هو فلا يملك إلا إعطاء القليل الذي معه قائلا لشاعره الداني لما زاره بأغمات:

إليك النزر من كف الأسير فإن تقبل تكن عين الشكور
تقبل ما يذوب له حياء وإن عذرته حالات الفقير[1]

وقد يرد ابن اللبانة عليه عطاءه لأنه جاء وفاء لممدوحه قائلا:

هذه وفادة وفاء لا وفادة استجداء

ثم يقول للمعتمد:

أسير ولا أسير إلى اغتنام معاذ الله من سوء المصير
جذيمة أنت والزباء خانت وما أنا من يقصر في قصير

---

(١) عبد الواحد المراكشي في: المعجب، ص ١١٠ .

وهؤلاء الشعراء الذين فجروا في عواطفه قضية نكبته[١] هم: شاعره أبو بكر ابن اللبانة الداني، وابن حمديس الصقلي، وشاعر ثالث هو ابن الزنجاري، ومجموعة من شعراء الكدية في مدينة طنجة ألحفوا عليه وضايقوه.

المحور الرابع – مع رجال صحبوه:

وقد فجرت صحبتهم له ومرافقتهم تداعيات نكبته؛ ومن هؤلاء منجمه أبو بكر الخولاني والطبيب الوفي الوزير أبو العلاء بن زهر؛ وفي السطور التالية نتناول إن شاء الله هذه المحاور الأربعة على الترتيب الذي مر بنا.

المحور الأول:

ويشكل هذا المحور أهمية عظيمة حيث إنه ضم أكثر التجارب وحمل ملامح الأنفة والملوكية بشكل بارز ورفض الواقع المؤلم الذي صار إليه.

فحين أحس الملك نذر المحنة وأحيط بقصره في إشبيلية خرج بسيفه ليموت مقاتلا ولا يعيش ذليلا:

لما تماسكت الدموع ... وتنبه القلب الصديعُ
قالوا الخضوع سياسة ... فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو ... ع على فمي السم النقيعُ[٢]

هذا خيار المعتمد الذي يلائم ملوكيته وعرشه ، يبقى في شعره بعد ذهابه خارجه يستعلي الرجل على النكبة مؤثرا الموت في شرف على حياة الخضوع، وهذه أولى النغمات الثلاث في تجربته الأليمة تآزرت في رسم تجربته ونقلها إلينا كما عاناها، وتدخلنا على النغمة الثانية بعد أن كشفت الأولى مبدأ المعتمد في رفض الحياة الذليلة وإيثار الموت الشريف عليها فإن النغمة الثانية تؤكد بقاء ملوكيته وثباتها حية نابضة بين جنبيه مهما حدث فيقول:

---

(١) المعتمد بن عباد في: الديوان، ص ١٠٣ .

(٢) ابن الخطيب في : أعمال الأعلام، ص ١٩٠ .

إن يسلب القوم العدا ملكي وتسلمني الجموعُ
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطباع أيسلب الشرف الرفيع[(١)]

لقد قهرهم حين فكروا في قهره؛ لأن إرادته الملكية مركوزة في دمائه وطباعه في شرفه الرفيع.

ثم تأتي النغمة الثالثة؛ برهانا عمليا يقرن الفعل بالقول؛ ليسجل فيها المعتمد عظمة الجسارة المعهودة عنه، وعن بني عباد، وإن تصديه للمهاجمين كان طلبا للموت في عزة النبلاء؛ غير أن الأجل لم يحن بعد، وهل هو إلا من بني عباد معدن المجد وحفدة المناذرة؟

وبرزت ليس سوى القميص على الحشا شيء دفوعُ
وبذلت نفسي كي تسيل إذا يسيل بها النجيعُ
أجلي تأخر لم يكن بهواي ذلي والخضوعُ
ما سرت قط إلى القتال وكان من أملي الرجوعُ
شيم الألى أنا منهم والأصل تتبعه الفروعُ[(٢)]

وقد خلفت هذه التجربة في نفوسنا صورة لإباء المعتمد واستعلائه على النكبة، كما كشفت مبادئ بني عباد وركونهم إلى عزة قعساء ضاربة بجذورها التّليدة حتى ملوك الحيرة.

وبرغم المباشرة التي طبعت القصيدة فقد أضفى عليها القص والسرد حيوية ممتعة تلعب بالمشاعر وتأسرها إعجابا بالموقف النبيل للمعتمد ، إضافة إلى أن تداعياتها أوسع دلالة من معانيها الشعرية المطرزة بشارات العزة وعبق الملك من مثل قوله:

---

(١) ابن عباد في: الديوان، ص ٨٨ .

(٢) السابق، ص ٨٩ .

"وألذ من طعم الخضوع السم"، وقوله: "لم أستلب شرف الطباع".

فهما تشيران إلى الإيمان ببقاء العزة ودوامها باعتبارها طبعا شريفا، كما يشير إلى ذلك: ثبات القلب بين الضلوع.

وفي قوله: "بذلت نفسي كي تسيل". وقوله: "وكان من أملي الرجوع". وقوله: "أجلى تأخر" - إشارات إلى بطولته وجسارته التي اشتهرت وذاعت، ومظاهر هذه الجسارة في العبارات واضحة بجلاء، وتأتي عبارة "والأصل تتبعه الفروع" مشيرة إلى عراقة الملوكية في بني عباد. ولقد أغنى أسلوب القص بالقصيدة عن الاستعانة بالخيال كثيرا؛ لأن الحقائق أقوى تأثيرا في المتلقي وأبعد تأكيدا في نقلها إليه .

وهو أسلوب واضح رائق في بث مواجده يحمل ملامح صاحبه في صراحته وشرفه وشجاعته وشهرته، كما يميزه شاعرا ذا لغة طيعة عالية الأداء، ويلعب التكرار دورا بارزا في نقل التجربة، ففي رفضه الخضوع يوظف التكرار توظيفا ناجحا فيأتي الخضوع الأول في سياق الاستهانة به وبعارضيه والتحقير من التوجه إليه لتقدم قالوا على "الخضوع"، حتى لا يلتفت له ويخلفه وراءه ظهريا، أما الخضوع الثاني فيأتي نكرة ليوضح إلى أي مدى اشتهي الأعداء أن يروه خاضعا ولو في أقل الدرجات، أما الخضوع الثالث فإن الموت أهون منه وهذا الخضوع المرفوض قطع على الأعداء التفكير - مجرد التفكير فيه - لأن الموت دونه.

وكذلك الفعل المضارع "يسلب" مرات ثلاث يأتي في سياق الشك ليبدأ الشاعر بقطع الطريق عليهم حين ظن الكثيرون أن سلب الملك يتبعه سلب الملوكية والمجد، ليأتي المضارع الثاني بنفي جازم لا تردد فيه بأن الملوكية في القلب باقية أبدا، ويأتي المضارع الثالث في أسلوب استفهام إنكاري تقريري، يتركنا واثقين من أن شرفه الرفيع لا مجال فيه للمساومة لأنه طبع راسخ أبداً وترى هذه الخواطر بينة في قصيدته التي رد فيها على رجل حكى

له رؤياه : أن مُلْك بني عباد إلى زوال.

وفي هذه التجربة تتبدى ملوكية المعتمد وتكوينه الديني وبعده الثقافي، وتتوزع القصيدة أصوات ثلاثة تآزرت في نقل أحاسيس المعتمد تجاه هذه النذر وصلابة بنائه النفسي وجسدت التصبر والتحدي والاعتبار. ويكشف تلاقي هذه الأصوات ملوكية المعتمد ورسوخ إيمانه وصلابة عزمته أمام كبريات النوازل فيقول في الصوت الأول:

أيها الناعي إلينا مجدنا ... هل يضير المجد أنْ خَطْبٌ طرَقْ

لا ترع للدمع في آماقنا ... مزجته بدم أيدي الحرقْ

حنق الدهر علينا فسطا ... وكذا الدهر على الحر حنِقْ(١)

وهكذا ينبعث أول أصوات القصيدة بالتجلد والصلابة في الإرادة وتقبل القدر والرضا بما يخبئه، لكن هذا لا يستر شهرة بنى عباد ولا يوارى ملكهم ومجدهم، وهنا يأتي الصوت الثاني في القصيدة فياضا بحميا الفخر والاعتداد بملوكيته وبأرومته الضاربة في العزة والشرف فيقول:

من عزا المجد إلينا قد صدق ... لم يُلَم من قال مهما قَالَ حَقْ

مجدنا الشمس سناء وسنا ... من يرم ستر سناها لم يطقْ

وقديما كلف الدهر بنا ... ورأى منا شموسا فعشقْ

قد مضى منا ملوك شهروا ... شهرة الشمس تجلت في الأفقْ

نحن أبناء بني ماء السما ... نحونا تطمح ألحاظ الحدقْ(٢)

إن المعتمد يعيدنا إلى الفخر القبلي بعد مضي ثلاثة عصور أدبية ليسعفه في تأكيد مجدهم الممتد منذ ملوك الحيرة أرباب الخورنق والسدير وليس

---

(١) ابن الأبار القضاعي في: الحلة السيراء، تحقيق رينهارات دوزي، ص ٦٩ .

(٢) السابق نفسه .

لأحفادهم إلا ما يليق بالآباء والأجداد، والشيء لا يستغرب من معدنه فهو يستعلي في هذا الصوت متدثرا بملوكيته وعزة آبائه وشهرة أجداده وأرومته، ويأبى في ختام التجربة إلا أن يعود من الفخر الجاهلي يركن إلى عقيدته الراسخة؛ ليأتي صوت الختام، يحمد الله أن لم يجعل مصيبته في دينه فقد شبع ملكا وبقى له في نفسه فوق ما ذهب من يده.

وإذا ما اجتمع الدين لنا فحقير ما من الدنيا افترقْ
حججا عشرا وعشرا بعدها وثلاثين وعشرين نسَقْ
أشرقت عشرونَ من أنفسها وثلاث نيرات تأتلِقْ[1]

وإن بيتا يبقى في الملك قرنا لهو بيت أنجب ملوكا خالدين على الأيام لا تغيب لهم شمس ولا يغفل عنهم تاريخ، وعندما يأتي في البيت الثالث إلى فترة ملكه تتيقظ ملوكيته فتجعل الفترة تأتلق شهرة وضياء.

وفي نظرة لطرق التعبير نجد الكثير منها لافتا للنظر؛ ففي الصوت الأول يتجاور المجد والشرف والملك مع العزاء والنعي والخطوب والدموع؛ ليصنع التجاور لونا من المفارقة الحادة التي تكشف ذيوع مجدهم وغلبة شهرتهم وملوكيتهم مع تكرار المجد، مما جلب عليهم الحسد وحنق الدهر.

على أن الصور البيانية سهلت وصول التجربة إلينا تشخيصا وتجسيما وأظهرت ملوكية المعتمد ورفعة بيته من مثل: "أيها الناعي إلينا مجدنا". وقوله: "هل يضير المجد أن خطب طرق" و "قديما كلف الدهر بنا". "حنق الدهر علينا" "ملوك شهروا شهرة الشمس"، "ورأى منا شموسا"، والتعبير بضمير الجماعة للتكلم يجسم ملوكيته ويجلي عظمته ومجده ويسعفه في فخره الضارب في المجد والتاريخ معا من مثل قوله: "عزا المجد إلينا"، "مجدنا الشمس"، "الناعي إلينا مجدنا"، "حنق الدهر علينا" ومضى منا ملوك، كلف

(١) السابق، ص ٧٠ .

الدهر بنا، نحونا تطمح، نحن أبناء، وهذا يكشف اعتداد الرجل وهو صادق فيما ذهب إليه، وناجح في التعبير عنه حيث علت الأنا في القصيدة ليعلو المعتمد على ما حدث.

وقد وظف التجنيس لإفشاء الحس الموسيقي المعين على التجربة من مثل قوله: "سناء وسنا"، بجانب التصريع في المطلع واستمرار الروي الساكن مما يعكس رزانة الملوك وعظمة أحلامهم وهيبتهم.

وعندما سيق الملك معتقلا إلى المغرب طلب من حواء بنت تاشفين أن تعيره خباء فاعتذرت فقال قصيدته الرائية، ومنها:

هم أوقدوا بين جنبيك نارا ... أطالوا بها في حشاك استعارا
أما يخجل المجد أن يُرحلو ... ك ولم يصَحبوك خباءً معارا
فقد قنعوا المجد إن كان ذا ... ك وحاشاهم منك خزيا وعارا
يقل لعينك أن يجعلوا ... سواد العيون عليكم شعارا(١)

لقد وصلت الرسالة التي أرادوا للمعتمد فأحس أن القضية أبعد من الخباء، إنها محاولة لإذلاله ولعب بمعنوياته استخفافا بمكانته، فسرت العزة في دمه، واستعلى على صغارهم، ولقنهم درسا في التحضر وطريقة التعامل مع الملوك ليبقى هذا الدرس على مر الأيام؛ لقد بين أن ما فعلوه إنما هو سُبَّة في جبين المجد والشرف يجلب لهم العار والخزي فكيف يحاولون طمس مجده؟ وهم لا يملكون الوفاء بما فعله لهم وهم العاجزون عن توفيته حقه، حتى لو بذلوا له سواد عيونهم.

وفي التعبير عن محاولتهم الفاشلة وسرفهم في اللؤم يوظف خياله مثل: "أوقدوا بين جنبيك نارا" و "أطالوا بها استعارا" في عبارتين وضحتا حرص أعدائه على الاستمرار في اللؤم والصغار والحمق بطريقة تكشف عجزهم

---

(١) المعتمد في: الديوان، ص ٩٧ .

عن معاملة الملوك وخلوهم من المروءة.

وفي الاستعلاء على صغارهم وإظهار ملوكيته يوظف خياله البياني في الكشف عما رمى إليه حين جعل المجد يأنف ويخجل من همجيتهم ليرسم استهجانه لقبح فعالهم وغدرهم ودهشته من استيلاء مثل هؤلاء على مقاليد الأمور وهم خلو الوفاض مما يؤهلهم لها، وهذا تعبير ملك ينبع من أحلام رزينة بعيدة الأناة لا تستخفه سفاسف الأمور.

ويأتي قوله: "ولم يصحبوك خباء" اختيارا موفقا، فلم يقل: يعطوك خباء أو يمنحوك، لقد نفر من كل تعبير يجعل له عند اللئيم حاجة، لذلك انحرف إلى "يصحبوك" وهو الملائم لعزة الملوك وإبائهم، وفي تعبيره الطريف "قنّعوا المجد" إشارة إلى استخفاف المعتمد بتفكيرهم وهل يحاول ستر المجد والفخار إلا من حرم الذوق والعقل؛ وهو تعبير مجازي جديد يجعل المتلقي ساخرا مستهزئا بهم ويأتي قوله: "يقل لعينيك" اعتدادا بما قدمه لهم فغدروا ونسوا وأوردوه جزاء سنمار.

وكان يمكنه القول: "ويجعلوا سواد العيون عليك" لكنه قال: "يجعلوا سواد العيون عليكم"؛ وهو التفات رائع يترك المتلقي مكبرا للملك الذي أكبر نفسه واعتز بملوكيته وجعل دونها بذل سواد عيونهم الذي يتضاءل أمام عظمة ملكه ومجده التليد.

ودخل عليه ولده الأثير أبو هاشم فارتاع للقيد فبادر أبوه قائلا للقيد:

ارحم طفيلاً طائشا لبُّه لم يخش أن[1] يأتيك مسترحما

في هذه التجربة يبرز إبقاء الملوكية والعزة في أبنائه ويشفق أن يزل أحدهم أو ينسى آباءه الملوك؛ فيفسد تقاليد الملك التي لقنها لهم فيحزنون الملك، ويؤذون مشاعره بالذهول عن شرف الملك وتقاليده والنزول عن رتبتهم، حين يسترحمون القيد لأبيهم دون خشية على ملوكيتهم وهو يصور خوفه على

(١) لعلها إذ يأتيك مسترحما ليرفع الفعل بالضمة المقدرة فلا تختل التفعيلة مستفعلن ولا يختل الرجز .

مجدهم قائلا: "ارحم طفيلا طائشا لبه"؛ فهو يسترحم القيد لأبي هاشم حتى لا يسقط من علياء العزة إلى مهاوي الذل، أرأيت إلى أي مدى حسب للملوكية كل حساب؟!

أما قوله: "لم يخش أن يأتيك مسترحما"، فيكشف في أداء رفيع أنَّ تذلل أولاده أكبر ما يؤذيه ويرميه في مقتل حتى وإن عز إدراك ذلك على الأمير الغر الذي غفل في غمرة الحزن عما يحزن أباه؛ وفيها استعارة طريفة وعميقة تضيء عالم الشاعر للمتلقي وثبات ملوكيته دائما.

وهذه التجارب الأربع التي سلفت جاءت حديثا بين المعتمد وبين نفسه بعد أن دفعه إلى هذا الحديث مؤثر خارجي، ولكن هذا الحديث بين الملك ونفسه قد لا يحتاج دافعا خارجيا فهو يفيض تلقائيا في داخل النفس يقارن فيه بين ما كان له في أبهة الملك وسطوته وما صار إليه أمره حين فلت الأيام ملكه وقد تخيرت من هذه التجارب أربعا كسابقتها.

وفي أولى تجاربه هذه تعقد الدهشة عقله فيكاد لا يصدق ما جرى، لا سيما وهو نبعة المروءات والأريحية وفيض جود يغمر المعتفِّين سَيْبَه، وصدق ابن اللبانة إذ قال عنه :

أنت علمتني السيادة حتى ... ناهضت همتي الكواكب قدرا

لم تمت إنما المكارم ماتت ... لا سقى الله بعدك الأرض قطرا[١]

إنه الشجاع لا نظير لشجاعته والشاعر الذي أكرم الشعراء وقطع ألسنة الوشاة وترفع عن الصغائر وهزم أعداءه فكيف يحدث له ما حدث:

قُبّح الدهر فماذا صنعا ... كلما أعطى نفيسا نزعا

قد هوى ظلما بمن عاداتُهُ ... أن ينادي كل من يهوى لَعَا

---

(١) المعتمد في : الديوان، ص ١٠٥ .

من إذا الغيث همي منهمرا أخجلته كفه فانقطعا

من غمام الجود من راحته عصفت ريح به فانقشعا

من إذا قيل : الخنا صُمَّ وإن نطق العافون همسا سَمِعَا

قل لمن يطمع في نائله قد أزال اليأسُ ذاك الطمعا

راحَ لا يملكُ إلا دعوةً جبَرَ اللهُ العفاةَ الضيَّعا(١)

تقطر القصيدة دهشة وعجبا مما خبأ القدر له، ويأتي عنف المفاجأة من أنه كان مصدر المروءات بالأندلس، فكيف جرى له ما جرى فأين يذهب العفاة؟ وهو لا يملك لضياعهم بعد زوال ملكه إلا الدعاء بأن يجير الله كسرهم.

إنه لا يلعن الدهر فهذا منهي عنه وإنما جعل ما حدث مقبوحا مرفوضا. وقد ثار المعتمد على طالعه ثورة عارمة جعلته يقرع هذا الطالع " قبح الدهر فماذا صنعا " ليكشف دهشته ومفاجأته، وقد نجح كثيرا حين عثر على الأسلوب المناسب للكشف عن هذه الدهشة، إنه أسلوب الطباق الذي أبرز التناقض وسجل المفارقة المؤلمة بين ما كان فيه وبين ما صار إليه ولم يخل بيت من هذا الطباق الذي عمل عمله بإتقان في رسم صورة تثير الاستغراب وتضاعف الدهشة أمام تقلب الأيام وسرعة مداولتها بين البشر ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾(٢).

من مثل: أعطى * نزعا، وهوى ظلما * ينادي لعا، وهمي * فانقطعا، الجود من راحته * فانقشعا، صم * سمعا، ويطمع * اليأس.

لقد فعل الدهر ما فعل بالمعتمد وهو لا يعبأ إلا بالرعية والعفاة الذين ضاعوا بعده، إنه في الخاتمة يدع انقلاب الأيام عليه ويتركه جانبا، وبدلا من أن ينشغل بمأساته، تراه يخلد إلى التفكير في قضاء حوائج العفاة، من لهم بعده؟ أليست هذه ملوكية الملوك؟ ومسئولية الرعاة والعروش تجاه الأمم؟!

---

(١) المعتمد في: الديوان، ص ١٠٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية رقم ١٤٠.

مع أنباء أسره:

وتأتي كالصاعقة على الناس أخبار أسر المعتمد ونفيه فيقول:

أنباء أسرك قد طبقن آفاقا بل قد عممن جهات الأرض إقلاقا
سرت من الغرب لا يطوى لها قدم حتى أتت شرقها تنعاك إشراقَا
فأحرق الفجع أكبادا وأفئدة وأغرق الدمع آماقا وأحداقا
قد ضاق صدر المعالي إذ نُعِيتَ لها وقيل: إن عليك القيد قد ضاقا(١)

إن المعتمد يرسم لوحة لملوكيته الباقية في صدور الناس وقلوبهم بعد زوال ملوكيته من التاريخ وإن الحب والإكبار للملك لن ينتهي بانتهاء ملكه وأسره، وقد فسر المعتمد مظاهر هذا الحب والإكبار من الرعية لمليكهم في عدة أمور:

سرعة انتشار أسره في الآفاق والقلق الذي عم الأنحاء، الحزن العارم الذي مزق الأكباد فبكت العيون طوفانا من الدموع، أما المثل العليا والمروءات فهي في ضيق وكرب لا ينتهي.

وترسم الكنايتان "طبقن آفاقا"، "عممن جهات الأرض" صورة لحب الملك والوفاء له والأمان الذي زال بزواله، أما الاستعارتان: "لا يطوي لها قدم"، "أتت شرقها تنعاك" فقد كشفتا عن سرعة التعاطف مع المعتمد وما له في القلوب التي حزنت وشق عليها ما ألم به وتجاوب الناس جميعاً بسرعة هائلة حول الأنباء المؤسفة أما صدمة الناس فتشير لها الاستعارتان: "أحرق الفجع أكبادا وأفئدة" و "أغرق الدمع آماقا وأحداقا"، إن الفجيعة قد أتت على الأكباد والأفئدة فأحرقتها، وهذا أبلغ الحزن والأسى، أما البكاء فقد فاض طوفانا يغرق العين ويسدها سدا وهو موكب جنائزي حاد يكشف ما للمعتمد من إخلاص في قلوب رعيته التي أحبته الحب كله، وحسبه من ملوكيته أن تبقي حية في صدور الناس تحرسها

---

(١) السابق، ص ١١٠.

مآثره النبيلة المحفورة في حواشيها.

مع قصوره الباكيات:

بكي المبارك في إثر ابن عباد ... بكى على إثر غزلانٍ وآسادِ
بكت ثريَّاه لا غُمّت كواكبُهَا ... بمثل نوْءِ الثريا الرائحِ الغادِي
بكى الوحيدُ بكى الذاهي وقبَّتُه ... والنهرُ والتاجُ كلٌّ ذلُّه بادِي
ماءُ السماءِ على أبنائه دُرَرٌ ... يا لجةَ البحرِ دُومي ذات إزبادِ(١)

يستعيد الملك المخلوع في (أغمات) شواهد ملكه السليب، ويحكي بكاء قصوره عليه في مملكته الأندلسية وعلي أسرته التي عمَّرتها أيامَ العزِّ والملك، وهي بكائية مؤثرة ترسم الوفاء للملك وتصور حبه الساكن فيها له ولأسرته، وللمكان حضوره في مثل هذه النكبات لأن مشاهد الحياة ترتبط بالمكان والزمان وتحرك الذكريات الكامنة، وتفجر تداعيات هامة تسهم كثيرًا في رسم مشاعر المبدعين. والبكاء علي الأطلال أمر سَنَّه الملك الضليل فطاب للشعراء بعده وباركه النقاد، ألا يحق للمعتمد أن يبكي على قصوره وتبكي عليه، إن المبارك والثريا والوحيد والزاهي كلها بكاء وقبابها تبكي والتيجان والنهر الكبير، لم يبق شيء حتى أجداده المناذرة إلا وبكوا عليه أسفاً وتعاطفاً.

وقد لجأ المعتمد إلى عدد من الوسائل التعبيرية التي أنضجت تجربته وجلتها لنا وفي مقدمة هذه الوسائل التكرار اللافت للنظر؛ فقد كرر البكاء عليه ست مرات ظاهرة وتسعة ظاهرة وباطنة؛ لأن العطف يقتضي تكرار العامل "بكي الزاهي وقبته والنهر والتاج"، وفي تكرار البكاء إلحاح على إثبات ما له من مودة وحب حتى لدى الجمادات التي أحبته فبكت فراقه وأحست رحيله وتشخيص القصور بإسناد البكاء إليها فيه ما فيه من الارتباط بها والحنين إليها وكأن المشاركة الوجدانية قائمة بينهما تفعل فعلها.

---

(١) الفتح بن خاقان في: قلائد العقيان، ص ٢٤ .

ولا يكتفي المعتمد بهذا البكاء بل يطلب استمراره ودوامه "يا لجة البحر دومي ذات إزباد" علي أن التورية بماء السماء إشارة إلي عمق المأساة التاريخية حيث يبكيه المناذرة وهو تخليد لمأساته وتأتي ملوكيته من موكب البكاء ومفردات هذا الموكب فهل تبكي القصور والتيجان والقباب والأنهار والمناذرة والبحار إلا علي ملك وعلي من إذن تبكي إذا لم تبكه؟.

لم يفقد المعتمد طموحه في انفراج الغمة لكن عناد الخطوب يقف بالمرصاد والأيام لا تثبت على حال فيقول:

تؤمّل للنفس الشجية فرجةً وتأبى الخطوبُ السُّودُ إلا تماديا
لياليك من زاهيك أصفى صحبتها كذا صحبت قبلُ الملوكُ اللياليا
نعيم وبؤس ذا لذلك ناسخ وبعدهما نسخ المنايا الأمانيا(١)

من حق المعتمد أن يأمل في انفراج الأمور؛ لأنه أُخذ غدرًا وحقدا دون جريرة بعد أن بالغ في مودتهم وتوقيرهم والوفاء لهم فهو القائل لقائدهم:

ولولاك يا يوسف المتقى رأينا الجزيرة للكفر دارا
ستلقى فعالك يوم الحسا ب تنثر بالمسك منك انتشارا
وللشهداء ثناء عليك بحسن مقامك ذاك النهارا(٢)

إن أحلام المعتمد في الانفراج تدخله إلى تذكر ليالي أنسه التي ضمتها قصوره الفواحة بأريج العز وطيوب الرضا صحبته فيها الليالي، لكن تعاور النعيم والبؤس قدر المؤمن والمنايا لا تبقى ولا تذر.

وفي تعبيره عن تجربته التي تقع بين الرجاء واليأس يلجأ المعتمد إلى عدة وسائل موفقة تتصدرها المقابلات التي تلائم التأرجح بين الرجاء واليأس وتأتي

---

(١) السابق، ص ٢٦ .

(٢) المعتمد في: الديوان، ص ص ٩٧ - ٩٨ .

المقابلات بين: المنايا * الأمانيا، تؤمل * تأبى، النعيم * البؤس؛ وهي تعين على إبراز طبيعة الأيام وتقلبها بالناس وصعوبة الاطمئنان إليها.

وتأتي الاستعارات "تأبى الخطوب" و "صحبت الملوك الليالي" لتشير إلى أن دوام الحال من المحال وأن الثبات إلى تغير وأن الأيام منتقلة .

المحور الثاني – مع أسرته:

أولا- الزوجة: إن زوجته الرميكية كانت قريبة من قلبه دائما، ولقد عبر لها عن حبه بطرق شهيرة في التاريخ لا تزال تروى قصصها ولن تزال، وهي الآن تحاوره عما صار المعتمد إليه، في إجلال، وتسائله عما ذهب من سلطان وجاه، ويجيبها الملك في بساطة وإيجاز يقرنهما بالأداء المتقن قائلا:

قالت : لقد هنّا هنا   مولاي أين جاهنا ؟

قلت : لها إلى هنا   صيّرنا إلهنا[١]

إن التسميط بقوافيه الأربع التي عزفت في النص لحنا شجيا جاء غاية في العفوية والإيجاز؛ فالملك موقِنُ الإيمان بأن ما حدث قدر الله، لا راد له وهو رد يليق بالموقف، ويلعب الحوار في الموقف دورا بعيدا: في أناة الملك، والكشف عن إيمانه العميق، وعقله الراجح، وجاء توزيع الإيقاع موفقا من ثلاثة اتجاهات: جاء الأول من القافية المتقنة التي جاءت نهاية طبيعية للمعنى ثم حسن اختيار حروفها الملائمة للموقف الشعوري حيث النون المتبوعة بألف لينة تتسع للأناة والتأمل والإقناع، ويأتي الثاني من التجنيس الذي توزعت موسيقاه على أبعاد ثابتة مشجية، فرجَّعت نغما ثابتا تطيب به النفس وتنتظره ويقع التجنيس بين هُنَّا * وهُنَا، وبين إلى هنا * وإلهنا، أما الاتجاه الثالث فينبع من التكرار فقد انداح حرف الهاء مرات ستا؛ مما أفسح المجال للتنهدات وتفريج ما بالصدور والجوانح. ويختم التجربة بالتسليم، وهل الأمر كله إلا لله من قبل ومن بعد؟ وقد قالت اعتماد الرميكية للمعتمد بعد النكبة: "والله ما رأيت منك خيرا". فقال لها: "ولا يوم

---

(١) المعتمد في : الديوان، ص ١١٤ .

الطين؟! فاستحييت وسكتت[١]" .

ثانيا- بناته: لقد حركت بناته همومه الدفينة وأشعلت قلبه حزنا وخلفن له أسى وحسرة، لم تخلفها له الأحداث على كثرتها لضعفهن وقلة حيلتهن وسرعة تغيرهن من النعيم إلى البؤس والشقاء، وهذا وحده ما يوجع قلبه ويمزق كبده، لقد عاد أبو العلاء زهر بن عبد الملك طبيب القصر الملكي من مراكش فطلب منه المعتمد أن يزوره ويعود بناته معالجا فهن في حاجة إلى طبه ففعل ابن زهر ودعا للمعتمد بطول البقاء:

فنكأ دعاؤه الجرح وبعدها كتب المعتمد هذه القصيدة وأرسل بها إليه :

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى ... أسير أن يطول به البقاءُ

أليس الموت أروحَ من حياةٍ ... يطول على الشقيّ بها الشقاءُ

أأرغب أن أعيش أرى بناتي ... عواري قد أضرَّ بها الحفاءُ

خوادمُ بنتَ من قد كان أعلى ... مراتِبَهُ إذا أبدو النداءُ[٢]

ترتكز التجربة على تصوير آلام طفح بها الكيل، تعتصر قلب المعتمد حتى كره العيش، وآثر الموت: إن الملك يسجل في القصيدة تناقضا مؤلما بين يومين في حياة بناته: اليوم الذي كان لهن، واليوم الذي عليهن عندما رآهن خادمات ذليلات حافيات يخدمن لكسب قوتهن حتى لو كان المخدوم ابنة المنادي المنظم لمسيرة موكب أبيهن سابقا.

لقد اضطربت الرؤى الشعرية أمامه واهتزت، ففي البداية يفضل الموت هربا من الشقاء فيرفض الدعاء بالبقاء الذي تمناه ابن زهر، ثم يعود آخر القصيدة ليتقبل الدعاء ويطري صاحبه داعيا له قائلا:

ولكن الدعاء إذا دعاه ... ضمير خالص نفع الدعاءُ

جزيت أبا العلاء جزاء بَر ... نوى برا وصاحبك العلاءُ

---

(١) المقري في كتابه: نفح الطيب، ١/٤٤٠ .

(٢) عبد الواحد المراكشي في: المعجب، ص ١٠٩.

سيسلي النفس عمن فات علمي ... بأنَّ الكلَ يدركُهُ الفناءُ[١]

ثم يتحدث عن بؤرة المأساة :

أأرغب أن أعيش أرى بناتي ... عواري قد أضر بها الحفاءُ

خوادم بنت من قد كان أعلى ... مراتبِه إذا أبدو النداءُ

وطردُ الناس بين يدي ممري ... وكفُّهمُ إذا غَصّ الفناءُ

وركضٌ عن يمين أو شِمالِ ... لنظم الجيش إنْ رُفعَ اللواءُ

يعنيه أمامَ أوْ وراءَ ... إذا اختل الأمامُ أو الوراءُ[٢]

يصور الملك مأساة بناته ومأساته وتقلب الأيام بهما لنعذره حين يفضل الموت على مثل هذه الحياة.

لقد علت ملوكية ابن عباد هنا وترفعه حين فوجئ بقهر بناته وتحول العز، عنهن، وللبنات ما لهن في قلوب الآباء.

ولم يملك المعتمد إلا صب الغضب على تهميش هذا المنادي والاستخفاف بدوره ونزول رتبته، فهو أهوج يصرخ وينادي ويجري بين يدي الملك هنا وهناك خفيفا أرعن وهو توجه موفق فنيا؛ فإن تصغير الرجل على هذا النحو تضخيم للتناقض وتوسيع للهوة بين أميرات الأمس وخادمات اليوم، وهو مقطع مؤلم حاد يموج بالحركة والحيوية وينقل لنا منظر المنادي أرعن خفيفا يتقدم ويتأخر ويجري ويتلفت ويرصد توافه الأمور؛ مما يضاعف إحساسنا بالتألم والمرارة أن تعمل أميرات إشبيلية في خدمة ابنة رجل كهذا. ويأتي النجاح الفني من عثور المعتمد على ما يلائم عالمه الشعري إذ تخير بعناية وسائل الوصول إلى المتلقي فقد استند إلى أسلوب السرد القصصي ليتيح له تعميق الشقاء ورصد مظاهره العديدة حتى لا نعجب لرغبته عن الحياة، فقد كرّهت

(١) السابق، نفسه .

(٢) السابق، نفسه .

مأساة بناته الحياة إليه حين رأى ذلهن وعجزه عن تدارك الأمر.

وفي سبيل مضاعفة الهموم وحِدَّتها يرتكز على المفارقة التصويرية ليبرز صور التناقض العديدة التي تؤلم وتوجع مثل: الموت * الحياة، الراحة * الشقاء، لقاء حب * لقاء الحتف، يمين * أو شمال، أمام * ووراء، كما يلعب الخيال الجزئي دورا جيدا في تحديد التجربة وجلائها من مثل قوله: "أضر بها الحفاء". للكشف عن فقرهن وذلهن وقوله: "صاحبك العلاء"؛ إنه يتمنى لابن زهر ما حرم هو منه وهو استمرار العلاء ودوامه. وقد لعب الصدق دورا طيبا في نقل التجربة إلى المتلقي والتأثير في إلهاب مشاعره ليحس هول ما عاناه صاحبها. وقد وثبت ملوكيته حين فوجئ بأميرات القصر يعملن عند خادم أبيهن وهي صدمة بالغة الإيلام لا تكاد تصدق، فلو جاءت بها الحيل الروائية لصعب تصديقها فكيف بمن يكتوي بحقيقتها وجمرها، ولأن المعتمد ملك فقد ذهب مذهبا يليق بملوكيته فركز على تهميش مناديه وخفته ورعونته وضآلة دوره؛ إذ ليس الذنب ذنبه ولكنها الأيام يداولها الله بين الناس اختبارا وعبرة للمتدبرين.

وعندما رأى بناته يوم العيد فرأى من ذلهن وقهرهن ما رأى انتفض ليجد نفسه عاجزا فقال قصيدته الشهيرة في العيد وهو سجين بأغمات، ومنها :

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغمات مأسورَا
ترى بناتك في الأطمار جائعةً يغزلن للناس ما يملكن قطميرَا
يطأن في الطين والأقدامُ حافيةٌ كأنها لم تطأْ مسكًا وكافورَا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا فردك الدهرُ منهيا ومأمورَا
من بات بعدك في ملك يسرُّ به فإنما بات بالأحلام مغرورَا(١)

إن فتك الزمان بفلذات الأكباد وعجز الآباء لهو أقسى ما يعانيه الحر، فإذا كان ملكا خر من عليائه تضاعفت المأساة وحز الخطب في الأكباد الجريحة

---

(١) أبو الفداء في: تاريخه، ٢٩٧/٢ .

لأنه لا يملك إلا تذكر عزه ومجده وإبراز التباين بين أمسهن ويومهن وبين أبيهن آمرا وبينه مأمورا.

والمعتمد يورد بناته في مرثياته لمقتل أبنائه مضاعفة للحزن وتعميقا للهم والأسى، كما يوردهن في شكوى القيد والأسر، لأن جرحه في أميرات الأمس استعصى على الشفاء بعد أن حدث لهن ما حدث.

مع رثاء أولاده :

كان المعتمد قد وزع أولاده على أقاليم مملكته يحكمون باسمه، وكان له مائة وثلاثة وسبعون ولدا، فلما زال ملكه هوجموا وقتل منهم من قتل، وقد وصلنا رثاؤه أربعة منهم هم: المأمون والراضي والفتح ويزيد.

وهو يرثي الفتح ويزيد بعد أن قتلا صبرا بين يديه فيقول:

يقولون صبرا لا سبيل إلى الصبر ... سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه ... يزيد فهل عند الكواكب من خبْرِ
نرى زهرها في مأتم كل ليلة ... تخمش لهفا وسطه صفحة البدرِ
ينحن على نجمين أثكلت ذا وذا ... وأصبر ما للقلب في الصبر من عذرِ
مدى الدهر فليبك الغمام مصابه ... بصنويه يعذر في البكاء مدى الدهرِ
بعين سحاب واكف قطر دمعها ... على كل قبر حل فيه أخو القطرِ
وبرق ذكي النار حتى كأنما ... يسعر مما في فؤادي من الجمرِ
أفتحٌ لقد فتحت لي باب رحمة ... كما بيزيد اللهُ قد زاد في أجريِ
فلو عدتما لاخترتما العودَ في الثري ... إذا أنتما أبصرتمانيَ في الأسرِ(١)

وتبدو ملوكية المعتمد في ركونه إلى العلا وتحليقه في آفاق السماء ليصور خياله المكانة السامية التي تناسب مشاعر الملك، وهو يرثي فلذات

---

(١) العماد الأصفهاني في: فريدة القصر، ١٥١/١١ .

كبده، إنه يحيل العالم العلوي السماء والنجوم والكواكب والسحب إلى موكب جنائزي يبكى الكوكبين اللذين سقطا في الأرض بحرقة، حتى البرق الأحمر يستمد ناره من قلب الأب الملتاع المحترق الصدر، وينتهي الموكب الجنائزي العلوي باحتساب الفقيدين عند ربهما طمعا في ثوابه تعالى ومغفرته.

وتأتي طرائق التعبير مؤدية تنقل بشكل جيد ملامح الحزن والثكل فالصبر المنفي يتكرر كثيرا في القصيدة ليشير إلى الجزع المفرط الذي أصاب الملك في أولاده.

أما البكاء والثكل والمأتم والقبر فهي تكشف تفشي الحزن وعموم الأسى على الفقيدين في السماء والأرض.

وقد كان الخيال الخصب في القصيدة معينا طيبا استمدت منه التجربة كثيرا من نجاحاتها خذ مثلا هذه الاستعارات: "هوى الكوكبان"، "ترى زهرها في مأتم كل ليلة"، "ينحن على نجمين"، "فليبك الغمام مصابه"؛ وهي صورة ترفع موكب الفقيدين وتسمو بمكانتهما إلى الآفاق والسماوات العلا.

أما البكاء على الفقيدين فقد أراده الشاعر مدرارا لا يتوقف وقد ساق في تجربته ما يعين على استمرارية البكاء ودوامه مثل قوله: "سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري"، "مدى الدهر فليبك الغمام"، "يعذر في البكاء مدى الدهر"، "تجدد طول الدهر"، وهل يوفي هذا حق الأميرين القتيلين في عمر الزهور، أما حزنه وأسرته فقد تضاعف على الفقيدين أضعافا.

"ففؤاده يشتعل جمرا" لعظم الثكل، وقوله: "هوى بكما المقدار عني ولم أمت" فلقد كان يتمنى الموت قبلهما أما قوله: "ولم تلبث الأيام أن صغرت قدري"، فإنها ترينا حجم الأحزان المتراكمة في صدر الملك طبقات بعضها فوق بعض، ومما يضاعف الحزن الأم وبناتها، فالحزن يميتهن أو يكاد لكن التقوى وخشية الله تعينهما كقوله: "مغي الأخوات الهالكات"، "والثكلى المضرمةُ الصدر".

فتبكي بدمع ليس للقطـر مثلُـه وتزجرها التقوى فتصغي إلى الزجرِ

إنه من أعظم أبيات الرثاء لأنه ينقل حقيقة وضع المؤمن عند نزول الشدائد العاتية به فهو بين البكاء الغزير وبين مراعاة ما يرضي الله أو بين الرحمة والاعتبار.

أما قوله :

فلو عدتما لاخترتما العود في الثرى إذا أنتما أبصرتمانيَ في الأسـرِ(١)

فيكشف ثقة الملك في تصرفاتهما الملوكية الكبيرة بحيث لو حدث المستحيل وعادا إلى الحياة وشاهدا الملك الأب أسيرا لاختارا الموت حتى لا يشهدا أباهما في هذه الحالة القاسية.

إن المعتمد على كبر ثكله وعظم مصيبته بفقدهما يواري نفسه مما أصابه القدر به فيقرر أن ملوكيتهما تأبى عليهما الحياة والملك الأب يعاني ما يعاني، وهو من المعاني الرفيعة بالقصيدة والمرثية مبكية حقا تثير كوامن الأسى للمتلقي، وتقنعه بأن الحزن هنا حزن ملك وأن الأميرين الفقيدين كانا يتصرفان تصرف الملوك والنبلاء، وهي طبقة أحزان قاتمة مؤلمة تضاف إلى طبقات الأحزان الراسخة في أعماق الملك الجريح .

المحور الثالث- مع الشعراء:

أولا: شاعره الداني أبو بكر بن اللبانة الذي جاء أغمات وفاء لممدوحه فأعطاه المعتمد اليسير لأنه صار معدما بعد أن جرده يوسف بن تاشفين من عرشه وماله فقد "أخذ كل شيء يملكه المعتمد وترك أولاده فقراء(٢)".

---

(١) المعتمد بن عباد في: الديوان، ص ١٠٦ .

(٢) الحافظ الذهبي في : العبر، ٣/٣٠٤ .

وقال المعتمد له:

إليك النزر من كف الأسير فإن تقبل تكن عين الشكورِ
ولا تعجب لخطب غض منه أليس الخسف ملتزمَ البدورِ
ورَجٍّ بجبره عقبى نداه فكم جبرت يداه من كسيرِ
وكم أعلت علاه من حضيض وكم حطت ظباه من أميرِ
وكم أحظى رضاه من حظيٍّ وكم شهرت علاه من شهيرِ
وكم من منبر حنت إليه أعالي مرتقاه ومن سريرِ[1]

يعتذر المعتمد لشاعره حياء من قلة العطاء، راجيا منه التأميل في عودة العرش لمليكه ليعود العز والجود والخير على العفاة، وقد جرته التداعيات إلى مظاهر فضله وأبهته فعددها صادقا خاتما التجربة بالتسليم لحكمة الله وقدره في تعاقب الخير والشر.

وهي تجربة استرجاع مليئة بالتداعيات وظف فيها المعتمد الخطاب الشعري توظيفا موفقا، كشف عن ملوكيته ولقد لعب الزمن دورا حيويا في التجربة، ولأنه يؤكد ملوكيته للمتلقي فقد ساد الفعل الماضي مثل: "جبرت- أعلت- حطت- أحظي- شهرت- حنت- تنافست- تراجعت- نظرت- مضت"، حتى يؤكد بجلاء أنه كان مصدر النبل والخير فكيف يجرى له ما جرى ثم يضمن التدليل على ملوكيته.

هذا التشبيه الموفق المشير إلي عظمته ورفعته "أليس الخسف ملتزم البدور" وليزيد التوكيد على ملوكيته يلجأ إلى حرف الجر الزائد فيورده ست مرات، مضيفا إلى تأكيداته واحدا من أقوى هذه الوسائل ليدع المتلقي مكبرا لسلطانه وعظمة ملكه، الذي زال الخير بزوالها حتى لم نعد نراها في سواه لكنه قدره المقدور له لتأتي خاتمة القصيدة مقنعة للنفس، فتستقر وتتمكن وتمد للمتلقي من الحزن مدا على أيام بنى عباد وملوكيتهم الباقية في النفس:

---

(١) العماد الأصفهاني في: الخريدة، ١٥٣/١١.

فقد نظرت إليه عيــون نحــس مضــت منــه بمعــدوم النظيــرِ
نحوس كن فــي عقبــي ســعود كــذاك تــدور أقــدار القــديرِ[١]

حتى قال الداني:

لم تمت إنمــا المكــارم ماتــت لا سقى الله بعدك الأرض قطرا[٢]

ثانيا – ابن حمديس الصقلي:

جاء أغمات زائرا المعتمد فصرفه الخدم وعلم المعتمد، فكتب إليه يوضح له الأمر ويعتذر: .

حجبت فلا والله ما ذاك عن أمري فاصغ فدتك النفس سمعا إلى عذري
فما صار إخلال المكارم لي هوى ولا دار إخجال لمثلك في صــدري
ولكنــه لمــا أحالــت محاســني يد الدهر شلت عنك دأبا يد الــدهر
عدمت من الخدام كــل مهــذب أشير إليــه بــالخفى مــن الأمــر
ولم يبق إلا كــل أدكــنَ ألكــنٍ فلا آذنٌ في الأذنِ يبرأُ مِــن عــرِ
حمار إذا يمشي ونســر محلــق إذا طــار بعــدا للحمــار وللنســر
وليس بمحتــاج أتانــا حمــارهم ولا نسرهم مما يحن إلى وكــر[٣]

إن ملوكية المعتمد لم تفارقه في اعتذاره هذا فهي ظاهرة فــي تصــرفاته المطبوعة على أبهة الملك والعظمة، فهو يتحدث عن الحجَّاب والخدم والحشم وإصدار الأوامر والنواهي في دخول مجلسه أو منعه والإشارات الخفية لإدارة الملك وتصريف الرعية، وتفيض الأبيات بالتوفيق في طرق الأداء وقد كثــر التعبير الكنائي من مثل قوله: "أشير إليه بالخفي من الأمر"، وقوله: "فــلا آذن

---

(١) السابق، نفسه.

(٢) المعتمد في: ديوانه، ص ١٠٤.

(٣) عبد الجبار بن حمديس في الديوان، ص ٢٣٦ .

في الإذن يبرأ من عر،" والكنايتان تشيران إلى نوعية الخدام: فخدام الأبهة والملك أذكياء يفهمون الأوامر بإشارة خفية، أما خدام اليوم فأغبياء حمقى يقصرون في أقدار الناس دون وعي، وقوله: "محاسني" على طريقة منتهى الجموع تكشف كثرة هذه المحاسن وشهرتها، وأما قوله: "وليس بمحتاج آتانا حمارهم" "ولا نسرهم ممن يحن إلى وكر" ففي التعبيرين المجازيين جدة وبراعة إذ كشفا رفعة ذوق العبارة الملوكية وسمو إشارتها البعيدة في التعبير عن خلو خدمه الآن من مشاعر الألفة والمودة والأنس وميلهم إلى النفور والحمق مشيرا إلى ذلك بقوله: "فلا آذن في الإذن يبرأ من عر" التي تكشف خشونتهم مع الناس وفساد أذواقهم مما يدعم قوله: "عدمت من الخدام كل مهذب"، وبهذا يفترق اعتذار الملوك كثيرا عنه لدى سواهم.

وفي قصيدة أخرى بعثها المعتمد إلى ابن حمديس من سجن أغمات يقول فيها:

غريب بأرض المغربين أسير ... سيبكي عليه منبر وسرير
سيبكيه في زاهيه والزاهر الندى ... وطلابه والعرف ثم نكيرُ
مضى زمن والملك مستأنس به ... وأصبح عنه اليوم وهو نفورُ
أذل بني ماء السماء زمانهُم ... وذلُّ بني ماء السماء كثيرُ
فما ماؤها إلا بكاء عليهم ... يفيض على الأكباد منه بحورُ
فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... أمامي وخلفي روضة وغديرُ
بمنبتة الزيتون مورثة العلا ... تغني قيان أو ترن طيورُ
بزاهرها السامي الذرا جاده الحيا ... تشير الثريا نحونا ونشيرُ
تراه عسيرًا أم يسيرًا مناله ... ألا كل ما شاء الإله يسيرُ[(١)]

يترفع المعتمد في تجربته هذه وتفوح من النص ملوكيته ومجده رغم الغربة والسجن؛ فهو لا ينسى ملكه ولا قصوره ولا مجالسه وسمَّاره

---

(١) السابق، ص ٢٣٥ .

ولا أرومته ولا أمله في استعادة عرشه إذا شاء الله عودته، إن قصوره وجوده والعفاة ورياض إشبيلية وغدرانها وسرير الملك وأبهة بني عباد في منبتة الزيتون وفي القيان وأبهاء قصر الزاهر والزاهي والثريات، إن هذا العرش العظيم لم يفارق قلب المعتمد ولا ناظريه مهما ساءت به الأمور لأن حب رعيته له نابض بالحيوية لا يخبو، فقد استأنس الملك به طويلا ثلاثة وعشرين عاما في الملك: وفي طريقة التعبير يسخر لنا مجموعة من الطرق تجيد توصيل عالمه إلينا فهو يكشف حب رعيته لملكه وحزنهم الشديد على نكبته من خلال البكاء عليه بكاء المنابر وبكاء عرش الملك، منبر وسرير والقصور. سيبكيه في زاهية والزاهر ويبكيه الجود والعفاة وطلاب الحاجات، لقد ثقل على الأندلس وأحزنها زوال ملكهم "أذل بني ماء السماء زمانهم" و "ذل بني ماء السماء كثير". وهو ينقل مشاعره بالصدمة التي لم تكن في حساب أحد أن يذل بنو ماء السماء فهذا بعيد لا يصدق ولا يتفق فقد قال ابن صمادح لوالده: ما دام المعتمد بإشبيلية فلا نبالي بالمرابطين، فلما سمع بما جرى للمعتمد مات في تلك الأيام، وهي من أجمل العبارات الكنائية المستحدثة التي كشفت دوام ملكهم واستمرار مجدهم واستعصاء عزتهم أن تذل أو تخضع؛ وليرسم حلمه الوردي في عودة عرشه يجنح إلى الخيال الجزئي المكون لصورة العظمة والبهاء والسلطان بنفوسنا في عبارات: "تشير الثريا نحونا" و "بمنبتة الزيتون موروثة العلا" و "ويلحظنا الزاهي" و "وسعد سعوده غيورين"، إن صورة الحلم الجميل تشعرنا بسعادة غامرة تخامر قلب الملك، وإن الأحلام ليست إلا يسيرة متى شاء ربنا تحقيقها وهو يسأل ويجيب إجابة المؤمن الذي لا يقنط تراه عسيرا أم يسيرا ؟ ألا كل ما شاء الإله يسير.

ثالثا – مع ابن الزنجارى:

لم يسأله ابن الزنجاري عطاء بل شيئا من شعره لكن ملوكية المعتمد الشاعر حية ذات حساسية ويقظة، مما يجعلها تفرض نفسها على الموقف كله قبل أن ينطق الرجل.

يقول المعتمد :

لو أستطيع على التزويد بالذهب فعلت لكن عداني طارق النوَبِ
أصبحت صفرا يدي مما أجود به ما أعجب الحادث المقدور في رجبِ
ذل وفقر أزالا عزة وغنى نعمي الليالي من البلوى على كثبِ
والملك يحرسه في ظل واهبه غلب من العجم أو شُمٌّ من العربِ
فحين شاء الذي آتاره ينزعه لم يُجْدِ شيئا قراعُ السُّمْرِ والقضبِ

إنه اعتذار ملك تحول عنه طالعه فحرمه الجود فتملكه العجب والدهشة وسلم لله أمره فهو الذي يؤتي الملك وينزعه وهو بقضاء الله راض، وقد عبر الداني عن عطاء المعتمد في حالة عسره وزوال ملكه تعبيرا جديدا متقنا حين قال :

غني النفس أنت وإنْ ألحت على كفيك حالات الفقيرِ
تصرف في الندى حيل المعالي فتسمحُ من قليل بالكثيرِ(١)

وفي البداية يأتي بـ "لو" التي تجعل الجود بعيدا بعدما حدث وهو لا يملك إلا الدهشة مما حدث له في رجب من نزع ملكه وماله. "ما أعجب الحادث المقدور في رجب"، ويضيء عمومية هذا التعبير: بالعز والغني انقلبا إلى النقيض، "ذل وفقر أزالا عزة وغنى". أما تداول الأيام فقد اخترع له تعبيرا طريفا ناجحا حين قال: "نعمي الليالي من البلوى على كثب" لتشعر بحقيقة أن الملك لا يدوم طالما جاورته البلوى واقتربت منه وتأكيدا لعجبه ودهشته يميل إلى المفارقة الناجمة عن المطابقة بين: نعمى * بلوى، عجم * عرب، ذل وفقر * عزة وغنى، ليؤكد لنا أن الكل إلى زوال.

وهو قانع بتقلب الأيام؛ اعتبارًا وإيمانًا، والإشارات إلى ملوكيته مبثوثة في هذه القصيدة من مثل: جيوشه الجرارة من العجم والعرب تحرس ملكه

---

(١) ابن بسام في: الذخيرة - القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٦٣ .

والإخبار بالتزويد بالذهب، وهي عادة الملوك ثم يومئ إلى مشيئة الله أن جعله ملكا، وأعطاه الملك أولا في قوله: "فحين شاء الذي آتاه ينزعه" ويشير إلى ملكه قبل الزوال قائلا: "أزالا عزة، وغنى، نعمى الليالي".

وهكذا استوعب المتلقي رسالة المعتمد وما كان له من عرش وملك- وجلال وعظمة لن تزال حتى آخر المدى.

المحور الرابع – مع أناس صحبهم:

وفي هذا المحور منجمه أبو بكر الخولاني ثم مجموعة معتقلين أفرج عنهم من سجن أغمات وتركوا المعتمد وحيدا بعد أن ودعوه .

أما الخولاني فقد تراءى للمعتمد مع صدمته من غدر المرابطين ونذر ضياع ملكه، فرآه الملك إحدى حلقات النكبة وصورة للزيف والتضليل الذي استنام المعتمد يوما لها فخاطبه قائلا :

أرمدت أم بنجومك الرمد قد عاد ضدا كل ما تعدُ
هل في حسابك ما تؤلمِّهُ أم قد تصَّرَم عندك الأمدُ
قد كنت تهمس إذ تخاطبنى وتخط كرها إن عصتك يدُ
فالآن لا عينٌ ولا أثرُ أتراك غيب شخصك البلدُ
وتراك بالعذراء في عِرْسٍ أم إذ كذبت سطا بك الأسد[١]

تدور التجربة حول المنجم باعتباره إحدى حلقات النكبة بزيفه وكذبه، إنها المفاجأة أذهلت الجميع حتى المنجم وتنجيمه فاختل توازن الملك، ورأى المنجم صورة من ملايين الصور التي تتوالى فتحرك شريط النكبة وترسم مأساة الزوال لتظهر حتمية التبدل:

الملك لا يبقى على أحد والموت لا يبقى له أحد

إنها تجربة حادة الإيلام امتزجت بها السخرية من التبدل، والحزن على

---

(١) ابن بسام في: الذخيرة - القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٦ .

ما وقع، تتخذ من المنجم قناعا للنفاذ من خلاله إلى رسم الزلزال الذي عصف بكل شيء، والحقيقة الكبرى وهي حتمية التبدل والابتلاء، وتوقظ فينا تجربة موازية وهي تجربة أبى تمام.

فقد اتحدت التجربتان في السخرية من التنجيم، وخداع المنجمين ودجلهم وإتيان الأقدار بضد ما زعموا، والاستهزاء بمصطلحات التنجيم.

لكن أبا تمام عرض للمنجمين في ضوء جسارة المعتصم وتحديه لتخرصاتهم المبهمة وقهره الروم وتنكيله بأعداء الإسلام والعروبة، بينما عرض المعتمد للمنجم باعتباره حلقة في سلسلة مأساته ونكبته وكأنه يحمله من المسئولية جانبا.

أرمدت أم بنجومك الرمد قد عاد ضدا كل ما تعد

وقد تحدث أبو تمام عن ظاهرة التنجيم في ضوء عقيدته وثقافته بينما تحدث المعتمد عن منجم خاص به حمله طرفا من المسئولية، فيما حدث ووصفه بالجحود وعدم الوفاء لمليكه وولي نعمته حين قال:

قد كنت تهمس إذ تخاطبنى وتخط كرها إن عصتك يد
فالآن لا عين ولا أثر أتراك غيب شخصك البلد[١]

وقد استيقظت ملوكية المعتمد حين لاحظ التنكر على منجمه فذكره بوضعه مع المعتمد قبل المحنة وبعدها كاشفًا سوء معدنه وتنكره، ومن اللافت للنظر استكثار المعتمد من أدوات الاستفهام التوبيخي الإنكاري وهو الذي يلائم اهتزاز ثقته في الناس بعد أن أتى منها وحدث له ما حدث دون تفسير، ولجأ الرجل إلى استجلاء الغموض والإبهام فلم يجد أكثر من أسلوب الاستفهام ملاءمةً لنقل عالمه، فاستكثر منه فهو يستخدم همزة الاستفهام، أو يستخدم أم، أو هل ثم أم، ثم الفعل المسبوق بالهمزة – أتراك –، ثم الفعل مجردا – تراك

(١) المعتمد في: الديوان، ص ٨٧ .

– بالعذراء في عرس، ثم أم: –أم إذ كذبت –، وقد فرغ الاستفهام التوبيخي المحتشد في خمسة الأبيات شحنة الغموض التي أحاطت بخلعه حيث استخدم سبع أدوات للاستفهام، فملئت الأبيات بالحيوية والدهشة مما صار إليه أمره، وقد أرانا هذا التكثيف المؤازر للتجربة المدى الذي وصله المعتمد من التوتر والقلق، وحساسية لغته الفنية ودقة استعمالاته وتوظيفه الموفق، ولم تكف لإزاحة قلقه أساليب الاستفهام هذه، لكن أمرا واحدا رآه كافيا في التفسير هو حتمية التبدل واستحالة الثبات والخلود:

الملك لا يبقى على أحد ... والموت لا يبقى له أحد(١)

وبهذا يكشف الرجل معتقده في زيف الأيام وكذب زخرفها، إذ ليس المنجم وحده سببا بل كل ما حول المعتمد لا أمان له ، ولا يُطمَأنَ إليه .

وتأتي تجربته الأخيرة مع خروج معتقلي أهل فاس من سجن أغمات ليصبح المعتمد وحيدا في السجن فيغبطهم متمنيا دعاءهم بالإفراج عنه فيقول :

هبوا دعوة يا آل فاس لمبتلى ... بما منه قد عافاكم الصمد الفردُ
تخلصتم من سجن أغمات والتوت ... عليّ قيود لم يحنْ فكُّها بعدُ
فهنئتم النعمى ودامت لكلكم ... سعادتُه إن كان قد خانني السعدُ
خرجتم جماعاتٍ وخُلفتُ واحدًا ... ولله في أمري وأمركم الحمدُ(٢)

لقد ودعه رفقاء السجن فكيف يتسلى بعدهم، وقد أصبح وحيدا، إن ملوكية المعتمد ومصاحبات مجده وعزه تتجلي في خواطره التي نقل بها عالمه في هذه اللحظة الفياضة بالوحشة والألم، لقد تجلت فيها خواطره الرفيعة وفكره السامي وصفاته الخالية من شوائب الحسد والتدني فهو يطلب دعاءهم له بالفرج والمعافاة ويسند إلى الله معافاتهم من السجن قائلا: "بما منه قد عافاكم

---

(١) السابق، نفسه .

(٢) الفتح بن خاقان في: قلائد العقيان، ص ٢٨ .

الصمد الفرد"، واختيار الصمد الفرد اختيار دقيق إذ معناه المقصود وحده بالحاجات فليس لنكبته من دون الله كاشفة، وكما طلب دعاءهم دعا لهم دعاء نابعا من عالمه الدامي، بالسعادة والهناء مع النعمى، ودوام السعادة لهم جميعا حين حرم هو منها، وهو دعاء ملوك ترفعوا فوق الدنايا وسعدت بهم رعاياهم وجاءت ملوكيته ظاهرة وهو يشير إلى نكبته بكنايات متقنة تشي بكبر شاعريته وقوتها حين قال: "دعوة لمبتلى بما منه قد عافاكم الصمد" وقوله عن القيود وهم مفرج عنهم: "لم يحن فكها بعد"، أرأيت كيف لم يحسد ولم يحزن لخروجهم فيؤذيهم؟ وينفرهم وكيف يتفاءل وسط المحنة بأنها إلى زوال؟ إنها عبارة الملوك ابتعد بها في روعة عما يمكن أن يعكر جو الفرحة لرفاق الأمس، الذين نعموا بالإفراج، وهي بشارة حافظ المعتمد لهم عليها، وفي الختام يكشف في وحدته عن عميق إيمانه بالرضا والحمد بما قدر الله فيستخدم التقديم والتأخير المسعف في هذا الموقف الملوكي السامي قائلا: "ولله في أمري وأمركم الحمد"، وقد يظن الإنسان أن شعر الملوك ترف لا مكان له وسط هموم الحكم وتصريف الرعية وصون الممالك، ولكنا رأينا كيف أن الشعر هو الذي بقى للمعتمد في محنته؟ فلم يجد حين تلفت حوله إلا الشعر سندا ورفيقا مخلصا خفف عنه نكبته ومعاناته ورسم صورة واضحة لمنحنياتها المعتمة منذ رحلته عن عاصمته إشبيلية حتى مقبرة سجنه بأغمات، ولا يزال شعره يرثيه فوق قبره بدلا منه :

قبُر الغريبِ سقاكَ الرائحُ الغادي   حقًّا ظفرتَ بأشلاء ابنِ عبَّادِ

ويتجه ابن عباد بتجاربه السابقة إلى مناجاة نفسه ومحاورتها بتداعيات النكبة والموازنة بينها وبين أبهة الملك التي سلفت والتجلد أمام الشامتين وتسليم الأمر كله إلى ربه.

وقد سيطر حديثه إلى نفسه أو منولوجه الداخلي على معظم شعره الذي مر بنا في هذه العجالة بالمحور الأول تراه يواري نكبته بعيدا عن الشامتين وأعداء الأمس؟ أم أن تصبره وتجلده لبى صلابة بنائه النفسي؟ أم أن إيمانه

بتداول الأيام جلّى عنه وأغناه عن الاسترسال؟ وقلل تجاربه مع الآخرين؟ لعلها كلها مجتمعة كانت وراء سيطرة حديث النفس على معظم تجاربه التي مرت في بقاء ملوكيته بين جنبيه.

على أن توظيف طرق التعبير في نصوص المعتمد فيض إبداعي تلقائي، يجلي لنا استعلاءه على المحنة وإن بدا في سياق آخر، طالما لم يصطدم مع التجربة، وقد تأتي مظاهر ملوكيته في ثنايا تجارب أخرى فيستفيد الباحث منها في هذه السبيل، لقد نجح المعتمد في توظيف أدواته الإبداعية لنقل عالمه النفسي إلى المتلقي وطرق معاني مبتكرة وجاءت أساليبه مطبوعة إلى حد كبير وليست الإجادة كما رأى أبو العباس حكرا على القدماء "وليس لقدم العهد يفضل القائل ولا بحد ثان العهد يهتضم المصيب ولكن يعطي كل ما يستحق(١) "وقد علت شهرته الشعرية علو بسالته وفضله" وشعره في الذروة العليا(٢) ويرى ابن حمديس أن المعتمد: "جم الأدب رائقه عالي النظم فائقه(٣)"، وسوف نرى أن لشعره أبهة تطاول أبهة ملكه في مسيرتنا مع جانب الملوكية في شعر ما بعد النكبة.

إن بناء القصيدة لدى الرجل بناء متماسك إلى حد كبير، وكان لصدقها وكثرة السرد وأسلوب القص فضل كبير في هذا التماسك، كما كان لوحدة الموضوع ووحدة الجو النفسي أثرها في توفير وحدة فنية قاربت الوحدة العضوية بشعرنا الحديث، واللافت للنظر أن تجارب المعتمد واضحة الأداء، رائقة التعبير، غنية بالإطراب والتداعيات الآسرة تستولي على المتلقي، وتجذبه إلى عالم صاحبها جذبا. والصور البيانية تتوارى حين يكثر السرد وأسلوب القص وهذا كثير عنده، ومع تواريها فإن ثراء النص وروعته تشكل

---

(١) المبرد في : الكامل، ١٨/١ ، طبعة بيروت، ١٩٨٥ .

(٢) الذهبي في : العبر، ٢٤٦/٣ .

(٣) المقري في : النفح، ٢٤٦/٤ .

بديلا عظيما يكاد ينسينا هذا الخيال البياني من مثل قوله:

إن يسلب القوم العدا ملكي وتسلمني الجموعُ
فالقلب بين ضلوعه لم تسلمِ القلبَ الضلوعُ
لم أستلب شرف الطبا ع أيسلب الشرف الرفيعُ
قد رمت يوم نزالهم ألا تحصنني الدروعُ
وبرزت ليس سوى القميـ ـص على الحشا شيء دفوعُ
وبذلت نفسي كي تسيـ ـل إذا يسيل بها النجيعُ
أجلي تأخر لم يكن بهواي ذليَ والخضوعُ
ما سرت قط إلى القتا لِ وكان من أملي الرجوعُ
شيم الألى أنا منهم والأصل تتبعه الفروعُ[1]

وقد كثر هذا اللون الذي أغنى فيه السرد والقص عن الخيال الجزئي إلى حد كبير[2]، وجاءت روعة شعره في هذا النوع مغلفة بالصدق وتعاطف المتلقي مع كارثة المعتمد النبيل ومؤازرة الجموع له مظلوما مغدورا به.

وفي رثاء ولديه يسلك هذا النهج العالي الطراز كقوله :

هوى بكما المقدار عني ولم أمت وأدعى وفيا قد نكصت إلى الغدرِ
توليتما والسن بعد صغيرة ولم تلبث الأيام أن صغرت قدري
توليتما حين انتهت بكما العلا إلى غاية كل إلى غاية يجري
فلو عدتما لاخترتما العود في الثرى إذا أنتما أبصرتماني في الأسرِ
يعيد على سمعي الحديد نشيده ثقيلاً فتبكى العينُ بالجس والنقرِ

---

(١) المعتمد في: ديوانه، ص ٨٨ .

(٢) انظر كثرة هذه التجارب في ديوان المعتمد على سبيل التمثيل لا الحصر في صفحات: ٩٠، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨ .

معي الأخــوات الهالكــات عليكمــا   وأمكما الثكلى المضرَّمة الصدرِ[١]

ولعل هذا اللون هو ما عناه عبد القاهر حين قال: "إن في الكلام مجــازا على غير هذا السبيل، وهو أن يكون التجوز في حكم يجري على الكلمة فقــط وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها، ويكون معناها مقصورا في نفسه ومرادا من غير تورية ولا تعريض[٢]". ثم يعلق عبد القاهر: "وهــذا الضــرب مــن المجاز على جدته كنز من كنوز البلاغة ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليــغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان[٣]".

وقد برزت ظاهرة التكرار سائدة كل الظواهر الأخرى المرصودة بطرائق التعبير لدى المعتمد على كثرتها تليها ظاهرة موسيقية هي التجنيس ثم ظاهرة الطباق. وتأتي الظواهر التعبيرية عفوية مؤدية لا تشكل جــزرا فــي النتــاج الشعري بل تنداح في التجربة. لا نكاد نشعر بها وهي تؤازر بقيــة عناصــر الأسلوب في نقل خواطر الشاعر وعالمه.

أما الطباق فقد عاون المعتمد كما مر في صدمته المفاجئة حين غدر بــه رفاق الجهاد على كرمه، وتمهيده لهم، وشدة توقيره إياهم، وقد وظفه المعتمد في المقارنة بين أمسه ويومه أو بين أبهة الملك وزوال هذه الأبهة؛ فصنع في التجربة أسلوبا ناجحا للتوصيل جسم المفارقات الحادة التي لبت الشاعر فــي تصوير عالمه. وتأتي الظاهرة الأقل وهي التجنيس لتشكل معزوفة موســيقية جنائزية في كثير من الأحيان أفادت المتلقي وأثرت النص ولاعمت نتاج الملك، وزخرفات ملكه وأبهته التي صحبته ثلاثة وعشرين عاما، فكيف تفارقه فــي السنوات العجاف الأربع الأخيرة؟

لكن التكرار يبقى الظاهرة الأكبر، التي غزت إنتاج المعتمــد الشــعري

(١) المعتمد في: الديوان، ص ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) عبد القاهر في: دلائل الإعجاز، تحقيق الشيخ: محمود شاكر، ص ٢٩٣ .

(٣) السابق، ص ٢٩٤ .

في هذه المرحلة مثل قوله يخاطب ابن اللبانة ويعتذر له عن قلة العطاء:

إليك النــذرُ مــن كـفِّ الأسـيرِ فإن تقبلْ تكـن عـين الشـكورِ
ورجٍّ بجبــره عقبــي نــداه فكم جبـرت يـداه مـن كسـيرِ
وكم أعلت علاه مـن حضـيض وكم حطـت ظبـاه مـن أميـرِ
وكم أحظى رضـاه مـن حظِـيٍّ وكم شهرت عـلاه مـن شـهيرِ
وكـم مـن منبـر حنـت إليـه أعالي مرتقـاه ومـن سـرير[١]

لقد كان المعتمد في أمسِّ الحاجة للتذكير في محنته بسابق ملكه وأفضاله، وجاءت كم الخبرية لتشي بهذا الفضل العميم، وتكثر من رصد مروءات الملك. وفي رثاء المعتمد لنفسه يخاطب القبر الذي سيدفن به، يعرفه بعظمة الملك الذي سينزله ويعرفه مناقبه إن كان لا يعرف، وكأن المعتمد توقع ما حدث بالفعل: فقد نودى عند وفاته للصلاة عليه يوم جنازته "الصلاة على الغريب[٢]".

هكذا صدق حدس المعتمد فأطال التكرار معرفا بمناقبه بادئا بوصف نفسه بالغريب، وأوصى أن تكتب على قبره:

قبَر الغريب سقاك الرائحُ الغـادي حقا ظفرت بأشـلاء ابـنِ عبـاد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصـلت بالخصب إن أجدبوا بالري للصادي
بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا بالموت أحمر بالضرغامة العـادي
بالدهر في نقم بـالبحر فـي نعـم بالبدر في ظلم بالصدر في النـادي
نعم هو الحق وافـاني بـه قـدر مـن السـماء فوافـاني لميعـاد[٣]

لقد كرر المعتمد حرف الباء اثنتي عشرة مرة ليرسم لوحة العظمة التي سيحظى بها القبر الذي سيدفن فيه الملك، ويوضح مدى ظفره بنزيل آية

(١) المعتمد في: ديوانه، ص ١٠٢ .

(٢) المقري في: نفح الطيب، ٢٥٩/٤ .

(٣) المعتمد في: ديوانه، ص ٩٦ .

في العظمة والشهرة، وقد صاحب التكرار معظم تجارب المعتمد، وشكل أسلوبا بين الوضوح أعان الشاعر كثيرا[١] في تصوير مشاعره.

وقد شكلت لغة الشعر عند المعتمد إحساسا بأنه مطبوع وشعره صاف عذب وقريحته الشعرية رحبة أصيلة. وقد ندت منه أو من ناسخي ديوانه هفوة قصدت منها إلى إخلاء ديوانه مستقبلا من أية هفوة مهما هان شأنها؛ ففي قوله يخاطب القيد يقول له حين رآه الأمير أبو هاشم لأول مرة مقيدا:

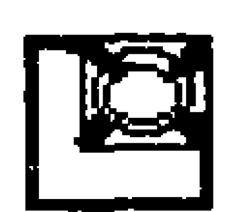
ارحم طفيلا طائشا لبُّه   لم يخش أن يأتيك مسترحما[٢]

إن المضارع "أن يأتيك" يجب نصبه لوقوعه بعد أن، وهي كما يقول النحاة: أم الباب (باب نواصب المضارع) وعلامة نصب المضارع هنا ليست الفتحة المقدرة كما جاء البيت بالديوان المحقق، لكنها الفتحة الظاهرة على الياء لخفتها. وأما تحويل الفتحة الواجبة الظهور إلى فتحة مقدرة فليس من بين الضرورات الشعرية، ولو توقف الأمر هنا وكفى لوقف الخطأ غير أن التفعيلة الثانية للشطر الثاني من بحر الرجز "مستفعلن" تأبى الفتحة الظاهرة حتى لا تتوالى حركات أربع تخل بالتفعيلة ثم تخل بالبحر فيما إذا صارت التفعيلة "يأتِيَكَمُسْ" على نصب (يأتي) بالفتحة الظاهرة، فلما استقام وزن التفعيلة والبحر مع النصب بالفتحة المقدرة ظل الأمر هكذا فأصبح الخطأ مضاعفا. وعلاج الأمر استبدال الكلمات بأخرى ملائمة ويمكن أن يكون النساخ ونقلة المخطوطات وراء سهو في الكلمات نتج عنه هذا الذي حدث. وإنما توقفت عند هذا الخطأ طمعا في تنقية هذا الديوان في طبعات لاحقة إن شاء الله.

---

(١) انظر: أمثلة من التكرار بقصائد وردت في صفحات الديوان الآتية : ٨٧ ، ٩٥ ، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٨، ١١٢ .

(٢) المعتمد في: ديوانه، ص ١١٢ .



ملخص الوحدة الرابعة

حاصر الصليبيون المسلمين في الأندلس ولم يستطع ملوك الطوائف صدهم، فذهب الشعراء إلى ملوك المغرب كالمرابطين والموحدين وبني مرين، فاستغاثوا بهم وحركوا عواطفهم بأشعار تحتوي على وصف لحالة الضعف والذل وذكروهم بما فرض الله عليهم من الجهاد لنصرة إخوانهم في الدين. ثم حملوا حملة على القاعدين عن الجهاد، وأشادوا بالأبطال، ونتج عن ذلك استجابة ملوك المغرب، فعبروا بجيوشهم وانتصروا على الكاثوليك ومن ساعدهم من ملوك أوربا وجيوشهم بمساعدة بابا روما.

وكان المعتمد بن عباد من ملوك الطوائف شاعرا متميزا، كان شعره يتناول الوصف والشراب والغزل إبان ملكه، وكان يدفع الجزية لألفونسو مثل غيره من ملوك الطوائف، ثم ضغط عليه ملك قشتالة ألفونسو السادس، فاستنجد بالمرابطين، فنصره يوسف بن تاشفين، ثم عاد ملوك الطوائف مرة أخرى لدفع الجزية لملك الكاثوليك، فعبر ابن تاشفين، وخلع ملوك الطوائف. ومن عارضه قتله، وحبس المعتمد في أغمات بالمغرب، فأنشد قصائد حزينة جميلة صادقة، تعبر عن حاله قبل الأسر وبعده.

أسئلة تقويمية على الوحدة الرابعة

س١: عرف شعر الاستنجاد .

س٢: ما عناصر شعر الاستنجاد؟

س٣: من أهم الشعراء الذين نظموا قصائد الاستنجاد؟

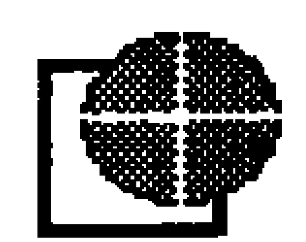
س٤: لماذا ظهر شعر الاستنجاد في عصر الطوائف ومن بعدهم؟

س٥: لماذا اختلف شعر المعتمد بن عباد بعد السجن عما قبله؟

س٦: ما سمات شعر ابن عباد ؟

إجابة بعض الأسئلة

ج٤ : ظهر شعر الاستنجاد في عصر الطوائف ومن بعدهم؛ لأن الدولة الأندلسية الموحدة تفككت إلى دويلات ضعيفة، يحكمها ملوك ضعاف، فاستأسد عليهم عدوهم. ويضاف إلى ذلك أن بابا روما حرك ملوك أوربا لإرسال جيوش لمساعدة الكاثوليك للقضاء على المسلمين. فلم يكن بد للأندلسيين من الاستنجاد بإخوانهم المسلمين في المغرب، فساعدوهم. وكان الشعراء أبلغ الناس في التعبير عن حال الضعف الذي اعترى الأندلسيين، وكذلك استطاعوا بتعبيرهم الجميل إثارة المشاعر الحماسية لدى ملوك المغرب، وإشعال الحمية في نفوس الجنود المسلمين في المغرب والأندلس.



الوحدة الخامسة

الموشحات الأندلسية

الأهداف السلوكية:

١- الهدف المعرفي:

- أن يتعرف الطالب على هذا الفن الجديد، ويحدد طرق انتشار الموشحات شرقا وغربا.
- أن يدرك أثر البيئة في نشأة الفنون وتطورها.

٢ – الهدف الوجداني:

- أن يحس بالأحاسيس الفنية التي يرتكز عليها فن الموشحات وخاصة ما غني منها.

٣- الهدف المهاري:

أن يتقن قراءة الموشحات، وأن يجيد تحليلها.

الموشحات الأندلسية:

كان اختراع الموشح أبرع إنجازات الأدب الأندلسى في مضمار الإبداع وجاء ذلك في الربع الأخير من القرن الثالث الهجرى في عصر الخلافة على يد رجلين من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى كما ذكر ابن سعيد في المقتطف نقلا عن الحجارى(١). ثم انتقلت إلى المشرق في القرن الخامس عن طريق الطلاب والأساتذة والحجاج والإنشاد الدينى للصوفية كالششترى وغيره. والرحلات الأخرى المتبادلة. وقد ازدهر الأدب في هذا العصر وشجعه الخلفاء

---

(١) المقرى في كتابه: "أزهار الرياض"، ٢٥٣/٢، لجنة التأليف والترجمة مصر، سنة ١٩٤٠.

الذين فتحوا قصورهم وجوائزهم للعلم والأدب والمترجمين وأصحاب الفكر، كما ذاعت الأغاني والموسيقى والمغنون والمغنيات وخاصة أصحاب الاتجاه الشعبي، وجمعت الحفلات المشتركة الأندلسيين وجيرانهم، وامتزجت يومها في العقلية الأندلسية تيارات مشرقية وغربية تماما كحضارتهم التى "تميزت في كثير من نواحيها بأنها كل أخاذ معقد معا[١] ". وكان حب التفوق على المشارقة أملا نفسيا للتخلص من الهيمنة المشرقية إضافة إلى اشتغالهم بحل الازدواجية الثقافية واللغوية، كما انشغل جيرانهم الأوروبيون بالوصول إلى الاعتدال بين اللاتينية القديمة والرومانثية الحديثة، كل هذه العوامل تصلح أن تساهم في اختراع الموشح الذى أحرز سبقا عظيما للأندلس برغم شيوع المسمطات بالمشرق أيام العباسيين وقربها من بناء الموشح.

وإذ نتساءل عن المخترع الأول نجد ثلاثة أسماء على هذه الساحة تطرح باعتبار كل منها هو المخترع الأول للموشحات :

فقد أورد ابن بسام أنه محمد بن محمود القبرى حين يقول: "وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها فيما بلغنى محمد بن محمود القبرى الضرير[٢] " لكن الحجارى في المسهب يرى أن مخترع الموشحات هو المقدم بن معافى القبرى من شعراء الأمير عبد الله المروانى[٣] ".

وعن الحجارى ينقل ابن خلدون أنه مقدم، ويضيف أن ابن عبد ربه صاحب العقد أخذها عنه ثم جاء المتأخرون، فزادوا "ثم غلبها عليه المتأخرون، وأول من برع فيه منهم عبادة بن القزاز شاعر المعتصم صاحب المرية [٤] ".

---

(١) ليفى بروفنسال: "محاضرات في أدب الأندلس، ترجمة د/ عبد الحميد العبادى، مصر سنة ١٩٥١.

(٢) المقرى في كتاب: أزهار الرياض، ٥٣/٢، ط الرباط، سنة ١٩٧٨ .

(٣) المقرى في أزهار الرياض، ٢٥٣/٢، ط الرباط، سنة ١٩٧٨ .

(٤) مقدمة ابن خلدون، ص ٥٣٦، مطبعة عبد السلام بن شقرون، مصر، (د. ت).

وقد نسب البعض اختراع الموشح للأمير عبد الله بن المعتز الشاعر العباسى مستدلا بأن موشحا وجد في ديوانه المطبوع، وبما أنه معاصر للمقدم بن معافى فهو أولى. وبالتالى فاختراع الموشح مشرقى وليس أندلسيا؛ لكن هذا الموشح تأكد أنه لابن زهر الحفيد لوروده منسوبا إليه في المصادر الموثوق بها مثل: المغرب، وجيش التوشيح، ومعجم البلدان، وطبقات الأطباء، إضافة إلى أن ابن زهر وشاح شهير ولم يعرف هذا لابن المعتز(١) وهذا الموشح هو:

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

ونديم همت فى غرتـــــه

وسقانى الراح من راحتـــه

كلما استيقظ من سكرتـــه

جذب الزق إليه واتكـــــا وسقانى أربعـــا في أربـــع(٢)

وظل أمر المخترع يتردد بين ثلاثة الأسماء محمد والمقدم وابن عبد ربه لعنايته بالموسيقى وبراعته في العروض ودوائره واهتمامه بالأغانى. وكلهـــا اجتهادات تحظى بالإكبار والتقدير في مجال بكر كالموشحات غير أن نصـــا يرد منقولا عن أبى جعفر بن خاتمة في كتابه مزية المرية على غيرها مـــن البلاد الأندلسية، والرجل أمير شعراء العصر الغرناطى ضاعت كتبه ومنهـــا هذا الكتاب، وظهر ديوانه قريبا، وهذا النص الوارد عن كتاب مزية المريـــة يحسم أمر المخترع ويجعل الرجلين معًا هما مخترعا الموشح وليس أحـــدهما فقط، وهما: المقدم ومحمد بن محمود وأنهمـــا مـــن قبـــرة بجانـــب قرطبـــة

(١) أســتاذنا الــدكتور: أحمــد هيكــل: فـــي الأدب الأندلســـى، ص ١٤٥-١٤٦، ط ٨ ، دار المعارف، مصر سنة ١٩٨٢.

(٢) ابن الخطيب في: جيش التوشيح، تحقيق هلال ناجى ومحمد ماضور، ص ٢٠٢-٢٠٤، طبعة تونس، سنة ١٩٦٧.

وأن الضرير هو الأخير منهما، وأكد ذلك صاحب جذوة المقتبس عندما أورد ترجمة لكل منهما(١) تخصه، وقد أوردهما ابن خاتمة في سياق الفخر بالأندلس وسبقها بهذا الفن إذ يقول: "وهذه من مخترعات أهل الأندلس ومبتدعاتهم الآخذة بالأنفس، هم الذين نهجوا سبيلها ووضعوا محصولها" (٢)، وهذا النص مقدم على الاجتهاد يحد من الاسترسال ويكفينا في هذا الصدد لنحول الجهد إلى مجال آخر من مجالات التوشيح الفسيحة، ويبدو أن بدايات الموشح كانت بسيطة التركيب قليلة الأغصان والأشطار والأبيات، كما تناولت فنون الغزل ومجالس الشراب والطبيعة؛ لأنها تلائم الأطراب والموسيقى وتعين على تجويد الغناء وإمتاع الذوق الشعبى الذى انساق وراء الموشحات والوشاحين، يقول ابن بسام "وكان يضعها على أعاريض أشطار الأشعار غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة يأخذ اللفظ العامى أو العجمى يسميه المركز ويضع عليه الموشحة من غير تضمين فيها ولا أغصان"(٣) وبعد أن كان الموشح في البدايات دورا أو دورين (تعدد– ولا يزال– وتخطى إلى ستة أقفال وخمسة أدوار في التام) وخمسة أقفال وخمسة أدوار في الأقرع. وجاء عصر الموحدين فزادت الأدوار إلى ثمانية وتسعة حتى أوصلها شوقى في العصر الحديث في موشح صقر قريش ستة وعشرين دورا.

الخرجـــة:

وهى أخطر أجزاء الموشح وأول ما يضعه الوشاح، فإذا اطمأن إليه أكمل بناء الموشح وأتمه وقد استحسنوا فيها أن تأتى بالعامية العربية إلا في المدح؛ فلا مانع من مجيئها فصيحة، فإذا جاءت فصحى في غير المدح فينبغى أن تكون غاية في البراعة والإطراب فتكون جذابة لافتة للمتلقى أو – كما يقولون– هزازة سحارة خلابة بينها وبين الصبابة قرابة.

---

(١) الحميدى في: جذوة المقتبس، ترجمة رقم ٢٨٥ ورقم ١٣٨٦.

(٢) المقرى: أزهار الرياض، ٢/٢٥٣ .

(٣) المرجع السابق، نفس الموضع .

والخرجة عند ابن سناء ينبغى أن تكون حارة محرقة حادة منضجة من ألفاظ العامة ولغات الداصة، إذ هى من الموشح مسكه وعنبره وملحه وسكره وأبزاره.

والقصد من هذا كله أن تصنع للجمهور لونا من الجاذبية الصارخة والإعجاب الصاخب وأن تكون مغرقة في الشعبية نازلة إلى قاع المجتمع في ألفاظه ومواضعاته عامرة بالإشارة البعيدة إلى تجلب المتعة المثيرة والصخب وتفجر التداعيات لدى الجمهور فيجدون الإطراب والإمتاع، غير أن عصر المرابطين والموحدين غلبت فيه الفصحى العامية في الخرجة، واستمر هذا حتى العصر الغرناطى، فهل تيقظ الاعتزاز بالفصحى إبرازا للولاء والكيان الإسلامى والعربى في مواجهة اللاتينية لغة العدو الذى يستعين بأوروبا على انتزاع الأندلس؟ ولم تك هذه الروح بادية قبل ثلاثة العصور الأخيرة، إذ كان صوت المسلمين يخمد أصوات الأعداء ويعلوهم، والمطلوب في الخرجة ألا تأتى امتدادا للأدوار قبلها بل تأتى وثبا واستطرادا وقولا مستعارا على بعض الألسنة ناطقة أو صامتة، أو على الأغراض المختلفة الأجناس، وأكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران.

أما البيت الذى قبل الخرجة فينبغى عند ابن سناء أن تأتى به كلمة قال أو قلت أو قالت أو غنى أو غنيت أو غنت.

وإذا جاءت الخرجة أعجمية اللفظ اشترط فيها أن يكون لفظها على ما جاء في ألفاظ الخرجة العامية الأندلسية من أن يغرق في الإثارة ويعمر بالإشارات التى تثير الصخب وتشد الجمهور وتنقل ما سف في أدنى طبقات المجتمع حتى ترضى هذه الأذواق المغرقة في الشعبية، لكن هذه الشروط والمواصفات التى ساقها ابن سناء تلاشت في معظمها وتبدلت وحلت محلها معايير أخرى؛ لأن أخلاق المجتمع تسمو وترتفع تبعا لغاياته وتنزل أيضا مع هذه الغايات، ثم إن الفنون تتطور فتترك معايير وتكتسب أخرى حتى لا تتجمد. وإذا لم يك الوشاح

موفقا في الوصول إلى الخرجة البديعة فلا مانع من أن يستعير من الغير[1] كما يشير ابن سناء في كتابه.

أجزاء الموشح :

الموشـــح : لون إبداعى موزون تعددت قوافيه وذخرت بالزينة والتناظر النغمى الموزع بطريقة متميزة وثابتة.
وسمى بهذا الاسم لمشابهته وشاح النساء في توزيع الزينة والنغم المتنوع في تناظر واطراد.

المطلــع : الوحدة الثابتة وزنا وقافية عندما تأتى أول الموشح.

الموشح التام: ما يُبدأ بالمطلع.

الموشح غير التام: ما يُبدأ بالسمط.

القفـــل : ويسمى المركز وهو الوحدة الثابتة وزنا وقافية بالموشح عندما لا تأتى أول الموشح أو آخره.

الخرجـــة : آخر قفل في الموشح .

السمـــط : مجموعة الوحدات ذات القافية المتغيرة بالموشح.

الشطـــر : الوحدة ذات القافية بالقفل أو السمط لو تساوت مقاطعها تفاعيلَ ووزنا وقافية.

الغصـــن : الوحدة ذات القافية بالقفل أو السمط لو تفاوتت مقاطعها تفاعيلَ ووزنا وقافية .

البيـــت : هو سطر الموشح تكون من أشطار أو من أغصان.

الـــدور : ويتكون من السمط والقفل الذى يليه .

وهذا موشح محددة أجزاؤه يقول أبو بكر بن اللبانة الدانى وهو موشح تام :

شاهدى في الحب من حرقِ أدمع كالجمر تنذرفُ مطلع ←

---

(١) ابن سناء في دار الطراز، ص ٤-٤٤ .

دور
تعجز الأوصاف عن قمر
خـــده يدمى من النظـــر
بشـــر يسمو على البشـــر

قد بـــراه الله مـــن علـــق   ما عسىَ في حسنه أصفُ   قفل ←

كيـــف للصب الكئيب بقـــا
والكرى عن جفنه أبقـــــا   سمط
هل يطيق الصبر من عشقا

شادنًا يرمى مـــن الحـــدق   أسهمـــا قلبـــى لها هدف

يا أولـــى التفنيـــد ويحـــكم   بيت ←
أنا لا أصغـــى لنصحكـــم
فـــي ثلاث قـــد عصيتكم

غاسق داج علـــى فلـــق   في قضيب زانه هيـــف

بأبى من فاق شمس ضحى
وكســـا بـــدر الدجى ملحا
فدليلـــى فيـــه قد وضحـــا

لوجود البـــدر في الأفـــق   عدم والشمس تنكـــسف   شطر ←

رب راض بعد ما غضبا
زارنى في غفلة الرقبـــا
عندها عنيـــت واطربـــا

يا حبيبــا بات معتنـــقى ها أنا بالوصل معتــرف[١] خرجة

ومثال الموشح غير التام قول عبادة بن القزاز.[٢]

بأبى	ظبى حمى	تكنفهُ	أسد غيلْ	
مذهبى	رشف لمى	قرقفه	سلسبيل	
يستبى	قلبى بما	يعطفه	إذ يميل	غصن ←
ذو اعتدال	يعزى إلى	ذى نعمة	ثابتِ	
في ظلال	تحت حلى	قطر الندى	بائتِ	
ذو فتورْ	ذو غنَجِ	ذو مرشف	ألعس	غصن ←
العبيرْ	في أرج	والحسن في	ملبس	
كم يثيرْ	وجد شج	بالدنف	مكنس	
ذو اعتلال	لو عللا	أنطق عن	ساكتِ	
وغزالْ	لو مقلا	ألحظ عن	باهتِ[٣]	

بنية الموشح وألوانها:

جاء بناء الموشح على أربعة ألوان:

١- **المبيــت :** ما يتكون قفله وسمطه من أشطار.

٢- **المبيت المزيج :** ما يتكون قفله من أشطار وسمطه من أغصان.

٣- **المغصن :** ما يتكون قفله وسمطه من أغصان .

٤- **المغصن المزيج :** ما يتكون قفله من أغصان وسمطه من أشطار.

---

(١) د/ سيد غازى: ديوان الموشحات الأندلسية، ٢٤٢/١-٢٤٤، ط الإسكندرية ، سنة ١٩٧٩.

(٢) السابق، ١٦٢/١-١٦٣.

أولا- المبيت :

قول الأعمى التطيلى :

يا نازح الدار سل خيالك ينبيكَ أن صرتُ كالخيالِ
أحبب به زائرا ألّما
أباح وردا ما كان يُحمْى
من مبسم ذى غروب ألمى
أكرع في بردّه وأظمى
أعجب به موردا أنالك زيادة الظمء بالزلالِ
شكوت للطيف حسن عهدى
وإن يكن ذاك ليس يجدى
فكم شفى غلتى ووجدى
وأنت مغرى بطول صد
وكلما أرتجى نوالك ضنت بإسعافى الليالى
يا منظرا قيد العيونا
فمن ترى ما سواه دونا
أزلت عهد الهوى المصونا
هجرك ما خلت أن يكونا
من ذا الذى ظالما أحالك يا ليته ذاق بعض حالى
فرّق بين الكرى وبينى
يومُ صدود ويومُ بين
فكيف يُقضى بلىّ دَينى

إن كان شيئا يقر عينى

بعدك لا أجتلى جمالك وأنت منى خلى بال

لما اجتليتُ الزمانَ قربه

ضمَّن بعض الحديثِ عتبه

إذ ظن أنى سلوتُ حبه

غنيته أستميل قلبه

علَّك حبيبى خطر ببالك أنى بغيرك شغلت بالى(١)

ثانيا– ومن المبيت المزيج ومنه قول أبى جعفر بن خاتمة الأندلسى :

أدر الكئوســـــــــــا علـــــــى الطـــــرب

واجلهـــــا شموســـــا لمرتقـــــــــــــــــب

يالهــــــا عروســـــا لـــــم تحتجــــــــب

تـــبهـــج النفــوســـا

فيطـــــوى الخجــــــل بــــشرها طيــــــــــا

حــــــسبك الطــــــلاءُ علـــــى ذا الربيـــــعْ

قـــــد مـــضى الــشتاء وهـــذا الربيـــــع

وصـــــحا الهــــواء ومـــــال الخليـــــع

وثـــوت ذكــــــاءُ

برج الحمل هىَّ بى هيا

(١) السابق، ٣١٢/١-٣١٤ .

ثالثا- المغصن :

ومنه قول ابن زهر الحفيد :

قلبـــى من الحب غيـــر صاح	صـــــــــــاح
وإن لحانـــى علـــى المـــلاح	لاح
وإنمـــا بغيـــة اقتراحـــى	راحـــــــــى
وإن درى قــصتى وشـــانى	شـــــــــانى
وبى من الحـــب قـــد تسلـــسل	سلـــــــــسلْ
في صورة الدمع بعد ما انهل	منهـــــــــل
والعود عندى لمن تـــــأول	أول
والحسن فيه على المثـــانى	ثـــــــــانِ
يا أم سعد باسم الـــــسعود	عـــــــــودى
وبعد حين من الهجـــــود	جـــــــــودى
على مليك تحت البنـــــود	نـــــــــودى
فقـــال إنى بمن دعـــــانى	عـــــــــان
ونـــــاظر نـــاضر المحيـــا	حيَّـــــــــا
أراك من قولـــه إليّـــــــا	ليـــــــــاَ
فأنشدتْه لمن تهيَّـــــــــا	هيـــــــــا
واحد هو يا أمى من جيرانى	رانـــــــــى

* *

وناطــق بالـــــذى كفاهـــــا	فاهـــــــا

وبـــدها راغبا أتاهــــــا تاهـــــــــــا

وبالجمـــال الذى ســباها بـــــــــــاهى

قالت على الحسن من سبانى بـــــــــــانى[١]

رابعا - المغصن المزيج :

ومنه قول ابن سعيد :

ذهبـــت شـــمس الأصـــيلّ فـــضةُ النهـــــــر

أى نهـــر كالمدامــــــةْ

صـــير الظـــل فدامـــةْ

نـــسجته الـــريح لامــــةْ

وثنــت للغــصن لامــــةْ

فهــو كالعــضب الـــصقيلْ حـــــفّ بالـــــشفرِ

مضحكا ثغــر الكمــــام

مبكيا جفن الغمـــــــام

منطقـــا ورق الحمــــام

داعيـــا إلـــى المــــدام

* *

فلـــــهــذا بـــــــالقبـــول خـــــط كالـــــسطر

حـــبذا بـــــالحور مغنــــى

(١) صمويل ستيرن في: الموشح الأندلسى، تعريب د/ عبد الحميد شيحة، ص ٦٣-٦٤، ط٢، مكتبة الآداب، ص ١٩٩٦.

هــى لفـــظ وهـــو معنـــى
مــذهب الأشــجان عنــــا
كم درينــا كيــف ســـــرنا
ثــم فــي وقــت الأصــيل لــم نكــن نــدرى
قلـــت والمــزج اســـــتدارا
بـــذرى الكــــأس ســـوارا
ســــالبا منــــا الوقــــارا
دائــرا مــن حيــــث دارا

* *

صــاد أطيـــار العقـــول شـــبك الخمـــــر
رَعَــد الحـــب فـــأخلف
واشـــتهى المطــل فـــسوف
ورســو لـــى قـــد تعــرف
منه ما أدرى فحـــــرف

* *

بالله قل لى يا رســـولى لِش يغــب بـــدرى[1]

منابع الموشح :

جاء اختراع الموشح سبقا إبداعيا مدويا للأندلسيين، ففتح شهية الباحثين مؤخرا للسعى وراء مصادر الموشح ومنابعه الأولى التى ألهمت الوشاح الأول، وكيف أسهمت هذه المنابع في بواكير الموشحات وأعانت على اختراعها.

---

(١) السابق، ١/٥١٧-٥١٩ .

فذهب هارتمان إلى تبرير نشأة الموشحات بأن المخترع الأول تأثر بالمسمطات، وربما كان وراء ما ذهب إليه أن التشابه النغمي والمقطعي قائم بينهما، فالدور بالموشح فيه قواف متعددة وأخرى ثابتة وكذلك مقطع المسمط . وهارتمان "من أنصار البحث عن سوابق للموشح في الشعر العربي[١] "أما خوليان ريبيرا فيرد الاختراع إما إلى الأغانى الرومانثية اللاتينية التى صحبت العربية وخالطتها في الغناء، وإما إلى أغان جليقية لجليقيات عملن في بيوت الأندلس، مربيات يغنين في الحفلات أو يهدهدن الأطفال في المنازل، أو يسرين عن أنفسهن وقت العمل. وهذا غير مقبول لغياب هذه الأغانى حتى نتبين هذه الصلة المزعومة[٢] وما خلفت من بصمات، كما أن صلة الموشح بهذه الأغانى الرومانثية جاءت في العصور التالية ولم تكن أيام النشأة الأولى بموجودة، إضافة إلى أن الاستفادة من هذه الأغانى كانت قليلة وفي القرى البعيدة عن مراكز التأثير الثقافى، ثم إن تضمين الشعر كلمات غير عربية أو عبارات أعجمية ذاع وانتشر منذ العصر العباسى وسمى بالتلميع، والشعر المشتمل عليه سمى الملمع، فجاء استخدام الوشاح لهذه الأغانى على قلة في ضوء ظاهرة التلميع لا في ضوء تقارض الآداب العالمية وهو متاح لا فضل فيه للمعطى ولا عيب على الأخذ، وقد استخدم التلميع ابن الرومى والقاضى الفاضل الذى ألف القصيدة لها شطر بالعربية وآخر بالفارسية وصنع شعراء العصر المملوكى هذا فجعلوا لبعض القصائد شطرا بالعربية والآخر بالتركية[٣].

وعلى هذا الدرب سار الأندلسيون مع غيرهم على أن الخرجات الرومية في الموشحات لم تتعد الأربعين خرجة كما أحصاها غارسيه غوسث .

وأما بيدال فقد رفض مذهب ريبيرا لأن الشعر الأيبيرى "تقمص شكلين

---

(١) صمويل سيترن: الموشح الأندلسى - تعريب د.شيحة، ص ٩٥.

(٢) د / أحمد هيكل: الأدب الأندلسى، ص ١٤٨، ط ٨ دار المعارف، سنة ١٩٨٢.

(٣) الصديق د/ شعبان مرسى في كتابه: "في الفنون الأدبية بالأندلس، ص ١٥٨ ، دار الهانى مصر، سنة ٢٠٠٠ .

متباينين هما: المقطع المتساوى أو المتماثل، ويتمثل في أبرزهما وهو المقطع الزجلى.

فالأول يتميز بالفقرة أو المقطع حيث يتساوى بيتان وزنا وقافية ثم تتبعها لازمة.

ويتميز الثانى بأبيات متوالية ذات قافية واحدة يتبعها بيت واحد ذو قافية مختلفة[١] ".

ويرى ستيرن أن هذه الآراء فرضيات، وليس بالإمكان الوصول إلى حل نهائى فيها وأن "أصول الموشح – إن لم تظَهر لنا اكتشافات مفاجئة تغير الموقف – سوف تظل في تلافيف الضباب والغموض[٢]".

كما يضيف أن هناك نقاطا عديدة غفل عنها البحث تلقى ضوءا جديدا على المشكلة، وأن هناك أيضا خطا جديدا للمناقشة يتصل بسوابق رومانثية للموشح لم تؤخذ في الحسبان حتى الآن.

والنقطة الأولى هى أن كل من كتبوا في المشكلة، تناولوها في ضوء الأوزان العروضية ومع ذلك فليس الأمر كذلك[٣] "كما حاول البعض إخراجها من عروض الخليل والنظر إلى الأوزان في ضوء المقاطع الصوتية وهى طريقة لوزن ما ينطق بغض النظر عن كونه شعرا أم نثرا، وهذه الطريقة تحدث انفلاتا وخلطا، والموشح فن موسيقى أولا، فإذا انحسرت عنه حرية التقفية وتعدد الإيقاع والنغم المطرد– وهى أفضل سماته ومن أهم عوامل نشأته – فقد الموشح أظهر براعاته، على أن المقاطع الصوتية إن أخرجت الموشح من العروض الخليلى فلن تدفع به إلى الرومانثية أو اللاتينية بالضرورة. والأقرب إلى طبيعة الموشح صدوره عن

(١) صمويل ستيرن في: الموشح الأندلسى، تعريب د. عبد الحميد شيحة، ص ٩٧-٩٨ .

(٢) السابق، ص ٩٥.

(٣) السابق، ص ٩٨.

عناصر بالتربة الثقافية في البيئة الأندلسية.

وهذه العناصر يمكن فهمها من النصوص الواردة في وصف الموشح، كقول ابن خلدون عن كثرة الموشح وسببها: "وتجادوا في ذلك إلى الغاية واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقته[١] " فهو يبرر ذيوع الموشح وإعجاب الناس به جميعا بأمرين يرجع أحدهما إلى الوشاح؛ وهو سهولة التناول ويسر التأليف والبناء الفنى، ويرجع الثانى إلى المتلقى وتجاوبه مع الوشاح لشعبية هذا الفن وقربه من طبقات الشعب المختلفة. وفي نص آخر يقول ابن خلدون: "شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه" [٢] وفي هذا النص يرد ابن خلدون إقبال جمهور المتلقين على الموشح إلى طبيعة البنية الفنية في اللغة والجاذبية في أساليبه إضافة إلى موسيقاه الموزعة باطراد ملتزم في اتفاقه في المطلع والأقفال والخرجة، واختلافه في قوافى الأسماط، وهذه العناصر الفنية البسيطة والشعبية مكنت لانتشار الموشح والإعجاب به وأعانت الوشاح على تناوله بإحكام وسلاسة معا.

أما النص الثالث لابن خلدون فيقول: "استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ينظمونه أسماطا وأغصانا أغصانا يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدًا ويلتزمون عند قوافى تلك الأغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد إلى آخر القطعة"[٣] ويركز النص على طريقة تأليف الموشح وكيفية بنائه من أسماط وأغصان وقواف تتردد وتتعدد مع اطرادها وزنا وتناظرا، ويمكن رد النصوص الثلاثة إلى أمرين يفسران منابع الإعجاب الشعبى والفنى بالموشح ويوضحان مصدره الأساسى الذى

---

(١) ابن خلدون في: المقدمة، طبعة مصر، ص ٥٣٦، مطبعة عبد السلام شقرون.

(٢) السابق، ص ٥٤٢ .

(٣) السابق، ص ٥٣٥-٥٣٦.

استوحاه المخترع الأول:

الأمر الأول: البناء الموسيقى الموزع في انتظام وتنوع، وقد برزت أهمية البناء الموسيقى في نصوص ابن خلدون الثلاثة. ففى الأول: نجده ينوه بسهولة التناول التى تقرب طريقته للمتلقى، وفي الثانى: ترصيع الأجزاء الذى يعجب ويطرب فيقبل عليه الجمهور ويشيع الموشح. أما النص الثالث: فيصرح فيه بأنه أسماط وأغصان أغصان وتعدد في القوافى واطراد منتظم حتى نهاية الموشح وهو أكثر النصوص دلالة على صلة الموشح بالمسمطات واستلهام النغمَ المتعدد والقوافى المختلفة منها.

وأما الأمر الثانى: فهو شعبية الموشح وقربه من الجمهور وكثرة ما تبثه الخرجة من تداعيات تطرب المتلقى فيستظرفها ويتهالك على جاذبيتها وسلاستها ويجد فيها طيته غناء وإيقاعا، وتبعا لذلك يمكن القول بأن للموشح مصدرين استوحاهما الوشاح الأول واستعانهما في اختراعه.

أولهما: المسمطات التى نص ابن خلدون على احتذائها وقصد الوشاح إليها، عند بناء الموشح يكرر المادة اللغوية للتسميط حين يقول: "أسماطا أسماطا وأغصانا أغصانا" والثانى: الأغانى الشعبية السائدة أيام الخلافة الأموية باللغة المحلية الأندلسية وبخاصة تلك التى تعمر بالإشارة الساخنة الحارة التى تفجر الذكريات والتداعيات والمواقف المشهورة لدى طبقات الشعب، ويكون ذلك في الخرجة، إذ هى مبعث البهجة والإثارة والبراعة. ويدعم هذا انتشار المسمط بأنواعه في الأندلس.

وقد جاءت دواوين أندلسية كاملة من أولها إلى آخرها في التسميط مثل ديوان لأبى زيد عبد الرحمن بن يخلفتن القرطبى، وقد خمسه أبو بكر محمد ابن المهيب ويسمى ديوان الوسائل المتقبلة في مدح النبى ﷺ[1] وقد بلغت

---

(١) عبد الرحمن بن يخلفتن في ديوانه: الوسائل المتقبلة، طبعة الحلبى، مصر .

صفحاته أكثر من مائة وثمانين صفحة، ولكل بيتين بالديوان أربع قواف تأتي بعدها القفلة مشكلة الشطر الخامس بقافية مختلفة عن الأشطار الأربعة السابقة عليها؛ ولكنها متفقة مع بقية قفلات القصيدة من أولها حتى آخرها.

والديوان مرتب على حروف الهجاء كلها تبعا لحرف القافية. بالقفلة: ومثال التخميس على حرف الهمزة قوله:

خليلى عجابًا لمحصب وانزلا ولا تبغيا عن خيفه متحولا

فأكرم به مغنى تحراه منزلا أحق عباد الله بالمجد والعلا

نبى له أعلى الجنان مبوأ

نبى عظيم القدر بالحق مرسل يعل به مذ كان طفلا وينهل

فلله منه وهو أعلى وأكمل أمين لإرشاد العباد مؤهل

حبيب بأسرار القلوب منبأ

أفاض الندى فيضا وأعمل صعدةً فساس بذاك الخلق لينا وشدة

فيا حبذا منه لمن شاء عمدة إمام لرسل الله بدءا وعودة

به يختم الذكر الجميل ويبدأ

له رتبة فوق السماكين قد سمت وكف ندى تحكى السحاب متى همت

وآى هدى بالأمر والنهى أحكمت إذا عـــددت للرســـل آىّ تقـــدمت

فآى رسول الله أجلى وأضوأ

أليس الذى حاز المفاخر والعلا بما نص من آى الكتاب وما تلا

وأنى يدانى في المكان الذى اعتلى أتم الورى جاها وأبهرهم حلى

له المدح يجلى والشفاعة تخبأ

حوى كل مجد للورى وجلالة وجاء بآيات محت كل قالة

فمن شك فيه فهو حلف ضلالة أفي الحق شك بعد ألف دلالة

تقدمها ذكر مدى الدهر يقرأ

لتخصيصه فوق الخصوص مزية ثنته إلينا قسمة أزلية

مكانته في المرسلين علية إنارته حسا وعقلا جلية

فلا الوهم يستولي ولا الشك يطرأ[١]

وقد أشار ابن خلدون إلى نوع من التسميط يسمى عروض البلد انتشر من الأندلس إلى المغرب على يد أندلسي يعرف بابن عمير، يقول ابن خلدون: "وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير"[٢] وقد ذكر ابن خلدون نموذجا من مزدوجات ابن عمير يقول فيه:

أبكاني بشاطئ النهر نوح الحمام على البستان في الغصن قريب الصباح

وكف السحر يمحو مدد الظلام وماء الندى يجرى بثغر الأقاح

باكت الرياض والطلى فيها افتراق سر الجواهر في نحر الجوار

ودمع النواعر ينهرق انهراق يحاكى ثعابين حلقت بالثمار

لووا بالغصون خلخال على كل ساق ودار الجميع بالروض دور السوار

وأيدى الندى تخرج جيوب الكمام ويحمل نسيم المسك عنها رياح

وهاج الصبا يطلى بمسك الغمام وجر النسيم ذيولاً عليها وفاح[٣]

---

(١) السابق، ص ٤-٦.

(٢) ابن خلدون في: المقدمة، ص ٥٤٧.

(٣) السابق، ص ٥٤٧-٥٤٨ .

وهذا المزدوج يصل أربع مقطوعات ولكن يزيــدون بــآخره مزدوجــا مختلف القوافى عن المزدوج الثابت القوافى المطرد في القطعة من أولها إلى آخرها، ويقول ابن خلدون: إنه انتشر بالمغرب ونوع الناس فيه أنواعا منهــا المزدوج والكارى والملعبة والغزل... إلخ[١].

وفى ديوان ابن زيدون نجد المسمطات[٢] ومنها وهو في الســجن يــذكر قرطبة وأيام صباه.

تنشق من عرف الصبا ما تنشقا
وعــــاوده ذكـــر الصّبا فتشوقا
ومــــا زال لمع البرق لما تألقا
يهيـــب بـــدمع العين حتى تدفقا
وهل يملك الدمع المشوق المصبأ

* *

خليـــلى إن أجـــزع فقد وضح العذر
وإن أستطع صبرا فمن شيمتى الصبر
وإن يك رزءا مــــا أصاب به الدهر
ففى يومنــــا خمـــر وفي غـــده أمر
ولا عجب أن الكـــــريم مـــــرزأ

* *

رومتـــنى الليالى عن قسى النوائب
فما أخطأتـــنى مرسلات المصائب

(١) ابن خلدون في: المقدمة، ص ٥٤٩ .

(٢) ابن زيدون: كرم البستانى، ص ٢٩ ، ٣٧، بيروت، سنة ١٩٨٤ .

أقضـــى نهاري بالأماني الكواذب
وآوى إلى ليل بطيء الكـــواكب
وأبطــــأ سار كوكب بات يُكلأ

* *

أقرطبـــة الغراء هل فيـــك مطمع
وهـــل كبـــد حـــرى لبيـــنك تنقع
وهـــل لليااليك الحمـــيدة مـــرجع
إذ الحسن مرأى فيك واللهو مسمع
وإذ كنـــف الدنـــيا لديـــك مـــوطأ

* *

أليس عجيبا أن تشط النوى بكِ
فأحيا كأن لم أنس نفح جنابك
ولم يلتئم شعبى خلال شعابك
ولم يك خلقى بدؤه من ترابك
ولم يكتنفنى من نواحيك منشأ

* *

نهـــــارك وضاح وليلك ضحـــيان
وتربك مصبوح وغصنك نشـــوان
وأرضك تكسى حين جوك عريـــان
وريــــــاك روح للنفوس وريحـــان
وحســـــــب الأماني ظـــلك المتفيأ

* *

أأنسى زمانا بالعقاب مرفلا

وعيشا بأكناف الرصافة دغفلا

ومغنى إزاء الجعفرية أقبلا

لنعم مراد النفس روضا وجدولا

ونعم محل الصبوة المتبوأ(١)

وهذه المخمسة تصل عشرين مقطعا.

ونجد في ديوان المعتمد بن عباد أشعارا لا تكتفى في البيت بقافية واحدة، بل تجعل له قافيتين واحدة في كل شطر وكذلك البيت الذى يليه لتصل أربع قواف في البيتين.

كقول المعتمد بن عباد يخاطب زوجته الرميكية في سجنه بأغمات:

قالت لقد هنّا هنا   مولاى أين جاهنا

قلت لها إلى هنا   صيرنا إلهنا(٢)

وهذا هو الدوبيت الذى شاع بالعراق ثم مصر، وقد أورد ابن خلدون كثيرا من أمثلته في المقدمة، ومعنى ذلك أن تعدد القوافى في الشعر لم يك معروفا في الأندلس فقط، بل كان ذائعا شهيرا مما يؤيد أن الموشح جاء امتدادا لتعدد القوافى في الأشكال الشعرية التى ذكرناها آنفًا وما أغناها، بالإضافة إلى تركيز مؤرخى الأدب على أن تعدد القوافى كان في مقدمة أسباب انتشار الموشح وإقبال الجمهور عليه وتحول الوشاحين إلى الإكثار منه، وكذلك نصهم وتصريحهم بأن فقرات الموشح هى أسماط تكررت وتتابعت حتى بنى الموشح وتم له النسج مما يشى بدور المسمط في النشأة الأولى للموشح،

(١) السابق، ص ٣٧ – ٣٩ .

(٢) المعتمد بن عباد في ديوانه، جمع وتحقيق د/ أحمد بدوى وآخرين، ص ١١٤، طبعة ٢، عن دار الكتب، مصر، سنة ١٩٩٧ .

ثم إن الموشحات العبرية في الأندلس إنما قامت على ركنين عربيين أولهما: العروض الخليلى الذى أفادوا منه موسيقيا إلى مدى بعيد، وثانيهما: استيحاء المسمطات والسير على نهجها في تعدد القوافى مما يسر لهم بناء الموشح ومهد لهم تأليفه.

يقول صمويل ستيرن عن شعراء الموشحات اليهود :

"كان سيصبح من الغريب حقا أن يقع هؤلاء الشعراء على المسمط بالتحديد لو لم يكن هذا الجنس متداولا في الشعر العربى المعاصر في الأندلس" [١].

وقد حاول البعض رد اختراع الموشح إلى أصول غير عربية جحدا وهذه قضية أثيرت مؤخرا ولم تجر لمؤرخى الأدب ونقاد الموشح على قلم؛ لكن أوروبا اليوم تكاد تدعى سبقها في كل العلوم والآداب وبينها اختراع الموشح، وليتها كانت قضية فنية أو نقدية إبداعية، إذن لعم بها النفع ورحب بها الفكر وآمن بها العقل، لكنها قضية صراع حضارى واستعلاء مفرط ، حتى ولو أدى إلى سلب محاسن حضارات وادعائها لحضارات أخرى تمحلا ودون أثارة من دليل أو برهان، ولكنها حتى الآن قلة ظهرت مؤخرا في القرن الماضى لم تعدم من يهون من شأنها كقولهم: "وإذا اعتقد أحد أن المسيحيين الإسبان لم يأخذوا شيئا من مواطنيهم ذوى الثقافة الرفيعة من العرب فإنه يحكم عليهم بضيق الأفق"[٢] كما تعترف الغالبية العظمى بفضل العرب " وبفضل العرب لم تبلغ أمة أوروبية أخرى ما بلغته شبه الجزيرة الأيبيرية من تقدم في العلوم والفنون في تلك العصور التى كانت وسيطة أو مظلمة بالنسبة إلى أوروبا، لكنها لم تكن كذلك على الإطلاق بالنسبة للأندلس" [٣].

---

(١) صمويل ستيرن: "الموشح الأندلسى" ص ٩٦.

(٢) السابق، ص ٤٠ .

(٣) السابق، ص ٦٣ .

الموشح بعد ابن سناء الملك:

وضع ابن سناء الملك في كتابه "دار الطراز" مجموعة من الأسس الإبداعية والقيم المعيارية في صناعة الموشح وبنائه، وهو رائد هذه الحلبة وسابقها، فلم يسبقه في أصوله مؤلف وهو عبقرى مصرى جدير بالتقدير والإعجاب، غير أن ما وصله من موشحات لم يكن كثيرا، بل إننا نجد عدد الموشحات بكتابه لا يتجاوز الثلاثين إلا قليلا، وبالرغم من إدراكه عصر الموحدين وفيه حدثت عدة تحولات في الموشح جعلت القيم النقدية لابن سناء بعيدة عن الواقع في معظم الأحيان فإن الرجل لم تصله من موشحاتهم ما يعمم أصوله، فتصدق على كل الموشحات، وهو أمر يصعب فيه الوصول إلى قيم جامعة مانعة؛ لأن التأصيل لفن مستمر ونام يتجدد في كل قطر منه الكثير على يد عشرات الوشاحين مخاطرة جريئة وغير محسوبة، وقد اقتصرت على أبرز ما جدَّ من أصول تتصادم مع ما أرساه هبة الله في صناعة الموشحات.

أولا- فى الخرجة:

يرى ابن سناء أن الخرجة ينبغى أن تأتى باللغة العامية فإن جاءت معربة "خرج الموشح من أن يكون موشحا" (١) ولكن الخرجة الفصحى أو المعربة كثرت في عصر الموحدين وما بعده وغلبت العامية وجاءت النسبة بين الخرجات الفصحى إلى العامية ٩ : ٥.

كما يرى ابن سناء أن غصن التمهيد ينبغى اشتماله على: قال أو قلت أو غنى أو غنيت أو غنت حين يقول: "ولا بد في البيت الذى قبل الخرجة من قال أو قلت أو غنى أو غنيت أو غنت(٢)" وقد تطورت الموشحات فصار الغالب ترك التمهيد في عصر الموحدين وما بعده وأصبحت نسبة التمهيد إلى نسبة تركه ٢ : ١.

كما يشترط في الخرجة أن تأتى وثبا واستطرادا ولا تأتى امتدادا أو تكميلا لما قبلها في الموشح فهو يقول: "وعلى الوشاح أن يجعل الخروج إليها

---

(١) هبة الله بن سناء في: دار الطراز، ص ٤٠ .

(٢) ابن سناء الملك في: دار الطراز ، ص ٤١-٤٢.

وثبا واستطرادا وقولا مستعارا"(١).

بيد أن عصر الموحدين وما بعده أخل أيضا بهذا الشرط كما أخل بغيره إذ جاءت الخرجة متممة أكثر من مجيئها وثبا واستطرادا وكانت نسبة المتممة إلى نسبة الوثب والاستطراد ٤ : ٣.

وقد حكى هبة الله بن سناء أن عدد أبيات الموشح خمسة والأقفال ستة في التام وخمسة في غير التام، ولكننا رأينا أن أبيات الموشح ظلت في زيادة، فقد وصلت إلى سبعة وثمانية وتسعة وعشرة أيام الموحدين وبعدهم وفي مقدمة ابن خلدون عن إبيات الموشح يرى أنها تتوقف عند سبعة أبيات أو أدوار حين يقول: "وأكثر ما ينتهى عندهم إلى سبعة أبيات"(٢) وبعد عدة صفحات يذكر موشح لسان الدين بن الخطيب الذى يعارض به موشح ابن سهل وعدد أبياته عشرة(٣) ثم إن ابن خلدون عاش في العصر الغرناطى وكان صديقا لابن الخطيب. وعندما يقسم ابن سناء الموشح إلى موشح شعرى وآخر غير شعرى يحكم بأن القسم الأخير هو الغالب على الموشح حين يقول: "وهذا القسم منها هو الكثير والجم الغفير"(٤).

وقد أثبت تطور الموشحات أيام الموحدين أن العكس هو الصحيح وأن الموشح الشعرى هو الغالب، وأن نسبته إلى غير الشعرى بلغت أيام الموحدين ٤ : ١ على أن عصر الموحدين هو أكثر العصور عددا في الموشحات الأندلسية.

كما زاد عدد أغصان السمط على ما حدده ابن سناء، فبلغ عند الوشّاحين المتصوفة اثنى عشر عند الششترى وخمسة عشر عند ابن عربى؛ وبهذا القدر نكتفى في الحديث عن هذه التطورات.

---

(١) السابق، ص ٤١ .

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٥٣٦ .

(٣) السابق، ص ٥٤. .

(٤) ابن سناء: "دار الطراز" ، ص ٤٨ .



ملخص الوحدة الخامسة

اخترع مقدم بن معافى ومحمد بن محمود القبرى الموشحات في الأندلس، وكان يغنى بها على آلة الأرغن، وطورها ابن عبد ربه ويوسف بن هارون الرمادي، وزادها تطويرا عبادة بن ماء السماء وعبادة القزاز. وطم بحرها في عهد الطوائف والمرابطين والموحدين، وانتقلت إلى المشرق مع الفرق الغنائية وطلاب العلم والحجاج والراحلين إلى الشرق. وهي تدور حول الغزل والشراب ووصف الطبيعة، ثم شملت المدح والهجاء وباقي الأغراض الأخرى. وأعظم الوشاحين الأندلسيين ابن بقي والأعمى التطيلي وابن الخطيب.

أسئلة تقويمية على الوحدة الخامسة ؟

س١: من مخترع الموشح في الأندلس ؟

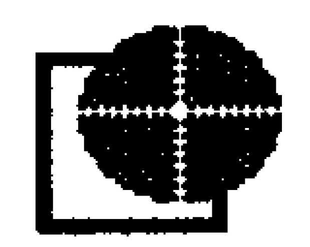
س٢: ما موضوعات الموشح الأصلية ؟

س٣: من أهم الوشاحين الأندلسيين ؟

س٤: كيف انتقلت الموشحات من الأندلس إلى الشرق ؟

إجابة بعض الأسئلة ☑

ج٤: لما شاعت الموشحات عن طريق الغناء في الأندلس انتقلت إلى المشرق مع الفرق الغنائية الأندلسية. وكذلك حملها طلاب العلم الأندلسيين معهم في رحلتهم إلى الشرق، وأيضا الحجاج الذين كانوا يتغنون بها في الطريق للتسلية، وخاصة الموشحات التي كان موضوعها مدح النبي ﷺ.



الوحدة السادسة

فنا الخطابة والرسالة

الأهداف السلوكية :

١- الهدف المعرفي :

- أن يعرف الطالب الخطابة وأنواعها، وأعظم الخطباء في الأندلس.
- أن يعرف الرسائل الأندلسية وتطورها، وأهم كتابها في الأندلس.
- أن يدرك الطالب الاتجاهات الاجتماعية والأخلاقية في الأندلس.

٢ – الهدف الوجداني :

أن يتصف الطالب بالقيم النبيلة التي تدور حولها الخطابة والرسالة.

٣ – الهدف المهاري :

أن يتذوق الطالب الخطب والرسائل، ويطلع على جمالها، فربما يصبح خطيبا.

١- فن الخطابة :

تعد الخطابة فنا من الفنون القديمة، فقد كان العرب في الإسلام يعجبون بالخطباء الفصحاء، وكانوا يحفظون أحسن الخطب، وفي سوق عكاظ كان البلغاء يتبارون بالخطب، كما يتبارى الشعراء في نظم الشعر وإلقائه. وكانت موضوعاتها متعددة بتعدد مناسباتها، كمجالس الصلح، ومحافل الزواج، ومجامع التعارف، ومواقف الحرب.

وعندما جاء الإسلام نمت الخطابة، واتسعت موضوعاتها، وأصبحت جزءا مهما في صلاة الجمعة والعيدين، فأضيف الموضوع الديني إلى الموضوعات السابقة، وكذلك صارت الخطابة السياسية مؤثرة في المواقف

الإنسانية في أواخر صدر الإسلام، وفي عهد بني أمية، وتعددت وتنوعت بتنوع الأحزاب من أموية وشيعية وعباسية وعلوية وزبيرية وخوارج، علاوة على خطب القصاص والوعاظ التي صارت شبه فن مستقل .

وكان من عادة الجيوش الإسلامية أن تصحب معها خطباء فصحاء؛ لتحميس الجنود، وكان القادة أنفسهم بلغاء ، فكانوا يخطبون خطبا عسكرية قبل القتال، يحددون فيها الهدف، ويلقون القوة والحماسة في صفوف المجاهدين. والقارئ في كتب الفتوح والتاريخ، يجد خطبا لأبي عبيدة، وخطبا لخالد بن الوليد، وخطبا لسعد بن أبي وقاص، ومن قبل هناك خطب النبي ﷺ وخطب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين أشهر الخطباء العرب في الجاهلية والإسلام، وأورد نماذج من خطبهم، وكذلك ذاعت الخطابة في عصر بني أمية.

ولما فتح طارق بن زياد الأندلس سنة اثنتين وتسعين من الهجرة، خطب في جنده خطبة حماسية قصيرة، كما هي طريقة القدماء في الخطابة؛ إذ كانوا يوجزون في كلامهم، ويعتمدون على الفطرة، فلا يتكلفون في تزويقها كما يصنع المتأخرون من الخطباء. يقول المقري في نص نقله عن ابن خلكان:

"فلما بلغ طارقا دنوه [لذريق] قام في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حث المسلمين على الجهاد، ورغبهم(١). وذكر المقري خطبة طارق بن زياد في جنده حيث قال طارق:

"أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم،

---

(١) نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٤٠.

وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمـرا ذهبـت ريحكـم، وتقوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خـذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ..."[١].

هذه الخطبة أول ما وصل إلينا من خطب الأندلسيين، وقد تعرضت لكثير من الشك ولكن جزءها الأول الذي ذكرناه صحيح، أما الباقي ففيه شيء مـن الوضع أو الانتحال، وخاصة هذه العبارات "**وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان، والحلـل المنسوجة بالعقيان ...**"[٢]. إن الأسلوب هنا من أسـاليب العصـر العباسـي الثالث، وليس من أساليب صدر الإسلام وعصر بني أمية، كمـا أن الـروح السائدة فيه ليست روح الجهاد مثل ما في أول الخطبة، وإنما فيه روح الجشع والطمع والشهوانية، فهذا الجزء لا شك منحول.

والخطابة في الأندلس أنواع؛ منها: الخطب السياسية، والخطب العسكرية، والخطب الدينية، والخطب الاجتماعية، وظهرت في الأندلس الخطب الفكاهية، وهي نوع من السخرية اللطيفة.

ومن أقدم الخطب التي وصلت إلينا بعد خطبة خالد، خطبة عبد الرحمن الداخل، فقد كان هذا البطل بليغا ينظم الشعر الجميل، ويحبر الرسائل الدقيقة، ويرتجل الخطب المؤثرة.

وكان أولاده وأحفاده بلغاء شعراء؛ وقد ذكرت كتب التاريخ بعض أشـعارهم وخطبهم وأقوالهم البليغة. ولما بلغت الدولة الأموية قمة مجدها وعظمتهـا أيـام عبد الرحمن الناصر، رغب في الصلة بها ملوك الروم، والنورمـان والفـرنج، فأرسلوا سفاراتهم إلى الخليفة الناصر، تحمل الهدايا والرغبة في حسن العلاقـة، واستقبلهم عبد الرحمن بقصره أحسن استقبال، وأعد لذلك الخطباء الذين يـذكرون

---

(١) نفح الطيب ، ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤١ .

أعماله في الأندلس، ويترجمها المترجمون للوفود الأجنبية، وكان المرشح للخطبة كما – يقول المقري– الفقيه محمد بن عبد الرحمن الكستياني، فلما قام ليخطب بهت من هول المجلس فلم يستطع أن ينطق، فقيل لأبي علي البغدادي أكمل، فقام وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على النبي محمد ﷺ، ثم انقطع وارتج عليه، فقام منذر بن سعيد من تلقاء نفسه، وكان ضمن الحاضرين، فبدأ من حيث وقف أبو علي القالي، وخطب خطبة عصماء عدد فيها مناقب عبد الرحمن الناصر، وذكر ما أحدث في الأندلس من تأمين الناس، وما أحدث في الأندلس من الخير الوفير، كل ذلك بأسلوب رائع، أخذ الألباب واستولى على القلوب؛ لأنه كان صادقا، وكان رابط الجأش، لا يخشى إلا الله، ففتح الله عليه، وأعجب به الحاضرون، لا سيما الناصر، فأكرمه غاية الإكرام .

ونذكر خطبة منذر كما أوردها المقري في نفح الطيب، قال منذر بن سعيد:

"أما بعد؛ حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقاما، ولكل مقام مقالاً، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قمت في مقام كريم بين يدي ملك عظيم، فأصغوا إليَّ معشر الملأ بأسماعكم، والقنوا عني بأفئدتكم، إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت، وإن الجليل تعالى في سمائه، وتقدس بصفاته وأسمائه، أمر كليمه موسى، صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه، أن يذكر قومه بأيام الله، جل وعز، عندهم، وفيه وفي رسول الله – ﷺ – أسوة حسنة، وإني أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم وأمنت سربكم، ورفعت فرقكم، بعد أن كنتم قليلا فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم، ولاه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير، من ضيق الحال، ونكد العيش والتغيير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بيمن سياسته

إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء، أنشدكم الله معاشر الملأ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها؟ والسبل مخفوقة فأمنها؟ والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها؟ وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يدا على عدوكم، بعد أن كان بأسكم بينكم. ناشدتكم الله، ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها؟ ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد، حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد، واعتزل النسوان، وهجر الأوطان، ورفض الدعة وهي محبوبة، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة، بطوية صحيحة، وعزيمة صريحة وبصيرة ثابتة، نافذة ثاقبة، وريح هابة غالبة، ونصرة من الله واقعة، وسلطان قاهر، وجد ظاهر، وسيف منصور، تحت عدل مشهور، متحملا للنصب، مستقلا لما ناله في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها، ولم يبق لها غارب إلا جبه، ولا نجم لأهلها قرن إلا جذه، فأصبحتم بنعمة الله إخوانا، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائكم أعوانا، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا، ليقضي الله أمرا كان مفعولا، ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أمور باطنة خافية، دليلها قائم، وجفنها غير نائم ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب، ولكل نبأ مستقر، ولكل أجل كتاب، فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه، واسألوه المزيد من نعمائه، فقد أصبحتم بيمن خلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعصمة والسداد، وألهمه بخالص التوفيق إلى سبيل الرشاد، أحسن الناس

حالا، وأنعمهم بالا، وأعزهم قرارا، وأمنعهم دارا، وأكثفهم جمعا، وأجملهم صنعا، لا تهاجون ولا تذادون، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم – ﷺ – فإن من نزع يدا من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومرق من الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وقد علمتم أن التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها حفظ الأموال وحقن الدماء، وصلاح الخاصة والدهماء، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود، وتوفى العهود، وبها وصلت الأرحام، ووضحت الأحكام، وبها سد الله الخلل، وأمن السبل، ووطأ الأكناف، ورفع الاختلاف، وبها طاب لكم القرار، واطمأنت بكم الدار، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به، فإنه تبارك وتعالى يقول: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾، وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين، وصنوف الملحدين، الساعين في شق عصاكم وتفريق ملاكم، الآخذين في مخاذلة دينكم، وهتك حريمكم، وتوهين دعوة نبيكم، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين. أقول قولي هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين، مستغفرا الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين"(١).

وكان كل أمير من أمراء بني أمية يتولى العرش يخطب خطبة يحدد فيها سياسته تجاه الرعية، ويذكر ما وصاه به أبوه تجاههم، وكذلك كان بعض الحكام اللاحقين من عصر الطوائف ومن بعدهم حتى نهاية غرناطة وتسليمها، وانتهاء دولة المسلمين في الأندلس.

وكانت الخطب الدينية كثيرة لكثرة المساجد الجامعة، في المدن المختلفة، في كل شهر أربع خطب، وفي كل مسجد خطيب، وعادة كان يختار من العلماء ذوي البيان الرفيع، وأصبحت الخطابة خطة يتولاها الخطباء بقرار

---

(١) نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٦٩ .

سياسي، إلا أنهم كانوا يتكلمون بحرية، ولا تفرض عليهم خطب خاصة كما يحدث الآن في وزارات الأوقاف في الدول العربية، حتى صار هذا الفن ميتا. وكانت أسرة ابن الخطيب مشهورة في غرناطة ولوشة بالإمامة والخطابة، وهذا اللقب يدل على عملهم .

ومن أعظم الخطب في الأندلس خطب الجهاد؛ لأن الحروب كانت مستمرة بين المسلمين والنصارى، خاصة بعد سقوط دولة الأمويين بالأندلس، وقد شاعت هذه الخطب، وحفظها الناس، وهي تدور حول قيمة الجهاد، وفضائل المجاهدين في سبيل الله، وما أعده الله لهم من نصر في الدنيا، أو جنة النعيم في الآخرة إن استشهدوا، وقد كتب ابن أبي الخصال في عصر المرابطين عدة خطب يحض فيها على قتال الأعداء، وكذلك فعل ابن الخطيب، وكان طويل النفس في خطبه الجهادية يتفنن في معانيها وعباراتها، حتى تصير قطعة أدبية رائعة، كأنها مقصودة لذاتها.

قال أبو عبد الله بن أبي الخصال في خطبة بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله وآله:

"ألا تستوحشون لتباريح العصر، وركود ريح النصر، وتداعي أمم الكفر، وإجفالنا عن مقاومتهم إجفال العفر؟ ألا نقلع عن الذنوب التي فتت في أعضادنا، وقضت باهتضامنا واضطهادنا ؟ أقسم بالله، ما انقلب حال الدهر، ولا سلبنا عادة الظهور والقهر، ولا نكل الأبطال ولا أخلفنا الغيث الهطال، ولا رفعت علينا من الرعب جبال لا تظهر ولا تطال، ولا غير الله نعمنا، ولا خذلنا، ولا أسلمنا إلا لما عهد إلينا وأعلمنا، إذ يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾. فاستقيلوا – رحمكم الله – عثاركم، واستقبلوا عدوكم، وخذوا ثأركم، وخلدوا في صحف القبول آثاركم، وأخلصوا لله طاعتكم، وحققوا إنابتكم وضراعتكم، فضراعة العبد إلى مولاه تستنزل عطفه

ورضاه، وتوجب رحمته وعتباه. وقد نعى الله القسوة على قوم حذرهم نفسه، وأنزل بهم – فلم يتضرعوا– بأسه، فقال جل من قائل: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ليسمع تضرعه) ... "(١).

في هذه الخطبة الجهادية يحث الخطيب المسلمين الأندلسيين على الجهاد، لدفع الظلم والأذى عن أنفسهم، وهو يقارن بطريق غير مباشر بين ما كان عليه المسلمون من قوة واتحاد وغلبة على العدو، وما هم عليه في أيامه، من عجز وضعف وتفرق، وانتصار عدوهم عليهم، واقتحامه لأراضيهم وبيوتهم، ويرد سبب هذا الهوان إلى بعدهم عن الله، وانشغالهم بالدنيا، وعدم تضرعهم لخالقهم، وهو يستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ليؤكد صحة ما يقوله لهم.

ونلحظ تجويد الخطيب لعباراته، فكلماته منتقاة تؤدي دلالتها حق الأداء، وجمله مرصوفة رصفا متينا، والموسيقى بين جنباتها واضحة، علاوة على الصور الخيالية البديعة، فهي قطعة فنية رائعة.

٢– فن الرسالة:

مضت الرسائل الأندلسية الأولى على سنن الرسائل في الشرق الإسلامي في صدر الإسلام وعصر بني أمية، أي أنها كانت موجزة مباشرة، تعنى بالوضوح والوصول إلى الغرض من أقرب طريق، كما كانت تعتمد على الفصاحة والبلاغة العالية، ولم يكن فيها تزويق إلا ما جاء فطريا بلا تكلف، كسجعة بين جملتين أو توازن أو جناس مثلا.

ومرت السنون، وبدأت الرسائل تطول شيئا فشيئا، حتى صارت طويلة جدا في العصر الغرناطي، فمن يقرأ رسائل ابن الخطيب التي جمع بعضها في

(١) رسائل ابن أبي الخصال، تحقيق د/ محمد رضوان الداية، دار الفكر بدمشق، ط١، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧ م، ص ٥٢٨.

كتابه: "كناسة الدكان بعد انتقال السكان" أو كتبه الأخرى، يجد مطولات من الرسائل، تفنن فيها ابن الخطيب، فحشد لها كل وسائل البلاغة الجمالية، وأسهب في تنويع التراكيب، إلى أن صارت كأنها مقصودة لذاتها، مع أن الرسائل تكتب أصلا لأداء عمل، أو استدعاء شخص، أو إرضاء غاضب، إلى غير ذلك من المقاصد السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وأنواع الرسائل في الأندلس متعددة، منها الرسائل السلطانية أو الديوانية، والرسائل الإخوانية، والرسائل الأدبية، والرسائل الاجتماعية والفلسفية. وكان للأمراء الأندلسيين كتاب يكتبون عنهم ما يريدون، وكانوا يختارونهم من أبلغ الناس؛ لأنهم كانوا يقدرون الكلمة، ويعرفون قيمتها في مجالس السياسة والاجتماع، وكان بعضهم يكتب بنفسه أحيانا. فعبد الرحمن الداخل كان يكتب بنفسه الرسائل المهمة، وكان بليغا، وذكر ابن حيان في كتابه: "المقتبس في تاريخ الأندلس" أسماء الكتاب الأندلسيين الذين كتبوا لملوكها حتى أيامه، فذكر من كتاب عبد الرحمن الداخل: أمية بن يزيد بن حوثرة، وتولاها أبناؤه من بعده للأمراء اللاحقين. وفي عهد عبد الرحمن الأوسط تطورت حضارة الأندلس، وتنوعت الوزارات، فكان لكل وزارة كتابها، ومن أشهر الكتاب: محمد بن سعيد الزجالي وأولاده.

وكان محمد بن أبي عامر حاجب هشام المؤيد، كاتبا مجيدا، وكذلك كان أبناؤه مجيدين. ولما سقطت الخلافة، ودبت الفتنة، وصارت الأندلس دويلات كثرة العواصم، وتعددت الملوك، واتخذ كل ملك من هؤلاء الملوك الصغار كتابا، وجعل له ديوان إنشاء على نمط دواوين الإنشاء في الدول الكبرى، وقد حقق هذا الحال ازدهارا في فن الرسائل، وإن كان الضعف العسكري قد عم وطم. ومال الكتاب إلى التفنن في الكتابة كما يبدو من الرسائل المتبادلة بين ملوك الطوائف، وكان بنو عباد يجيدون الكتابة، وخاصة المعتمد. وكان بنو الأفطس أصحاب بطليوس كذلك لا سيما المتوكل، وكان يكتب لهم عبد المجيد بن عبدون، وكان بنو جهور أيضا في قرطبة يتقنون الكتابة،

وفي المرية وبلنسية وغيرها نجد كتابا كثيرين، نقل ابن بسام الشنتريني من رسائلهم نصوصا كثيرة، وأثبتها في كتابه " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة".

وأما الرسائل الإخوانية فقد ازدهرت في الأندلس، وكانت موضوعاتها تشتمل على العتاب والاستدعاء، والتهنئة والتعزية، والطرائف المضحكة، والفوائد العلمية، ومن أمثلة الرسائل الإخوانية رسالة ابن حزم لابن عمه أبي المغيرة، ورسائل ابن شهيد لأصحابه، ورسائل ابن أبي الخصال، ورسائل ابن الجياب وابن الخطيب، ورسائل ابن خلدون لصديقه لسان الدين بن الخطيب.

وأما الرسائل الاجتماعية، فمنها الرسائل الأخلاقية التي تهدف إلى إصلاح النفوس كرسالة ابن حزم التي سماها "الأخلاق والسير" ورسالة "الحسبة" لابن عبدون، ورسائل الشفاعة وكانت كثيرة، يتوسط فيها كاتب لرجل كي يحصل على عمل، أو ليعفو عن فلان، أو ليرد له حقه، ومنها: رسالة شفاعة اتخذت صورة فكاهية، وهي الرسالة "الزرزورية"، وقد كتب لها الكتاب معارضات عديدة وصلت إلى عشرين رسالة، أطلق عليها في الأدب الأندلسي: "الزرزوريات".

وأما الرسائل الأدبية فكثيرة، منها ما يتناول النقد الأدبي لشعر أو نثر، ومنها ما يصور رحلة خيالية، كرسالة "التوابع والزوابع" لابن شهيد، ورسالة "طوق الحمامة" لابن حزم، ورسائل ابن عبد الغفور الكلاعي. والمطلع على هذه الرسائل يجد تأثير الأدباء العباسيين عليها، فطريقة بديع الزمان في رسائله فشت في الأندلس بعد أن انتقلت رسائله إليها. وطريقة أبي العلاء في الشعر والنثر كان لها صدى في هذه الرسائل الأدبية.

ومن هذه الرسائل رسالة تهنئة بمولود أبدعتها براعة أبي القاسم محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرخ بن الجد :

"إن أحق ما انبسط فيه للتهنئة لسان، وتشرف في ميادين معانيه بيان وبنان، أمل رجي فتأبى زمانا، واستدعي فلوى عنانا، وراودته المنى فأتعبها

حينا، وغازلته الهمم فأسعرها حنينا، ثم طلع غير مرتقب، وورد من صحبة المباهج في عسكر لجب، فكان كالمشير إلى ما بعده من مواكب الآمال، والدليل على ما وراءه من كواكب الإقبال، أو كالصبح افترّت عن أنوار الشمس مباسمه، والبرق تتابعت إثر وميضه غمائمه، وفي هذه الجملة ما دل على المولود المجدود، المؤذن بترادف الحظوظ وتضاعف السعود، فيا له نجم سعادة، تطلع في أفق سيادة، وغصن ثناء، تفرع من دوحة علاء، لقد تهللت وجوه المحاسن باستهلاله، وأقبلت وفود الميامن باستقباله ونظمت له قلائد التمائم، من جوهر المكارم، وخص بالثدي الحوافل، بلبان الفضائل، وما كان منبت الشرف بانفراد تلك الأرومة الكريمة إلا مقشعر الربى، مغبر الثرى، متهافت أغصان الرضا، فأما وقد اهتز في أيكة السيادة قضيب، ونشأ في نبتة النجابة نجيب، فأخلق بذلك المنبت أن تعاوده نضرته، وترف عليه حبرته، ويراجعه رونقه وبهاؤه، وتضاحكه أرضه وسماؤه، فالحمد لله على ما أتاحه من انثناء الأمل بعد جماحه، واختيال الجذل في حلية غرره وأوضاحه، وهو المسئول أن يهنيك منه صنعا، يحسن في مثله الحسد، ويتمنى لفضله النسل والولد "(١).

كان الأدباء الأندلسيون يتفننون في كتابة الرسائل، فيتبعون جزئيات المعنى حتى يستوفوه، كما يبدو في المثال السابق، ويولدون معاني أخرى من المعنى العام، فالتصرف العقلي واضح في غزارة الأفكار، وكانوا أحيانا يستطردون على طريقة الجاحظ، ثم يعودون إلى الموضوع الأصلي. وأما العناية بالتزويق الجمالي فكان قاسما مشتركا بينهم؛ لأن الحضارة الإسلامية في الأندلس بلغت قمة مجدها، وكان التألق غاليا في العمارة والملابس والخط والحدائق، وأدوات الطعام والشراب، والأطعمة نفسها والأشربة، كل ذلك لكثرة الخيرات في تلك البلاد. لا غرابة إذن أن يشمل التأنق الكتابة، فالأسلوب صار مجازيا جماليا، مليئا بالتشبيهات والاستعارات والكنايات والمقابلات

---

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ – ٢٢٦.

والجناس والسجع والتـوازن ومراعـاة النظيـر، والإشـارات والتلميحـات والتعريض؛ ولذلك وجب على القارئ أن يكون واسع الثقافة؛ لكي يفهم النص. وهناك ملاحظة أخرى على الرسائل فأثر القرآن ظاهر في المعاني والألفاظ، والحديث الشريف كذلك، إذ كان بعض الكتاب يقتبسون منهمـا، ويضـمنون كتاباتهم آيات كريمة أو بعض آيات أو حديثا، أو الأندلسية، هـي أن الـروح الدينية تسري فيها جزءا من حديث يستشهدون به على صحة ما يـرون مـن آراء. وقد يأتي ذلك في رسائلهم دون أن يقصدوا إليه؛ لأنهم كانوا يحفظـون القرآن في طفولتهم، ويحفظون بعض الأحاديث بجانب الشعر الجيد، والخطب البليغة، وكل أولئك يحفظ في الذاكرة وينسى في بعض الأوقات، إلا أنه يظهر عند الكتابة، وربما لا يشعر به الأديب.

وكان التأثير الديني بينا في كل أنواع الأدب الأندلسـي، ولمـا وصـلت المقامة إلى الأندلس كان أثره فيها أيضا.

ملخص الوحدة السادسة



كان الجيش الإسلامي الذي فتح الأندلس يضم بين صفوفه خطباء مجيدين، ومنهم طارق بن زياد الذي ألقى خطبة قصيرة في جنوده. وكان هدف الخطابة بث الشجاعة في صفوف المحاربين. واتسعت الخطابة مع مضي الزمن، وتنوعت إلى خطابة عسكرية وسياسية واجتماعية ودينية، وهي أكثر الأنواع؛ لأن صلاة الجمعة لا بد من خطبة فيها، وكذلك عيد الفطر وعيد الأضحى. ومع كثرة المساجد ازدادت الخطب الدينية. وقد بدأت موجزة، ثم طالت في عصر الطوائف ومن بعدهم، وخاصة عصر غرناطة. وأعظم الخطباء: منذر بن سعيد وابن أبي الخصال وجد ابن الخطيب والنباهي، ومن الأمراء: عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الأوسط .

ولقيت الرسائل عناية كبيرة في الأندلس، وعني بها الأمراء، وجعلوا لها ديوانا يسمى ديوان الرسائل، واختاروا لها أبلغ الأدباء كأمية بن زيد وأولاده، وبني الزجاجلة وابن زيدون وابن الشهيد، وابن الجد وابن الجياب. وكان الأمراء أنفسهم يدبجون الرسائل البليغة مثل عبد الرحمن الداخل والمنصور ابن أبي عامر وابن عباد وبن صمادح... وغيرهم.

وأنواع الرسائل عديدة؛ رسائل سياسية وحربية وأدبية وإخوانية وفكاهية. وكان الكتاب يعتنون بالأسلوب لا سيما العصور المتأخرة.

[?] أسئلة تقويمية على الوحدة السادسة

س١ : حدد مصطلح الخطابة .

س٢ : ما أنواع الخطب في الأندلس ؟

س٣ : من أهم الخطباء في الأندلس ؟

س٤ : لماذا ازدهرت الخطابة في الأندلس ؟

س٥ : ما مفهوم الرسالة ؟

س٦ : ما أنواع الرسائل في الأندلس ؟

س٧ : لماذا طالت الرسائل في أواخر دولة الأندلس ؟

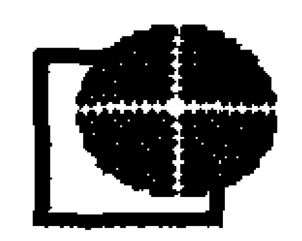
س٨ : من أهم كتاب الرسائل في الأندلس ؟

إجابة بعض الأسئلة

ج١: الخطابة فن شفوي يقصد به إقناع المستمعين بقضية من القضايا .

ج٤: ازدهرت الخطابة في الأندلس لانتشار التعليم، وظهور مشاكل عديدة اقتضت هذا الفن، فكثرة الحروب بين المسلمين والكاثوليك دعت إلى الإكثار من خطب الجهاد. وكذلك تعدد الخارجين على الدولة في عصر بني أمية أدى إلى كثرة الخطب لإقناع الشعب بأن هؤلاء الخارجين مخطئون، ويجب قتالهم. وأيضا خلافات ملوك الطوائف أدت إلى شيوع فن الخطابة لتاييد هذا أو ذاك. وكثرة المساجد في جميع مدن الأندلس وقراها، وتحويل السواد الأعظم من الشعب إلى الإسلام دعا إلى زيادة الخطب، وتطور الخطباء. وأخيرا صار منصب الخطيب مهما جدا، وكان يتم تعيين الخطيب بقرار رسمي في العصور المتأخرة.

ج٧: طالت الرسائل في الأندلس بمرور الزمن؛ لأن الناس اتجهوا إلى التفنن في كل شيء، فكانوا يزخرفون بيوتهم ومساجدهم وملابسهم وآنيتهم، وانعكس كل ذلك على الرسائل فأطالوا فيها، وتفننوا في تشقيق الكلام وتحسينه بالاستعارات والتشبيهات والكنايات، والمقابلات وضرب الأمثال. وتعدد الكتاب جعلهم يتنافسون في الإطالة والتزيين، يضاف إلى ذلك تأثر الكتاب الأندلسيين بكتاب العباسيين كبديع الزمان، والصابي، وأبي العلاء المعري.



الوحدة السابعة

فنا المقامة والقصة

الأهداف السلوكية :

١- الهدف المعرفي:
- أن يعرف الطالب المقامة وأصولها التي تعتمد عليها وكيف نشأت وتطورت في الأندلس.
- أن يعرف الحكايات والقصص التي دارت في بلاد الأندلس، وتغذى بها الوجدان الشعبي.

٢- الهدف الوجداني:
- أن يدرك الأهواء التي تحرك الأشخاص في المقامة والقصة، ويحب هذين الفنين اللذين أبدع فيهما الأندلسيون.

٣- الهدف المهاري:
- أن يحسن قراءة المقامة والقصة، ويستنبط منهما اتجاهات المجتمع الذي أبدعهما.

١- فن المقامات في الأندلس:

لما ابتدع بديع الزمان فن المقامات في شكلها الأدبي، أعجب بها كثير من الأدباء، فقرأوها وحفظوها، ونسج على منوالها عدد من الأدباء في العراق والشام ومصر، ووصل أثرها إلى الأندلس؛ لأن العالم الإسلامي لم تكن بينه حدود فاصلة، فكان العلماء والأدباء والتلاميذ يتنقلون بين أرجائه في حرية كاملة، على الرغم من نشوء دويلات سياسية مختلفة في العالم الإسلامي. من أجل ذلك كانت الأعمال الأدبية ترحل مع الراحلين شرقا وغربا، وتنسخ منها

نسخ كثيرة، ومن هذه الفنون التي انتقلت من المشرق إلى الأندلس فن المقامات كما وضعها بديع الزمان وعكف عليها الأندلسيون وأفادوا منها، وعارضوا بعضها، كما فعل ابن شهيد؛ إذ عارض بعض القطع الوصفية لبديع الزمان، وذكر في رسالة التوابع والزوابع التي كتبها أنه لقي شيطان بديع الزمان، وأسمعه بعض إبداعه فأعجب به، وشهد له ذلك الشيطان أنه متميز فيما كتب.

وأشهر مَنْ نَسج على منوال بديع الزمان في العصر العباسي الحريري؛ لقد كتب خمسين مقامة وجعل لها بطلا وراوية مثل ما صنع بديع الزمان، واتخذ أسلوبا أشد وعورة، وكان نفسه طويلا في الكتابة، وملأها بغرائب اللغة، وأضاف إلى موضوعاتها المعتادة وهي: الكدية ونقد المجتمع والنقد الأدبي؛ والمدح ووصف البلدان؛ أضاف إليها: الفقه، فقه اللغة وفقه الدين، وجعل بعض قطعه تقرأ طردا وعكسا.

نالت مقامات الحريري حظا أكبر من مقامات بديع الزمان حتى إنها أخملتها، وقد نسخت منها في أيام صاحبها سبعمائة نسخة، بعضها نسخه طلاب أندلسيون، وحملوه معهم إلى الأندلس في القرن السادس، وهناك قرأوها وشرحوها، وأحسن شروح المقامات في الأندلس شرح الشريشي، وكان له ثلاثة شروح، صغير ومتوسط وكبير، وقد ضاع الصغير والمتوسط ، وبقي الكبير، وطبع في مصر ولبنان وغيرهما.

وأخذ الأدباء الأندلسيون يعارضون مقامات الحريري، ومن هؤلاء أبو عبد الله بن أبي الخصال، وصلت إلينا مقامة واحدة من مقاماته، وبطلها وراويها هما بطلا الحريري وراويته، أي إن لهما الاسم نفسه، فالبطل أبو زيد السروجي، والراوية الحارث بن همام. ويذكر مؤرخو الأدب الأندلسي أسماء عدد من الأدباء الذين كتبوا مقامات، منهم أبو حفص عمر بن الشهيد، نقل ابن بسام بعض فصول منها في كتابه "الذخيرة"، وكذلك اقتطع بعض القطع من مقامة ابن المعلم وزير المعتضد حاكم أشبيلية، ومقامة ابن فتوح، ومقامة

في هجاء أبي محمد البطليوسي، نسبت لابن خاقان مرة، ولابن أبي الخصال مرة أخرى، ومقامتان لمحارب بن محمد الوادي آشي، والمقامة الدوحية لمحمد ابن عياض اللبلي، ومقامات ابن الخطيب، والمقامة النخلية للنباهي، ومقامة تسريح النصال للزجال، ومقامة العيد للأزدي[١].

وأعظم المقامات الأندلسية هي المقامات السرقسطية، لأبي الطاهر السرقسطي[٢] نسجها معارضة لمقامات الحريري، وجعل لها بطلا هو أبو حبيب السدوسي، وراوية هو السائب بن تمام، وفي بعض المقامات راوية آخر يروي عن السائب اسمه المنذر بن حمام. وأدار السرقسطي مقاماته على الموضوعات التي طرقها بديع الزمان والحريري، وهي الكدية والنقد الاجتماعي والنقد الأدبي والمدح والوصف، وحاول أن يتفوق على الحريري، فزاد في التزويق الأسلوبي، فلزم ما لا يلزم في السجع، فكان يبني السجع بين الجمل على حرفين أو ثلاثة أو أربعة بدلا من حرف واحد. وفي بعض المقامات كان يجعل الجمل متساوية في عدد الكلمات، متماثلة في الأوزان، مما ساعد على زيادة جمالها الموسيقي، وأكثر فيها من الصور البلاغية؛ من تشبيه وكناية واستعارة وتعريض ورمز حتى اقتربت من الشعر، ولهذا دلالة قوية على حب المؤلف للفن، وصبره في كتابة مقاماته كأنه نحات ينحت تمثالا ويتأنق فيه.

---

(١) الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين؛ د / إحسان عباس ، ص ص ٣٠٣ –٣٢٦.

الأندلس، د/ شوقي ضيف ، ص ٥١٧ – ٥٢٦.

مقامات ورسائل أندلسية: د/ فرناندو دي لاجرانخا؛ ترجمة د/ عبد اللطيف عبد الحليم؛ القاهرة، دار الثقافة العربية.

محاضرات في الفنون الأدبية: د / شعبان محمد مرسي؛ القاهرة، دار الثقافة العربية، ط ٧، ٢٠٠٨ – ٢٠٠٩ م ، ص ص ١٩٨ – ٢١٧.

(٢) - المقامات اللزومية السرقسطية: لأبي الطاهر السرقسطي؛ تحقيق: د/ بدر أحمد ضيف، الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م .

ونورد قطعة من مقامة أبي حفص عمر بن الشهيد يقول فيها:

"وملنا إلى منزل بدوي ذي هيئة زي:

له منزل رحب عريض مــزرب بـــأعواد بلـــوط وطـــوج مفتـــل

ترى بعر الآرام فـــي عرصـــاته وقيعانـــه كأنـــه حـــب فلفـــل

فهش وبش، وكنس منزله ورش، وصير عياله إلى ناحية، وجمع أطفالـــه في زاوية، وجعل يدور كالخذروف أمام الصفوف، يتلقى الواحـــد منـــا بعـــد الواحد، يأخذ بركابه، ويكشر عن نابه، ويتمثل :

أخذي كذا بركاب الضيف أنزلـــه ألذ عندي مـــن الأســـفنج بالعســـل

أو من رغائف كـــانون ملهوجـــة أو رائـــب بقـــري جيـــد العمـــل

أو من خوار عجول في مسارحها أو من ركوب الحمير الفره في الكفل

ثم مال بنا إلى بيت مكنس، منوع مجنس، قد جلله حصرًا بلدية، وغشـــاه بسطًا بدوية، ومدَّ فيه شرائط وحبالاً، كأنه يريد أن يخرج خيالاً، وعلق منها غلائل وملاءات، وهمايين وسراويلات، وكم شـــئت مـــن خُـــرُق معصنْـــفَرَة وعصائِبَ مزعفَرَة، حتى المقنعة والخِمَار، والدلال المستعار، وقد اتخـــذ فـــي الحائط كوة وثانية، وملأها حقاقا وآنية، وأودعها من عقاد العروس فـــاخره، ومن طيب البادية أوله وآخره، مثل حراقة الورد بالبان، وعصـــارة العصـــفر بالزعفران، وشيء من الإثمد والإسفيذاج، ومراود الزجاج، وحبات المصطكى واللبان، وغبار العفص وقشور الرمان ، وكثير من سنون ذلك المكان .

فقلت: يا صاحب المنزل هنئت وهنيت، لقد أوتيت وأوتيت، وجعلت أرقق عن صبوح، وأقول: متى كان الخيام بذي طلوح. من أين للبداوة بهذا الرونق والطلاوة ؟ وكيف حتى أغرت على حانوت عطار؟ ومتى نُقل سوق البز

إلى هذه الدار؟ لقد قَرَّت بك الأعين، وسُرت الأنفس، هذا زي العروس، فأين العرس؟ فضحك البدوي ملء فيه، وتوسمت الازدراء فيه، وأنشد:

يا أخي نحن على أنا نتاج بـــــدويّ

سادة ناس لنا في هذه الدنيـــا دَوِيّ

عندنا إن جاء ضيف شِبَعٌ جمٌّ ورِيّ

وسرير حشوه ريش الفراريج وطيّ

وكرامات كثيرات وهيئـــات وزيّ

ثم قام من مكانه ودعا بصبيانه، وأغراهم بديك له هرم ليذبحه في طاعة الكرم ... "(١).

هذه مقامة جميلة، موضوعها نزهة أو رحلة قام بها ابن الشهيد، صـور فيها بعض الناس، والعادات والتقاليد، ومنها هذا الجزء الذي ذكرنـاه، وهـو وصف لأعرابي يعيش مع زوجته وأولاده بعيدا في البراري، ولـه صـفات أخلاقية كريمة، كإكرام الضيف، والابتسام في وجهه، والترحيـب بـه، كمـا وصف بيته الصغير وصفا دقيقا، فعرض ما فيه من آنية، وعطـور طبيعيـة طيبة، ومزج هذا الوصف بشيء من السخرية للإضحاك، إلا أن البدوي فهـم مقاصده، فأوضح له البدوي ما يتمتعون به من خـلال طيبـة، رغـم بيـتهم الصغير، ووضع كلامه في نسق شعري جميل.

ليت ابن بسام أورد المقامة كاملة، لأنها بديعة ولكنه اقتصر على فصول منها تدور حول وصف الديك الهرم، ووصف الكنيسة الخربة، وعرض لقاء مع القسيسين والرهبان، وصور الجواري والغلمان، كل ذلك بأسلوب أدبي رائع.

---

(١) الذخيرة: ق ١، ج ٢، ص ص ٥١٦ – ٥١٧ .

وقد توسع الأندلسيون في موضوع الوصف والرحلات داخل المقامات، وقللوا من موضوع الكدية أو التسول، لأن الأندلسيين كانوا يأنفون من هذه الحرفة، ويحبون العمل والاسترزاق منه، وقد تخففوا من بعض عناصر المقامة كالراوية أحيانا، فيكون الكاتب هو الراوية نفسه، وأحيانا استغنوا عن البطل والراوية، وفيها اقتربت المقامة من الرسالة، وتداخلت، لا يتنبه لها إلا الخبير بالفنيْن.

٢- فن القصة في الأندلس:

حمل الفاتحون المسلمون معهم إلى الأندلس حكايات مشرقية، وكذلك القبائل العربية التي هاجرت من المشرق إلى الأندلس، ومن هذه الحكايات قصص عشاق العرب، كمجنون ليلى، وجميل بثينة، وكُثير عزة، وعروة بن حزام وصاحبته عفراء، وكان يتصل بهذه الحكايات شعر. وقد تطورت في الأندلس، وظهرت قصص للعشاق الأندلسيين، أشهرها قصة ابن زيدون وحبيبته ولادة بنت المستكفي، وقصة ابن الحداد ونويرة التي كانت تسمى في الحقيقة جميلة، وقصة الشريف الطليق وغيرها.

وقد روى لنا ابن حزم في طوق الحمامة مجموعة من الحكايات عن العشاق الأندلسيين في عصره، وهو يرويها بأسلوب جذاب. ومن هذه الحكايات حكاية نُعْم التي أحبها، وتزوجها، إلا أنها توفيت، فحزن عليها حزنا شديدا، يقول: " وذلك أني كنت أشد الناس كلفا، وأعظمهم حبا بجارية لي، كانت فيما خلا اسمها نُعْم، وكانت أمنية المتمني، وغاية الحسن خلقا وخلقا، وموافقة لي، وكنت أبا عذرها، وكنا قد تكافأنا المودة، ففجعتني بها الأقدار، واخترمتها الليالي ومر النهار، وصارت ثالثة التراب والأحجار، وسني حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي، ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني، وقلة إسعادها، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك

من تالد وطريف، وببعض أعضاء جسمي العزيزة علي، مسارعا طائعا، وما طاب لي عيش بعدها، ولا نسيت ذكرها، ولا أنست بسواها، ولقد عفّى حبي لها على كل ما قبله، وحرم ما كان بعده[١].

وفي كتب التاريخ الأندلسي حكايات عن الفتح بعضها أساطير، مثل حكاية مائدة سليمان، والبيت ذي الأقفال، وفيها حكايات حقيقية حدث بعضها في بلاط الأمراء، كحكايات حيل الجوارى والنساء، مثل ما صنعت الجارية مرجان جارية الأمير عبد الرحمن مع زوجته الحرة القرشية، وقصة الفتى نصر، والطبيب الحراني، وهي التي انتهت بمقتل نصر بالسم الذي أعده للأمير عبد الرحمن الأوسط .

وانتشرت السير الشعبية التي تدور حول بطولات رجال في تاريخ الإسلام، مثل الإمام علي، وكانت هذه القصص تشتمل على خيال مجنح، وعجائب وغرائب في التصرفات، حتى يصير البطل أسطوريا، تماما مثل ما حدث لعنترة في مصر إبان العصر الفاطمي، إذ كتبت سيرته، وتوسع فيها الكاتب، حتى جعل عنترة يعيش مئات السنين. وقد ألف صاعد البغدادي للمنصور ابن أبي عامر قصة "الهجفجف بن غيداق مع الخنوت بنت مخرمة" وقصة "الجواس بن قعطل مع ابنة عمه عفراء" [٢].

وما زالت هناك مخطوطات تحتوي على حكايات شعبية متنوعة، ومنها حكايات السحرة وما يوهمون به من أقوال وأعمال، وفي مكتبة الإسكوريال بإسبانيا مخطوط مجهول المؤلف، مفقود العنوان، تحت رقم ١٨٧٦، فيه عدد من الحكايات، أولها قصة زياد بن عامر الكناني، وهي من قصص البطولة والفروسية، ثم يأتي بعدها قصص السحرة، وقصص العجائب والغرائب[٣] .

---

(١) طوق الحمامة في الألفة والآلاف ، لابن حزم ، ص ١٢٤ .

(٢) المعجب ، ص ٤٠ .

(٣) فن القص في النثر الأندلسي ، د/ على الغريب محمد الشناوي ، مكتبة الآداب بالقاهرة ، ط١ ، سنة ٢٠٠٣ م ، ص ١٩٢ .

وظهر في الأندلس القصص الفلسفي، وكان ذلك في عصر الموحدين، وأهم قصص هذا النوع قصة حي بن يقظان، التي كتبها الطبيب الفيلسوف ابن طفيل، وقد نشرت مرات كثيرة، وهي توحي بأن الإنسان يمكنه أن يصل بفطرته السليمة إلى الإيمان بخالق عظيم للكون، فالتأمل الدائم يفتح أبوابا كثيرة للفهم والاستنباط ، والتجربة تؤكد له أشياء عديدة.

بطل هذه القصة حي، وجد في الجزيرة المنعزلة التي ليس بها إنسي، فعطفت عليه غزالة، وأرضعته مع ظبائها حتى كبر، ولم يعرف شيئا من لغات البشر، وإنما كان يعرف لغة الحيوانات ويتعامل معها، ثم أخذ يتدبر فيما حوله، ولما ماتت الغزالة أمه، ظل يبحث عن السر الذي كان يحركها، ولما لم يجد شق بطنها وقلبها، ووصل في النهاية إلى أن هناك محركا كان يحركها، وأنه مختلف عن الجسم، وأن الكائنات المتحركة فيها هذا الروح، وحينما أثبت الروح، وهي الجوهر المهم، التفت إلى النباتات والنار والجبال، ثم السماوات وما فيها من نجوم وشمس وقمر، وأخذ يترقى في الفهم والاستيعاب عن طريق التأمل والتفكر والصيام، حتى تأكد له أن هناك خالقا واحدا لهذا العالم.

ومرة وصل إلى تلك الجزيرة رجل يسمى أبسال، كان فيلسوفا، رأى حي ابن يقظان، فعلمه اللغة، وعندما أتقنها ناقشه في أمر الخلق، فوجده وصل إلى حقائق كثيرة دون قراءة ودون تعلم، فتعجب من أمره، ثم طلب منه أن يصحبه إلى جزيرة معمورة بجوار جزيرتهما؛ لكي يعلموا أهلها تلك الحقائق الكبرى، فلما ذهبا إليها وحدثا الناس، لم يفهم أهلها، وكان سلامان يحفظهم ما جاء في كتب الدين، فعلم أبسال وحي أن خير وسيلة لهداية هؤلاء القوم هو تعليمهم بهذا الوحي؛ لأنه يستخدم أسلوبا مناسبا لعقولهم، أما طريقة الفلاسفة فلا تلائم أذهانهم. فرجع الرجلان إلى جزيرتهما الخالية، وتركا أهل جزيرة سلامان يسيرون على هدي كتبهم الدينية.

وقد أثرت هذه القصة في الآداب العالمية؛ لأنها ترجمت إلى الإنجليزية

والفرنسية والإيطالية وغيرها. وبها تأثر دانييل ديفو، فكتب قصة "ربنسون كروزو".

وسلك المؤلف في قصته مسلكا حسنا، إذ إنه يسر العبارة، فلم يعقد الجمل، ولم يتعمد السجع الذي شاع في عصره، وإنما تتبع المعاني والأفكار، وصور المشاهد والأفعال التي كان يفعلها حي بن يقظان في جزيرته، وكان رسمه للحوادث حيا جذابا، وقد استمد الكاتب من مصادر مختلفة، كلها امتزجت في ذهنه، ثم خرجت في قصته عسلا مصفى؛ فنشأة حي لها روايتان: الأولى: أنه خرج من تخمر التربة في تلك الجزيرة، أي دون أب أو أم، وهذه القصة تشبه قصة خلق آدم من تراب كما في القرآن الكريم. والثانية: أنه كان له والدان، وأن أمه كانت أختا لملك فمنعها من الزواج، فتزوجت سرا وحملت، فلما وضعت حملها خافت أن يعرف الملك فيقتله، فوضعته في صندوق وألقته في البحر، فقذفه الموج على ساحل تلك الجزيرة المهجورة، ويسر الله له الغزالة فأرضعته؛ هذه الرواية متأثرة بقصة أم موسى، عندما وضعت ابنها في صندوق وألقته في النهر، والتقطه آل فرعون، فقد كانت خائفة أن يقتله فرعون الطاغية.

والتشريح الوارد في القصة، تشريح الغزالة بعد موتها، يرينا ثقافة الكاتب الطبية فقد كان طبيبا للخليفة الموحدي. والمجاهدة في القصة، والصيام والعبادة، ثم تلقي العلم الكشفي، يرجع إلى نظرية الفيض الإلهي والكشف والمشاهدة عند الصوفية، كما أن فكرة الاتصال من الأفكار الفلسفية التي دارت في الفكر الإسلامي. والحديث عن أرض الواق واق، والشجرة التي تثمر عرائس، كل ذلك راجع إلى ما شاع في الأندلس من أحاديث العجائب والغرائب، خاصة عجائب الهند، وغرائب البحار، مما كان يستمتع به الشعب الأندلسي آنذاك، وكذلك الشعوب الإسلامية في الشرق، فكتب الأسمار والعجائب تمثل فنا خياليا رائعا في الأدب العربي، وكلها بحاجة لدراسة متأنية.

ليس معنى هذا الكلام أن الكاتب لفق القصة من عناصر مختلفة، وإنما

معناه أنه غزير المادة، كثير الاطلاع، عظيم التفكير، مرهف الحس، فقد صنع قصة جميلة متينة الأسلوب، عميقة الفكر، سهلة التعبير، كأنه نحلة امتصت رحيق أزهار مختلفة ثم حولته في داخلها إلى عسل مصفى، لذيذ طعمه.

يحسن هنا أن نورد نصا من القصة التي كتبها العبقري ابن طفيل، وليكن الجزء الخاص لاكتشاف حي بن يقظان للنار:

"واتفق في بعض الأحيان أن انقدحت نار في أجمة قلخ [البوص الفارسي] على سبيل المحاكاة، فلما بصر بها رأى منظرا هاله، وخلقا لم يعهده قبل، فوقف يتعجب منها مليا، وما زال يدنو منها شيئا فشيئا فرأى ما للنار من الضوء الثاقب، والفعل الغالب، حتى لا تعلق بشيء إلا أتت عليه، وأحالته إلى نفسها، فحمله العجب بها، وبما ركَّب الله تعالى في طباعه من الجراءة والقوة على أن يمد إليها يده، وأراد أن يأخذ منها شيئا.

فلما باشرها أحرقت يده، فلم يستطع القبض عليها، فاهتدى إلى أن يأخذ قبسًا لم تستول النار على جميعه، فأخذ بطرفه السليم، والنار في طرفه الآخر، فتَأَتَّى له ذلك، وحمله إلى موضعه الذي كان يأوي إليه، وكان خلا في جحر استحسنه للسكنى قبل ذلك. ثم ما زال يمد تلك النار بالحشيش والحطب الجزل، ويتعهدها ليلا ونهارا، استحسانا لها وتعجبا منها. وكان يزيد أنسه بها ليلا، لأنها كانت تقوم له مقام الشمس في الضياء والدفء، فعظم بها ولوعه، واعتقد أنها أفضل الأشياء التي لديه، وكان دائما يراها تتحرك إلى جهة فوق، وتطلب العلو، فغلب على ظنه أنها من جملة الجواهر السماوية التي كان يشاهدها. وكان يختبر قوتها في جميع الأشياء بأن يلقيها فيها، فيراها مستولية عليها، إما بسرعة وإما ببطء، بحسب قوة الجسم الذي كان يلقيه للاحتراق أو ضعفه. وكان من جملة ما ألقى فيها على سبيل الاختبار لقوتها شيء من أصناف الحيوانات البحرية، كان قد ألقاه البحر إلى ساحله، فلما أنضجت ذلك الحيوان، وسطع قتاره، تحركت شهوته إليه، فأكل منه شيئا فاستطابه، فاعتاد بذلك أكل

اللحم، فصرف الحيلة في صيد البر والبحر حتى مهر في ذلك.

وزادت محبته للنار؛ إذ تأتى له بها من وجوه الاغتذاء الطيب شيء لم يتأتَّ له من قبل ذلك. فلما اشتد شغفه بها لما رأى من حسن آثارها وقوة اقتدارها، وقع في نفسه أن الشيء الذي ارتحل من قلب أمه الظبية التي أنشأته، كان من جوهر هذا الموجود أو من شيء يجانسه، وأكد ذلك في ظنه ما كان يراه من حرارة الحيوان طوال مدة حياته، وبرودته من بعد موته، وكل هذا دائم لا يختل، وما كان يجده من شدة الحرارة عند صدره بإزاء الموضع الذي كان قد شق عليهِ من الظبية، فوقع في نفسه أنه لو أخذ حيوانا حيا وشق قلبه. ونظر إلى ذلك التجويف الذي صادفه خاليا عندما شق عليه في أمه الظبية، لرآه في هذ الحيوان الحي وهو مملوء بذلك الشيء الساكن فيه، وتحقق هل هو من جوهر النار؟ وهل فيه شيء من الضوء والحرارة أم لا؟ فعمد إلى بعض الوحوش، واستوثق منه كتافا، وشقَّه على الصِّفة التي شق بها الظبية حتى وصل إلى القلب، فقصد أولا إلى الجهة اليسرى منه وشقها، فرأى ذلك الفراغ مملوءا بهواء بخاري، يشبه الضباب الأبيض، فأدخل أصبعه فيه، فوجده من الحرارة في حد كاد يحرقه، ومات ذلك الحيوان على الفور. فصح عنده أن ذلك البخار الحار هو الذي كان يحرك هذا الحيوان، وأن في كل شخص من أشخاص الحيوانات مثل ذلك، ومتى انفصل عن الحيوان مات"(١).

نلحظ في هذا النص الرائع أن الأديب جعل بطله حي بن يقظان يعتمد على التأمل والملاحظة؛ فقد تدبر في شأن النار، ورأى أنها تأكل كل شيء أتت عليه، أو ألقاه إليها، ثم لجأ إلى التجربة ليعرف، فوضع إصبعه فيها فلسعته حرارتها، وهداه عقله للاستفادة منها، فأشعل بعض فروع الشجر فكانت تضيء له الظلام، تدفئه في البرد، ولما أحرقت بعض الحيوانات شم رائحة

---

(١) حي بن يقظان ، لابن طفيل - مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ٢٠٠٠ م ، ص ص ٤٧ – ٤٩.

الشواء، فاشتهى الطعام، فأكل من تلك الحيوانات التي شوتها النار، فاستطاب طعمها، فأخذ يشوي ما يصيده من البر والبحر وسعد بذلك. ولما رأى النار تصعد إلى أعلى استنبط أنها جوهر، وأن في داخل الإنسان والحيوان محركا من طبيعة الجواهر كالنار، فأخذ يجرب، فأمسك بعض الحيوانات الصغيرة، وشق صدرها كالجراح الذي يجري عملية، ونظر في الجانب الأيسر حيث يوجد القلب فشقه، فوجد في غرفة منه ضبابا، فلما وضع إصبعه فيه وجده ساخنا، فعرف أن هذا هو المحرك، وأنه هو الذي خرج من قلب أمه، وأن الإنسان يعيش إذا كان هذا البخار في القلب، ويكون جسمه دافئا، وإذا خرج، وخلا القلب منه مات الإنسان وكذلك الحيوان والطيور، وتبرد حرارة الجميع عند الموت.

ويبدو المنهج العلمي في النص واضحا، وهو يعتمد على الملاحظة والتجربة والقياس والاستنباط، وكان علماء المسلمين يسيرون على هذا النهج في بحوثهم العلمية وقد وضع الكاتب رؤيته في أسلوب أدبي مرسل، لا تكلف فيه، فعنايته كلها مركزة في تتبع الغرض، وبيانه على أكمل وجه.

ملخص الوحدة السابعة 

المقامة حكاية لها بطل وراوية وموضوع وأسلوبها مسجوع دائما، وجملها خيالية تعتمد على الاستعارة والتشبيه والكناية والإشارة والمقابلة. وأول من أعطاها شكلها الفني بديع الزمان الهمذاني وتبعه الحريرى، وانتقلت مقاماتهما إلى الأندلس، فدرسها أهلها وشرحوها ثم حاكوها، وأكبر من قلدها وعارض الحريري هو أبو الطاهر السرقسطي. فكتب خمسين مقامة وجعل لها بطلا سماه أبا حبيب السدوسي، وراوية هو السائب بن تمام، وزاد راوية آخر هو المنذر بن حمام، والموضوعات التي دارت عليها المقامات الأندلسية هي الوصف والرحلات والنقد الاجتماعي والأخلاقي والأدبي، والكدية والمدح. وفي العصر الغرناطي أصبحت السياسة والفكاهة من موضوعات المقامة. وأبرز من ألف المقامات في الأندلس أبو الطاهر السرقسطي وأبو حفص بن الشهيد وابن فتوح والنباهي ولسان الدين بن الخطيب.

والحكاية والقصص من الفنون الشعبية أصلا، وكل شعب له حكاياته، وكان للأندلسيين حكايات وقصص متنوعة، بعضها واقعي وبعضها أسطوري، وبعضها مزيج من الواقع والخيال فهناك قصص الأبطال في الحروب الأندلسية، وقصص العشاق كابن زيدون وولادة. وقصص الزهاد والصوفية، كالقصص التي يحكيها ابن عربي المرسي في كتبه أو محاضراته، وحكايات العجائب البحرية والغرائب الهندية، وقصص السحرة، وكلها مادة أدبية رائعة. تمتاز هذه الحكايات والقصص بأسلوبها السهل المشوق، وهي لا ترتكز على السجع مثل المقامة، وإنما تعبيرها مرسل.

وأعظم القصص الأندلسية قصة حي بن يقظان التي كتبها الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل، وهي التي تأثر بها دانييل ديفو في قصته روبنسون كروزو.

[?] أسئلة تقويمية على الوحدة السابعة

س١: حدد المقصود بالمقامة .

س٢: أين ظهرت المقامة ؟ وكيف وصلت الأندلس ؟

س٣: ما موضوعات المقامات ؟

س٤: من أهم المقاميين الأندلسيين ؟

س٥: ما أنواع القصص والحكايات في الأندلس ؟

س٦: ما أهم القصص الأندلسية ؟

س٧: ما الفرق بين الحكاية والمقامة ؟

إجابة بعض الأسئلة

ج٣: ظهرت المقامة بالعراق، وأول من كتبها بهذا الشكل بديع الزمان الهمذاني، ثم حاكاها كتاب آخرون، أكبرهم الحريري الذي كتب خمسين مقامة. وقد وصلت هذه المقامات إلى الأندلس عن طريق الطلاب الأندلسيين الذين تلقوا العلم في الشرق، وعادوا إلى الأندلس بنسخ من مقامات بديع الزمان والحريري. وتولوا شرحها للدارسين الأندلسيين، ثم سار على منوالها أدباء الأندلس وتطورت في ربوع البلاد الأندلسية.

ج٧: الفرق بين الحكاية والمقامة: تكتب المقامة بأسلوب مسجوع مغرق في البيان، ولها بطل وراوية، ومن موضوعاتها الكدية أو التسول. والحكاية تؤلف بأسلوب مرسل سهل، تعتمد على التشويق، وليس فيها راوية، وإنما الكاتب نفسه هو الذي يروي الأحداث.

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الأدب الأندلسي، من الفتح إلى سقوط الخلافة. ط: دار المعارف. مصر، ١٩٨٢م.

٣- أزهار الرياض: للمقري؛ تحقيق: الأستاذ/ مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة، ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م.

٤- البسامة، قصيدة لابن عبدون، شرح ابن بدرون: تحقيق: دوزي، ط: مصر، ١٣٤٠هـ.

٥- البسطي: د/ محمد بن شريفة، طبعة المغرب.

٦- البيان المغرب: لابن عذاري، تحقيق بروفنسال.

٧- تاريخ الأدب الأندلسي- عصر الطوائف والمرابطين: د/ إحسان عباس؛ ط: بيروت.

٨- الحلة السيراء: لابن الأبار، تحقيق د/ حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥م.

٩- جيش التوشيح: لابن الخطيب، تحقيق: هلال ناجي وابن الماضور، تونس، ١٩٦٧م.

١٠- حي بن يقظان: لابن طفيل؛ مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ٢٠٠٠م.

١١- خريدة القصر: قسم المغرب والأندلس؛ للعماد الأصفهاني.

١٢- دار الطراز: لابن سناء الملك؛ تحقيق د/ جودت الركابي، ط: دمشق.

١٣- دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة: د/ الطاهر مكي؛ دار المعارف بمصر، ١٩٨٣ م.

١٤- دلائل الإعجاز: لعبد القاهر الجرجاني؛ تحقيق: الشيخ محمود شاكر، ط: الخانجي.

١٥- ديوان ابن الأبار: تحقيق د/ عبد السلام الهراس؛ ط تونس، ١٩٨٥ م.

١٦- ديوان أبي إسحاق الألبيري: تحقيق د/ محمد رضوان الداية؛ ط٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

١٧- ديوان الأعمى التطيلي: تحقيق د/ إحسان عباس، ط بيروت.

١٨- ديوان بن حمديس: تحقيق د/ إحسان عباس؛ ط بيروت.

١٩- ديوان ابن خفاجة: تحقيق أ/عبد الله سندة؛ بيروت، دار المعارف، ط ٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

٢٠- ديوان بن دراج: تحقيق د/ محمود مكي؛ المكتب الإسلامي بدمشق، ط ٢، عام ١٩٦١م.

٢١- ديوان ابن زيدون: تحقيق أ / علي عبد العظيم، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٠م.

٢٢- ديوان ابن عبد ربه: تحقيق د/ محمد رضوان الداية؛ دار الفكر، دمشق، ط ٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٣- ديوان المتنبي: شرح العكبري؛ ط بيروت .

٢٤- ديوان المعتمد بن عباد: تحقيق د/ أحمد بدوي؛ مصور عن نسخة دار الكتب عام ١٩٩٧م.

٢٥- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: لابن بسام الشنتريني؛ تحقيق د/ إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط ١، سنة ٢٠٠١م.

٢٦- رسالة ابن أبي الخصال: تحقيق د/ محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٢٧- شعر الجهاد في عصر الموحدين: للأستاذ شفيق الركب؛ الأردن، ١٩٨٤م.

٢٨- طوق الحمامة في الألفة والألاف، لابن حزم؛ تحقيق د/ الطاهر مكي، دار المعارف بمصر، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٢٩- العبر: للحافظ الذهبي؛ تحقيق أ / فؤاد سيد، ط الكويت، ١٩٦١م.

٣٠- فن القص في النثر الأندلسي: د/ علي الغريب محمد الشناوى؛ مكتبة الآداب بالقاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م.

٣١- الفنون الأدبية في الأندلس: د/ شعبان محمد مرسي؛ دار الهاني، مصر ، ٢٠٠٠م.

٣٢- الكامل: للمبرد؛ ط بيروت، ١٩٨٥م.

٣٣- محاضرات في الأدب الأندلسي: ليفي بروفينسال؛ ترجمة د/ عبد الحميد العبادي، مصر، ١٩٥١م.

٣٤- مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين: تحقيق ليفي بروفينسال؛ القاهرة، ط دار المعارف، ١٩٥٥م.

٣٥- المطرب في أشعار أهل المغرب: لابن دحية؛ تحقيق/ إبراهيم الإبياري وحامد عبد المجيد وأحمد بدوي؛ دار الكتب المصرية، ١٩٩٧م.

٣٦- المعجب في تلخيص أخبار المغرب: لعبد الواحد المراكشي؛ تحقيق د/ محمد زينهم؛ دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.

٣٧- المغرب في حلى المغرب: لابن سعيد؛ تحقيق د/ شوقي ضيف؛ القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٨م.

٣٨- مقامات ورسائل أندلسية: د/ فرناندو دي لاجرانخا؛ ترجمة د/ عبد اللطيف عبد الحليم، القاهرة، دار الثقافة العربية.

٣٩- المقامات اللزومية السرقسطية: لأبي الطاهر السرقسطي؛ تحقيق د/ أحمد بدر ضيف، الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م.

٤٠- المقتبس: لابن حيان؛ تحقيق د/ محمود مكي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة عام ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٤١- مقدمة ابن خلدون: ط عبد السلام بن شقرون، مصر.

٤٢- الموشح الأندلسي: لصمويل ستيرن، ترجمة د/ عبد الحميد شيحة.

٤٣- الموشحات الأندلسية: د سيد غازي؛ ط الإسكندرية، ١٩٧٩م.

٤٤- نفح الطيب: للمقري؛ تحقيق د/ إحسان عباس، بيروت دار صادر، ط ٢٠٠٤م.



رقم الإيـداع: ١٣٨٧١ / ٢٠٠٩

ISBN: 977-403-355-8

مركز
جامعة القاهرة
للتعليم المفتوح

تم الطبع بمطبعة
مركز
جامعة القاهرة
للتعليم المفتوح

